

قذائف الحق

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

محمد الغزالي

دار القلم
دمشق

طَبْعَةُ دَارِ القَلَمِ الأُولَى

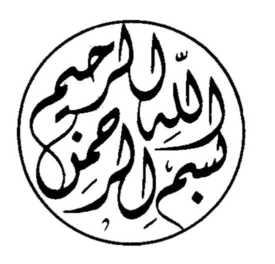
١٤١١هـ - ١٩٩١م



دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

قَذَائِفُ الحَقّ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

من خمسين سنة، عندما عقلت ما يجري حولي، أدركت أن نصف الإسلام ميِّت أو مجمَّد، وأن نصفه الآخر هو المأذون له بالحياة أو الحركة إلى حين!!

وأحسست أن هنالك صراعاً يدور في خفاء أحياناً، وعلانية حيناً بين فريقين من الناس:

ـ فريق يستبقي النصف الموجود من الإسلام، ويدفع عنه العَوادي، ويحاول استرجاع النصف المفقود، ويلفت الأنظار إلى غيابه.

ـ وفريق يضاعف الحجب على النصف الغائب، ويريد ليقتله قتلاً، وهو في الوقت نفسه يسعى لتمويت النصف الآخر وإخماد أنفاسه وإهالة التراب عليه.

وكلما طال بي العمر كنت ألحظ أن المعركة بين الفريقين تتسع دائرتها، وتشترك فيها إذاعات وأقلام، وجماعات وحكومات، ومناقشات ومؤامرات.

وكانت الحرب سجالاً، وربما فقد المؤمنون بعض ما لديهم، وربحوا بعض ما أحرزه خصومهم، وربما كان العكس، وفي كلتا الحالتين تنضم إلى معسكر الحق قوى جديدة، وتنضم إلى معسكر الباطل قوى جديدة، ويزداد الصراع حدة وشدة كلما لاح أن الساعة الحاسمة تقترب.

ونحن نُصدر هذا الكتاب في ظروف شديدة التعقيد:

أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه، ويريدون استغلال المصائب التي نزلت بأمته كي يبنوا أنفسهم على أنقاضها.

يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين.

وقد قررنا نحن أن نبقى، وأن تبقى معنا رسالتنا الخالدة، أو قررنا أن تبقى هذه الرسالة ولو اقتضى الأمر أن نذهب في سبيلها لترثها الأجيال اللاحقة.

من أجل ذلك نرفض أن نعيش وفق ما يريد غيرنا أو وفق ما تقترحه علينا عقائد ونظم دخيلة.

من حق المسلمين في بلادهم أن يحيَوا وفق تعاليم دينهم، وأن يبنوا المجتمع حسب الرسوم التي يقدمها الإسلام لإقامة الحياة العامة.

والإسلام ليس عقيدة فقط، إنه عقيدة وشريعة.

ليس عبادات فقط إنه عبادات ومعاملات.

ليس يقيناً فردياً فقط، إنه نظام جماعي إلى جانب أنه إيمان فردي.

إنه كما شاع التعبير: دين ودولة.

وإذا كان هناك في ربوع الأرض الإسلامية من يعتنق اليهودية أو النصرانية فلن يضيره ذلك شيئاً. إذ أن حرية التدين من صلب التعاليم الإسلامية، وقد ازدهرت هذه الحرية في أرجاء العالم الإسلامي جمعاء، عندما كانت مطاردة في أقطار أخرى لا حصر لها.

والتاريخ شاهد صدق على ذلك.

ثم إن اليهود والنصارى رضوا بالعيش في ظل حكم مدني يبيح الزنا والربا والخمر وأنواع المجون، بل عاشوا في ظل نظم يسارية ترفض الإيمان من أصله، فلا يسوغ أن يتضرروا من حكم إسلامي ينصف نفسه وينصفهم على السواء.

وأياً ما كان الأمر فنحن المسلمين مستمسكون بحقنا في تطبيق شريعتنا والاستظلال براية الإسلام في شؤوننا كافة، ولن نقبل نظاماً يسارياً ملحداً، ولا نظاماً مستورداً يسوِّي بين الأضداد، بين الكفر والإيمان، بين العفة والعهر، بين المعبد والخان، باسم الحرية.

وقد لاحظنا ـ محزونين غاضبين ـ أن اتفاقاً تم بين اليهودية العالمية، وبين

أقوى الدول النصرانية على ضرب الإسلام وإذلال أمته والقضاء الأخير على معالمه وتاريخه.

وأثبتت الأحداث أن الضمير الديني عند «أهل الكتاب» قد فقد عدالته وطهارته نهائياً[1].

فاليهود الذين مَرَنوا على أكل السحت وثبوا على أرضنا ليأكلوها بما فيها ومن فيها، وراءهم أمداد هائلة من المال والسلاح تجيئهم من أمريكا وغير أمريكا.

والكنائس الغربية تبارك هذا السطو، وتعده تحقيقاً لأحلام العهد القديم، ومن أجل ذلك تحذف لعن اليهود من صلواتها ـ كما أمر البابا بعدما أوَّل الأناجيل، وبرأ اليهود من دم المصلوب ـ .

إن الضمير الديني عند «أهل الكتاب» ابتلع أكبر فضيحة عالمية عندما سوَّغ العدوان على العرب، والتهام دورهم وأموالهم وتاريخهم، ولم يَرَ في ذلك شيئاً يستحق النكير!!

إن الحقد التاريخي على الإسلام جعل رؤساء البيت الأبيض يشاركون في ذبحنا بسرور ورغبة، ويساعدون الغزاة بإسراف وحماس.. أما ساسة إنجلترا وفرنسا فقد أعانوا اللص أولاً على رب البيت حتى تمكن من اقتحامه، ثم عندما شرع رب البيت في المقاومة قالوا: يمنع السلاح عن الطرفين المتساويين ويقسم البيت بينهما!![2].

هذا منطق الضمير الديني عند اليهود والنصارى، عند حملة رسالات السماء!!

إن احتقار الناس للدين والمتدينين إنما يجيء من هذه المسالك الهابطة.

وعندما يظفر «الإلحاد الأحمر» بشيء من الحفاوة والقبول فلأن مسلكه كان أقرب إلى الشرف وأدنى إلى العدالة المجردة!! وصدق الله العظيم:

﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿٣٤﴾ ﴾. [التوبة: ٣٤].

---

(١) راجع الباب الثامن: «محنة الضمير الديني هناك». ففيه تفصيل شاف لهذه القضية.

(٢) وذلك ما أقره مجلس الأمن، ورضي به المستضعَفون!!

والواقع أن نجاح الشيوعية في آسيا وأوروبا يعود إلى تبلُّد الضمير الديني عند اليهود والنصارى جميعاً، وقدرة هؤلاء الناس على المصالحة بين أهوائهم ومراسم العبادة التقليدية.

وقد انضم إلى الهجوم العسكري على الإسلام هجوم ثقافي يتسلل خفية إلى السرائر والعقول مليئاً بالدس والخَتَل، وجبهة الهجوم تشمل الآن أطراف العالم الإسلامي وصميمه، وتتذرع بكل شيء لتدمير العقائد الإسلامية وإهالة التراب على معالم الإسلام كلها.

ولمَّا كان العرب هم دماغ الإسلام وقلبه فلا بدَّ أن يتضخم نصيبهم من هذا الهجوم المحموم.

وهنا ـ في خطة الصليبية الغربية ـ يجيء دور النصارى العرب الذين يجب أن يسهموا في ضرب الإسلام وكسر شوكته ومنع دولته!!.

ترى: أيؤدّون هذا الدور بدقة ويطعنوا مواطنيهم من الخلف؟

الحق أن عدداً كبيراً منهم رفض الاستجابة لهذه الخيانة، وفي معارك فلسطين حمل السلاح جنباً إلى جنب مع المسلمين.

بيد أن استمرار العرض الغادر، والهزائم التي أصابت المسلمين في ميادين شتى، والفراغ العقلي لدى خريجي التعليم المدني، وسيل الشهوات الدافق من هنا وهناك، كل ذلك جعل الأوضاع تتغير، وأغرى بعض الرؤساء الدينيين في الشام ومصر بفعل أمور ذات بال!!

وذلك ما دفعني إلى تأليف هذا الكتاب.

لقد أحسست أن خطوطنا الدفاعية مهددة من خلفها، وأن المؤامرة على الإسلام وأمته الغافلة قد أخذت أبعاداً جديدة مخوفة، وأن المصارحة هنا أجدى في رد الخطر وقتل بوادر الشر قبل أن تستفحل.

لقد وَهَنت قوى الإسلام إثر الضربات المادية والأدبية التي تناولته من كل جانب، وسُمع من يقول: ما الذي جاء بالإسلام إلى مصر؟ وإلى متى يبقى؟ ولماذا لا تكون بدل مصر إسرائيل أخرى أو إسبانيا أخرى؟.

ألا ما أشد غربة الإسلام في بلاده. . .

وأمسى الإلحاد ذكاء والإيمان غباء!!

والتوحيد جموداً والشرك تقدماً ووعياً!!

ومن يُسَمَّون رجال الدين الإسلامي موضع التندر والسخرية.

لا من وسائل الإعلام الرسمية وحدها، بل من مسؤولين كبار «جداً».

أما كُهّان اليهودية والنصرانية فحولهم تهاويل، ولهم مكانة لا تمس!!

وشاركت مراكز القاهرة مراكز لبنان في مهاجمة القرآن، ومخاصمة نبيّه وتزوير تاريخه. . وانسابت من جحورها أفاع ما عرفت الصفو يوماً تريد أن تنفث سمومها علناً، وأن تخذل القضايا الإسلامية في كل مكان.

إذا قلنا: يجب أن يعلَّم الدين في جميع المراحل، وأن يختبر فيه الطلاب اختباراً يؤثر في مستقبلهم. . قيل: والنصارى؟

نُجيب: لن نعلمهم الإسلام بداهة، ولهم أن يتعلَّموا دينهم، ولا تكلف الدولة أن تختبرهم فيه. . وتوضع نسبة دقيقة تضمن لغير المسلمين أن يأخذوا طريقهم إلى درجات التعليم كلها دون حساسية.

هل من شروط الوحدة الوطنية[1] أن يتم تجهيل المسلمين في دينهم؟

إذا قلنا: يجب الحكم بما أنزل الله سمعتَ صوتاً خبيثاً يقول: والنصارى؟

نُجيب: تبقى لهم الأحكام المقررة في دينهم ـ وهي تتصل بالأحوال الشخصية ـ أما بقية القوانين فلا بدَّ أن تطبق على الكل، نعتبرها نحن ديناً، ويعتبرها غيرنا تشريعات عادية كسائر التشريعات التي تحكم إخوانهم في سائر أقطار العالم، ماذا في ذلك؟

هل من شروط الوحدة الوطنية أن يكفر المسلمون بشريعتهم؟!

لكن الاستعمار العالمي الذي استعان بالكنائس الغربية على إذلال الإسلام

---

(١) نحن نرفض أن تبتر أجزاء من الإسلام أو يدحرج عن مكانته الطبيعية باسم الوحدة.

واستباحة حماه، يوسِّع اليوم دائرته ليضمن تعاون الكنيسة الشرقية معه.

ومن ثَمَّ بدأت تصرفات مجنونة، ومطالب لا أساس لها تظهر على ألسنة بعض المسؤولين وغير المسؤولين.

ونحن في هذا الكتاب نلتزم جانب الدفاع ومستعدون لوقف المعركة إذا توقَّف المعتدون.

إن المؤتمرات التبشيرية العالمية تجد صدى لها في نشاط محلي ينطلق على الأرض العربية.

وقد أفلح هذا النشاط في تنصير عدد من الطلاب لا يؤبه له، ولكن دلالته تصرخ بما فيها من التحدي والخيانة.

ولم يكن بدٌّ من أن نتحرك لنحق الحق ونبطل الباطل.

وعسى أن يرعوي المغامرون ويكفونا مزيداً من القول.

وإن كنا يائسين من أن يوجد للغلِّ الصليبي دواء.

أكتب هذه الصحائف وأنا في «رباط الفتح» عاصمة المغرب الشقيق، وأنباء القتال الدائر بين العرب واليهود تصل إلينا ساعة بعد ساعة، آذاننا صاغية إلى أجهزة «الراديو» تتنسَّم خبراً يفرح[1].

لكن ما هذا؟ جسر جوي بين الولايات المتحدة وإسرائيل يعوضها عن كل سلاح تخسره، ويمنحها من القدرة ماتذل به رؤوسنا!! ومتطوعون من شتى العواصم يقول عنهم مراسل صحيفة إنجليزية:

لقد ولَّوا وجوههم شطر إسرائيل بالروح التي كانت تدفع الرجال قديماً إلى الاشتراك في الحروب الصليبية!!

أما لهذا الغلّ من آخر؟!

وقال صديق مغربي خبير بعلل القوم: إنهم يقاتلون العرب لأنهم مسلمون.

---

(١) يريد المؤلف الحرب التي جرت في عام ١٩٧٣م في شهر أكتوبر/ تشرين أول، ووافق شهر رمضان من السنة الهجرية (الناشر).

وقلت: إن القتال الآن قومي لا ديني . . ليكن، ما دام العرب عرباً، وما دام القرآن أهم كتاب في لسانهم، وما داموا قد انبعثوا به قديماً فيجوز أن ينبعثوا به حديثاً، إذن لا بدَّ من إبادتهم وإحلال جنس آخر محلهم!!.

هذا ما انتهى إليه الضمير الديني صاحب شعار «الله محبة»[1]!

وإلى جانب هذه المؤازرة الخسيسة كنت أسمع أن «الروس» أقاموا جسراً مقابلاً، وأنهم سوف يضعون في يد العرب ما يردون به العدوان ويسترجعون به الأرض ويغسلون به العار[2].

إنني أكره الإلحاد والملحدين، بيد أني وجدت نفسي أمام موقف فاتن، إنني فقير إلى هذا السلاح! وعسى أن يسعفني ويتماسك في يدي. سآخذه مقدراً اليد التي أسدته، سآخذه لأكسر به شوكة المعتدين الذين أفقدهم الحقد كل أثارة من عدل وعقل.

وسأدفع ثمنه ولو كان مضاعفاً، وسأذكر الجميل فأعاون الشعب الروسي على ضرب الاستعمار الغربي يوم يتحرك هذا الاستعمار بغرائزه الشرسة ويحاول الإساءة إلى الشعوب الأخرى.

على أن مشكلتي الحقيقية مع سماسرة الغزو الثقافي في بلادنا، وضحاياه الذين نسوا الإسلام أو تناسوه.

المشكلة مع الجيل المهجَّن الذي ورث الإسلام أسماء وأشكالاً فارغة ورفضه:

- تربية معينة . . .
- وقوانين محدَّدة . . .
- وقيماً مضبوطة . . .
- وأهدافاً ثابتة . . .

هؤلاء المتعاقلون العَجَزة هم من وراء كل المحن التي لحقتنا، ولقد امتلكوا

---

(١) سترى أن هذه اللافتة تخفي وراءها حقائق دينية لا يمكن إنكارها توصي بالجبروت مع الأعداء.

(٢) هذا الكلام غير مؤكد، إذ أن الروس يضنون على العرب بالسلاح الفعّال، ولا يجارون الأمريكان بأي حال في إمدادهم لليهود، بل يرون أن من صالحهم أن يبقى العرب منهزمين أمام اليهود (الناشر).

ناصية التوجيه المادي والأدبي في سَرّاء الأمة وضَرّائها، فلم تَجْنِ الأمة منهم إلّا الشتات والآلام.

ماذا يريد هؤلاء؟ إنهم يعالنون بعدم العودة إلى الكتاب والسنّة، ويبشرون بحكم مدني يخسر الإسلام فيه أصوله وفروعه، وتظفر فيه نزعات الإلحاد أو الشرك بكل المغانم.

وسوف يقرؤون هذا الكتاب ويتميزون غيظاً لما جاء به من حقائق كانوا يودون كتمانها، وحوار لا يحبون أن يدور.

ونريد أن نقول لهؤلاء: إنكم غرباء على أمتنا ودينها وتاريخها.. إن أمتنا تملك البت في أمورها فستختفون فوراً من جوها.

وإلى أن تملك الأمة أمرها أيسكت رجال الإسلام عن قول الحق ورفض الإفك؟؟ كلا، إن الله أخذ الميثاق على حَمَلة الوحي أن يعالنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه، وأكّد عليهم ذلك في قوله:

﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴿١٨٧﴾ ﴾. [آل عمران: ١٨٧].

فما بدَّ من البيان وعدم الكتمان.

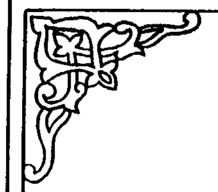
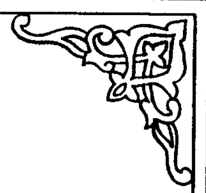
وأعلم أن ذلك قد يعرِّض لمتاعب جسام، ولكني أقول ما قاله صديقنا الشاعر «عمر بهاء الدين الأميري»:

الهولُ في دربي وفي هدفي وأظلُّ أمضي غير مضطرب
ما كنت من نفسي على خَوَر أو كنت من ربِّي على رِيَب
ما في المنايا ما أحاذره اللَّه ملءُ القصد والأرب

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾. [آل عمران: ١٤٧].

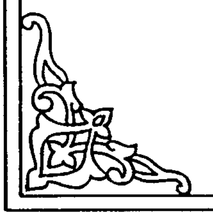
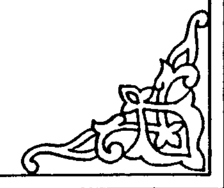
﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾. [الممتحنة: ٤ ــ ٥].

محمّد الغزالي

الفَصْل الأوّل

- العقل أولاً . . . ثم ننظر فيما يقال.
- هل يترك المسلمون القرآن لهذه الأقوال عن الله؟
- الله يتعب، ويجهل، ويندم، ويأكل، ويصارع!!
- العهد القديم وافتراءاته على المرسلين بعد افتراءاته على ربهم.
- نوح السِكِّير وأسرته، لوط الزاني، إبراهيم الديُّوث، يعقوب المحتال.
- هدف اليهود من تزوير التوراة.
- لماذا نرتدّ عن ديننا؟ وماذا نختار بدله، أنستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

الفَصْل الأوّل

العقل أولاً، ثم ننظر فيما يقال

شعرتُ بحاجة إلى أن أمسح عيوني وأنظم رموشها، ثم نظرت إلى أصابعي بعد ذلك فوجدت بينها بضعة أهداب عالقة، نفختها فطارت إلى حيث لا أدري.

وما لبثت أن تساءلت: أين وقعت؟ وكان الجواب: على الأرض حيث تفنى.

ولكن المعاني تداعت: وما يدريك أنها ستأخذ دورة أخرى في الحياة، فتكون سماداً لحبوب متراصَّة في سنبلة قمح أو كوز ذرة؟

ولم تقف عند ذلك: لعلها تعود إلى كيان آخر لإنسان مثلي!!

ترى ماذا ستكون في هذا الكيان الجديد؟!

... رموشاً تظلل العين كما كانت عندي، أو عنصراً آخر في عظمه ولحمه؟

وزادت المعاني تداعياً: من الذي يشرف عليها في هذه الرحلة.

إنه ليس إشراف علم ورقابة. إنه إشراف كينونة وتغيير وتنقيل من أعلى لأدنى أو من أدنى لأعلى.

وزادت المعاني تداعياً: إن هذه الملاحقة الماسَّة لا تعنيني وحدي.. إننا ـ أبناء آدم ـ نبلغ قرابة أربعة آلاف مليون على ظهر الكرة الطائرة، والخلَّاق العليم وراء كل قطرة دم تتدفق في العروق، ومن وراء كل شعرة تنبت في الجلود والرؤوس والجفون، من وراء كل زفير أو شهيق تعلو به الصدور وتهبط.!!

ذاك في كياننا المادي، أما في كياننا المعنوي فقد تصورت هذا الإشراف الأعلى على هواجس الفكر في الأدمغة.. أدمغة الخلق في كل قارة، في كل شبر معمور، وعلى كل تيارات الحس المختلفة من حزن وسرور، من يأس أو رجاء، من نشاط أو استرخاء...

عجباً أهو إشراف رقابة من بعيد؟ كلا إنه إشراف مُلابس متغلغل من واهب الحياة ومسيِّر الأحياء في البر والبحر.

وزادت المعاني تداعياً: لكن هذه الأرض ليست حِكْراً لنا وحدنا. إن أصنافاً أخرى من الخلائق تعيش فوقها زاحفة أو طائرة لها أرزاقها ومساربها، ومستقرها ومستودعها، ويقظتها ومنامها.

والعناية المحيطة تمد أجنحتها لتشمل ما نرى وما لا نرى من ذلك كله، ثم ما عالم الجماد في هذه الكرة المعلَّقة الطائرة في جو السماء؟

إن أغلب سطحها ماء مشحون بعوالم أخرى، ومن تحت الماء وحوله يابسة تختفي في قشرتها معادن خسيسة وكريمة. !!

ترى بالضبط أين البترول الذي ينقِّبون عنه ولا يهتدون إليه؟ وأين الذهب الذي تهيج له أعصاب، وتتحلب له أفواه؟ إن الله وحده هو الذي يدري.

وتحت القشرة الباردة وما ضمت من رطب ويابس توجد نار مستعرة، وباطن ملتهب، ما هذا كله؟

وعدت إلى نفسي وأنا في هذه الجولة الفكرية لأتساءل: ثم ما نحن في هذا العالم الكبير؟

وسمعت الإجابة على هذا السؤال من رائد الفضاء الأمريكي الذي يقول:

«... عندما وقع عليَّ الاختيار لبرنامج الفضاء كان بين أوائل الأشياء التي أعطيت لي كتيب صغير يحوي الكثير من المعلومات عن الفضاء، وكان بين محتوياته فقرتان تتعلقان بضخامة الكون أثَّرتا فيّ تأثيراً بالغاً.

«ولكي ندرك هاتين الفقرتين يجب أن نعرف أولاً ما هي السنة الضوئية: إن الضوء يسير بسرعة تبلغ ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ــ أي ما يعادل الدوران حول الأرض حوالي سبع مرات في الثانية ــ ، فإذا أطلقت هذا الشعاع من الضوء وجعلته يستمر لمدة عام فإن المسافة التي يقطعها ــ وتبلغ حوالي ٩,٥ مليون مليون كيلو متر ــ هي السنة الضوئية!!

وإني أقتبس هنا ما ورد في الكتيب عن حجم الكون الذي نعيش فيه: «عندما نذكر أن المجرة التي تضم كوكبنا يبلغ قطرها حوالي ١٠٠ ألف سنة ضوئية نشعر بدهشة.

«ولما كانت الشمس نجماً لا يعتد به يقع على مسافة حوالي ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركز المجرَّة، ويدور في مدار خاص به كل ٢٠٠ مليون سنة أثناء دوران المجرة، فإننا ندرك مدى صعوبة المقياس الهائل للكون الواقع وراء المجموعة الشمسية.

«بل إن الفضاء الذي يقع بين النجوم في مجرّتنا ليس نهاية هذا الكون، فوراءه ملايين من المجرَّات الأخرى تندفع جميعاً فيما يبدو متباعدة عن بعضها البعض بسرعات خيالية، وتمتد حدود الكون المرئي بالمجهر مسافة ٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية على الأقل في كل اتجاه.

«إن هذا الوصف يُظهِر مدى ضخامة الكون الذي نعيش فيه.

... ولنعد الآن إلى ما نعرفه عن تكوين الذرَّة، وهي أصغر جسم حتى الآن، فنجد أن هناك تشابهاً كبيراً بين الذرّات ومجموعتنا الشمسية في الكون.

«ذلك أن هذه الذرات لها إلكترونات تدور حول النواة بصور منتظمة كدوران الأسرة الشمسية حول أمها الشمس».

«والآن ماذا أريد أن أقول؟ أريد التحدث عن نظام الكون بأسره من حولنا.

«من أصغر تكوين ذري إلى أضخم شيء يمكن تصوره.. مجرات تبعد ملايين السنين الضوئية، كلها يسير في مدارات مرسومة محددة تضبط علاقة كل منها بالأخرى. فهل يمكن أن يكون ذلك كله قد حدث اتفاقاً؟

«أكانت مصادفة أن حزمة من نفايات الغازات الطافية بدأت فجأة في صنع هذه المدارات وفقاً لاتفاقها الخاص؟

«إنني لا أستطيع تصديق ذلك.. بل إن ذلك مستحيل، والمؤكد أن ذلك تم وفق خطة مرسومة محددة.. وهذا واحد من الأشياء الكثيرة في الفضاء التي تبين لي أن هناك إلهاً، وأن قوة ما قد وضعت كل هذه الأشياء في مدارات وأبقتها هناك تؤدي وظيفتها العتيدة.

«ولنقارن السرعة في مشروعنا «عطارد» مع بعض هذه الأشياء التي نتحدث عنها:

«إننا نظن أحياناً أن المشروع على ما يرام، فقد بلغنا سرعة تصل إلى حوالي ٢٩ ألف كيلو متر في الساعة في الدوران حول الأرض ـ أي حوالي ٨ كيلو مترات في الثانية ـ وهي سرعة كبيرة حقاً بالنسبة لمقاييسنا الأرضية، كما أنها سرعة مرتفعة إلى حد مناسب ونحن على ارتفاع يزيد قليلاً على ١٦٠ كيلو متر.

أما بالنسبة لما يجري فعلاً في الفضاء فإن مجهوداتنا هذه تعد ضئيلة جداً» اهـ.

• • •

وصدق رائد الفضاء في كلمته تلك، فإن ما يصل إليه الإنسان بجهده وفكره شيء محدود القيمة بالنسبة إلى ما يقع في العالم حوله، وأذكر أنني تجولت في مصانع السكر، ورأيت الأنابيب الطافحة بالعصير، والأفران المليئة بالوقود، والآلات التي تغطي مساحة شاسعة من الأرض، لقد قلبت البصر هنا وهنالك ثم قلت: سبحان الله! إن بطن نحلة صغيرة يؤدي هذه الوظيفة.. وظيفة صنع السكر دون كل تلك الأجهزة الدوّارة والضجيج العالي!!

وخُيِّل إليَّ أن المخترعات البشرية لا تعدو أن تكون إشارة ذكية إلى ما يتم في الكون بالفعل من عجائب دون وسائط معقدة وأدوات كثيرة.

ولو أن البشر أرادوا بناء مصنع للفِّ الحبات النضيدة في سنبلة قمح بالقشرة التي تحفظ لبابها لاحتاج الأمر إلى حُجْرة كبيرة تحت كل عود!!

لكن ذلك يحدث في الطبيعة في صمت وتواضع!!

والمقارنة التي عقدناها هنا تجاوزنا فيها كثيراً، فإن الإنسان المخترع هو بعض ما صنع الخالق، والمواهب الخصبة فيه بعض ما أفاء الله عليه.

وكأنما أراد الله الجليل أن يعرّف ذاته وعظمته للإنسان الذي أنشأه، فهداه إلى بعض المخترعات ليدرك مما بذل فيها كيف أن الكون مشحون بما يشهد للخالق بالاقتدار والمجد.

إن ميلاد برتقالة على شجرة أروع من ميلاد «سيارة» من مصنع سيارات يحتل ميلاً مربعاً من سطح الأرض، ولكن الناس ألفوا أن ينظروا ببرود أو غباء إلى البدائع لأنها

من صنع الله، ولو باشروا هم أنفسهم ذرة من ذلك ما انقطع لهم ادعاء ولا ضجيج . .

● ● ●

إنني عرفت الله بالنظر الواعي إلى نفسي وإلى ما يحيط بي، وخامرني شعور بجلاله وعلوه وأنا أتابع سننه في الحياة والأحياء.

وبدا لي أن أستمع إلى ربي في الوحي الذي أنزله. . إذ لا بد أن يكون هذا الوحي حديثاً ناضجاً بما ينبغي له من إعزاز وحمد.

كان أقرب وحي إليّ هو القرآن الكريم لأنني مسلم، فلما تلوته وجدت التطابق مبيناً بين عظمة الله في قوله، وعظمته في عمله.

سمعته يقول:

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ ﴿٦٣﴾ ﴾. [الزمر: ٦٢، ٦٣].

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾. [الرعد: ٨، ٩].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ ﴿٦١﴾ ﴾.
[غافر: ٦١].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴿٦٤﴾ ﴾. [غافر: ٦٤].

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾. [الأنعام: ١٠١ ــ ١٠٣].

وآيات أخرى كثيرة كثيرة. . كلها شواهد على أن ما وقر في نفسي عن الله بطريق العقل قد أيده النقل تأييداً مطلقاً، وجعلني أستريح إلى الإسلام فكراً وضميراً.

● ● ●

هل يترك المسلمون القرآن بهذه الأقوال عن الله

ومع ذلك فإن حب الاستطلاع دفعني إلى أن أطالع ما بأيدي الآخرين من كتب منسوبة إلى السماء، وقلت: ربما أضافت جديداً إلى ما عندي.

.. ومددت يدي إلى «الكتاب المقدس» وشرعت أقرأ بدء الخلق، وقصة الحياة كما رواها العهد القديم.

ولست أحب التجنِّي والإثارة، إنني سوف أذكر ما لديّ من مقررات عقلية أيَّدتها النقول الإسلامية، ثم أضع بين يدي الناس وجهة نظر «العهد القديم» في هذه القضايا مكتفياً بنقل نصوص معروفة لدى أصحابها ويستطيع كل امرىء أن يقرأها في مظانها.

زَعْم اليهود:
أن الله يتعب، ويجهل، ويندم، ويأكل ويصارع

هل يمكن أن يتعب الله، وأن يأخذه الإعياء بعد عمل ما؟!

القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾. [الأحقاف: ٣٣].

ومن البداهة أن يكون الخلَّاق الكبير فوق الإجهاد وذهاب القوة:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾. [البقرة: ٢٥٥].

لذلك يقول مثبتاً هذه الحقيقة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾. [ق: ٣٨].

لكن العهد القديم يذهب غير المذهب، ويصف الله فيقول:

«وفرغ الله في اليوم السادس من عمله فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً»(١).

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح الثاني.

ودَعْك من الركاكة التي صيغت بها هذه العبارات، فقد يكون المترجم هابط الأسلوب في التعبير عن معنى ما، لكنك لا تستطيع أن تفهم معنى آخر من هذا الكلام، إلَّا أن الله «استراح» من جميع أعماله في اليوم السابع، هذه الأعمال التي أدّاها بوصفه خالقاً.

واليهود يحرِّمون العمل يوم السبت، ويقدِّسونه، وجاء في التوراة أن موسى أمر بأن يُقتَل رجماً أحد الحطّابين الذين أبَوا إلَّا الكدح في هذا اليوم!!

كيف جرى الحديث عن الله بهذه الكلمات؟ لعلها غلطة ناقل، لكن الحديث عن عجز الله تبعه حديث آخر عن جهله!!

واسمع إلى وصف العهد القديم لآدم وزوجته بعدما أكلا من الشجرة:

«وسمعا صوت الرب الإلّه ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإلّه في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإلّهُ آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت.

فقال: من أعلمَك أنك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟..»(1)

ما هذا؟ كان الإلّه يتمشى في الجنة خالي البال مما حدث، ثم تكشفت له الأمور شيئاً فشيئاً، فعرف أن آدم خالف عهده، وأكل من الشجرة المحرمة!

تصوير ساذج يبدو فيه رب العالمين وكأنه فلَّاح وقع في حقله ما لم ينتظر!!

ما أبعد الشقَّة بين هذا التصوير وبين وصف الله لنفسه في القرآن العظيم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾. [قٓ: ١٦].

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ ﴿٦١﴾ ﴾. [يونس: ٦١].

---

(1) سفر التكوين: الإصحاح الثالث.

وقد أعقب هذا «الجهل الإلّهي» قلق غريب، فإن الله يبدو وكأن ملكه مهدد بهذا التمرد الآدمي.

لقد أكل آدم من الشجرة ـ شجرة المعرفة ـ وارتفع بهذا العصيان إلى مصاف الآلهة، فقد أدرك الخير والشر، وكان الرب عندما خلقه حريصاً على بقائه جاهلاً بَهْماً.

ومن يدري ربما ازداد تمرده وأكل من شجرة الخلد وظفر بالخلود، إنه عندئذٍ سوف ينازع الله حقه، إذن فليطرد قبل استفحال أمره.

جاء في العهد القديم:

«وقال الرب الإلّه: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منها، عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الرب الإلّه من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها، وطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة»[1].

لكن سيرة آدم وأبنائه على ظهر الأرض لم تكن مرضية لله. إن منهجه في الحياة ضلَّ بالآثام والمتاعب، ولم يكن الله حين خلقه يعرف أنه سيكون شريراً إلى هذا الحد، لقد فوجىء بما وقع، ومن أجل ذلك حزن الرب وتأسف في قلبه أن خلق آدم وأبناء آدم.. قال العهد القديم:

«فحزن الرب أنه عمل الإنسان، وأن كل تصوّر أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته... الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم..»[2].

الحق أنني أدهش كل الدهشة للطفولة الغريرة التي تنضح من هذا الحديث الخرافي عن الله جلّ جلاله.

إن الإله في هذه السياقات الصبيانية كائن قاصر.. متقلِّب.. ضعيف!!

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح الثالث.

(٢) سفر التكوين: الإصحاح السادس.

وما أشك في أن مؤلف هذه السطور كان سجين تصورات وثنية عن حقيقة الألوهية وما ينبغي لها.

وأول ما نستبعده حين نقرأ هذه العبارات أن تكون وحياً، أو شبه وحي.

ومع ذلك فإن اليهود والنصارى يقدِّسون ذلك الكلام، ويقول أحد القساوسة: «الكتاب المقدس ــ يعني العهدين معاً ــ هو صوت الجالس على العرش، كل سفر من أسفاره، أو إصحاح من إصحاحاته، أو آية من آياته هو حديث نطق به الكائن الأعلى!!».

والمرء لا يسعه إلَّا أن يستغرق في الضحك وهو يسمع هذا الكلام!! إنه إلّه أبله هذا الذي ينزل وحياً يصف فيه نفسه بالجهل والضعف والطيش والندم.

● ● ●

ونحن المسلمين نعتقد أن الكتاب النازل على موسى بريء من هذا اللغو، أما التوراة الحالية فهي تأليف بشري سيطرت عليه أمور ثلاثة:

● **الأول**: وصف الله بما لا ينبغي أن يوصف به، وإسقاط صور ذهنية معتلة على ذاته «سبحانَه وتعالَى عما يقولون علواً كبيراً».

● **الثاني**: إبراز بني إسرائيل وكأنهم محور العالم، وإكسير الحياة، وغاية الوجود.. فهم الشعب المختار للسيادة والقيادة لا يجوز أن ينازَعوا في ذلك.

● **الثالث**: تحقير الأمم الأخرى، وإرخاص حقوقها، وإلحاق أشنع الأوصاف بها وبأنبيائها وقادتها.

وقد تتخلل هذه الأمور بقايا من الوحي الصادق، والتوجيهات المبرأة، بَيْد أن الأسفار الشائعة الآن تغلب عليها الصبغة التي لاحظناها.

وها نحن أولاء نسوق الأدلة على ما قلنا مكتفين بالشواهد من سفر التكوين وحده، لأن الانتقال إلى غيره يطيل حبل الحديث.

في هذا السفر أعلن الله ندمه على إغراق الأرض بالطوفان.

وقال لنوح: لن أرتكب هذه الفعلة مرة أخرى! وسأضع علامة تذكرني بذلك حتى لا أعاود إهلاك الحياة والإحياء، وهاك النص:

«وكلّم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: . . . أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان، ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض، وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر، وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض، فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب. . فمتى كان القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض. . »[1].

هذا هو التفسير لقوس قزح، وتحلل اللون الأبيض إلى عناصره المعروفة بألوان الطيف، كما شرح ذلك علماء الطبيعة. . قوس قزح هي قوس الله يبرزها في الأفق إشارة إلى العهد الذي أخذه على نفسه كي لا يغرق الأرض مرة أخرى، إنه يرى هذه القوس فيتذكر، حتى لا يتورط في طوفان آخر!!

ورأيي أن الطوفان القديم كان عقوبة لقوم نوح وحدهم، وأنه ليس غرقاً استوعب سكان القارات الخمس. فما ذنب هؤلاء المساكين! ونوح رسالته محلية لا عالمية، اللهم إلّا إذا كان المعمور يومئذٍ من هذا الكوكب ديار نوح وحسب.

وأياً ما كان الأمر فإن وصف الله بالضيق لما ارتكب من إغراق الأرض، وتعهده ألّا يفعل ذلك، أمر يليق بالخلق لا بالخالق، بالناس لا برب الناس.

• • •

على أن هذه القصة أيسر من دعوة الله إلى ضيافة نبيه إبراهيم، لقد قدِم الله في شكل رجل مع اثنين من ملائكته، وأقام لهم إبراهيم وليمة دسمة، فأكلوا منها جميعاً!!

وكان إبراهيم حريصاً على إحراز هذا الشرف، شرف أن يأكل الله في بيته، فلما لبّى الله الدعوة أسرع الرجل الكريم في إعداد مائدة مناسبة وهاك القصة كما رواها سفر التكوين:

«وظهر له الرب. . ونظر وإذا ثلاثة رجال. . وقال: يا سيد (يقصد الله) إن كنتُ

---

(١) الإصحاح التاسع من سفر التكوين.

قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. . فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: اعجني واصنعي خبز ملّة، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رَخْصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذا كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا. وقالوا له: . . . ويكون لسارة امرأتك ابن. . فضحكت سارة في باطنها قائلة: بعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ!! فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة. .؟ هل يستحيل على الرب شيء؟»[1].

• • •

ونتجاوز هذه المائدة الدسمة التي أكل منها الرب وملائكته، لنقف بإزاء قصة أخرى من أغرب وأفجر ما اختلق الروائيون!!

القصة الجديدة تحكي مصارعة بين «الله» وعبده «يعقوب»!!

. . . وهذه المصارعة دامت ليلاً طويلاً، وكاد يعقوب يفوز فيها لولا أن الطرف الآخر في المصارعة ــ وهو الله!! ــ لجأ إلى حيلة غير رياضية هزم بعدها يعقوب!!

ومع ذلك فإن يعقوب تشبَّث بالله، وأبى أن يطلقه حتى نال منه لقب «إسرائيل»!!

ومنحه الله هذا «اللقب الفخري»، ثم تركه ليصعد إلى العرش ويدبر أمر السماء والأرض، بعد تلك المصارعة الرهيبة!!

أي سخف هذا، وأي هزل؟؟

أي عقل مريض أوحى بهذا القصص السفيه؟؟

ولكن اليهود يريدون أن يرفعوا مكانة جدهم الأعلى ولا عليهم أن يختلقوا ما يستغربه الخيال، وهاك القصة بأحرفها من سفر التكوين:

«فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني! . . فقال: لا أطلقك إن لم تباركني!! فقال: له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. . وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين.

فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان «فينيئل» قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي... لذلك لا يأكل بنو إسرائيل «عرق النَسَا» الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم، لأنه (الله) ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا!!»[1].

.. نعم تخليداً لذكرى هذه المصارعة نشأ حكم فقهي بتحريم أكل عرق النسا، وبتحريم العمل يوم الراحة الإلّهية.

وكم يفخر اليهود إذ كان أبوهم بهذه المثابة من القوة التي عاجزت الإله، وكادت توقع به الهزيمة!!

• • •

وهنا ننتقل إلى «الأمر الثاني» في بناء التوراة وهو:

● **إفراد بني إسرائيل بالنسب العريق، والعلاقة الفذّة على حساب غيرهم من الأمم:**

... اليهود يكرهون العرب كما يكرهون غيرهم من الأجناس الأخرى، فيجب أن تعتمد هذه الكراهية على أساس ديني يصبح العرب بعده ملعونين في الأرض والسماء.

فكيف يتوصلون إلى هذا الغرض؟!

إنهم يثبتون قصة طريفة يزعمون فيها أن نوحاً نبي الله والمدافع الأول عن دينه والناجي بأهله من الطوفان الطام العام، هذا النبي سكر من كثرة ما أفرط في شرب الخمر، ثم استلقى على الأرض كاشفاً سوأته، وأن أحد أبنائه رآه كذلك فضحك منه وشهَّر به.

فلما أفاق نوح من سكرته، وعلم بما وقع، لم يخجل من نفسه وتبذله، بل استنزل لعنة الله على من سخر منه، وهاك النص:

«وشرب (يعني نوح) من الخمر فسكر وتعرّى في خبائه، فأبصر «حام» أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً، فأخذ «سام» و «يافث» الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما، فلما استيقظ «نوح» من خمره عَلِم ما فعل ابنه

(١) سفر التكوين: الإصحاح ٣٢.

الصغير، فقال: ملعون «كنعان»، عبد العبيد يكون لأخوته، وقال: مبارك الرب إلّه «سام»، وليكن كنعان عبداً لهم، ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن «كنعان» عبداً لهم. . . »[1].

يقول «عصام الدين ناصف»: ومعنى ما تقدم أن الإسرائيليين الساميين يريدون أن يتخذوا الكنعانيين عبيداً لهم، وقد كان العدل والمنطق يقتضيان ذلك النبي الجليل ألا يصب تلك اللعنة الحامية على حفيده البريء «كنعان»، بل يصبها على ابنه الخاطىء «حام»، وأنَّى له ذلك والكنعانيون هم المقصودون بأعيانهم لأنهم أصحاب فلسطين التي لبث الإسرائيليون دهوراً يحلمون بها ويتوقون إلى غشيان مروجها الزاهرة وجني زروعها الناضرة».

أي: أن مؤلف التوراة مهتم بتزكية بني إسرائيل على حساب تجريح غيرهم، ومن ثم استنزل اللعنة على كنعان، حتى تبقى الشعوب المنسوبة إليه في منزلة زريَّة.

ولا بأس من اختلاق سبب لهذه اللعنة تذهب فيه كرامة نبي ومكانته.

إذن فليشرب نوح الخمر حتى يفقد وعيه ويكشف عورته.

ثم ليَدْعُ على حفيده بما دعا به، والحفيد المسكين لا جريرة له.

المهم أن الكنعانيين أصبحوا جنساً ملعوناً لأن دعوة «السكران» مستجابة!!

• • •

وكما رأى كاتب التوراة أن يُسكر نوحاً ليصل إلى هذه النتيجة، رأى أن يسكر لوطاً ليصل إلى نتيجة مشابهة.

إن تلويث الأنبياء شيء سهل على من هوَّنوا الألوهية نفسها، ولكن مزوِّر العهد القديم هنا بلغ من الإسفاف دركاً سحيقاً، فهو لم يكتف بأن جعل لوطاً سكيراً بل جعله عاهراً.

وبمن يزني؟ بابنتيه: إحداهما بعد الأخرى، في ليلتين حمراوين، وهاك النص:

«. . . فسكن ــ يعني لوط ــ في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح ٩.

قد شاخ، وليس على الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض!! هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه. فنحيي من أبينا نسلاً!! فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابناً، ودعت اسمه «موآب» وهو أبو الموآبين إلى اليوم»[1].

يقول عصام الدين حفني ناصف: «وهذا هو مربط الفرس» لقد عُرف شعبا موآب وبني عمون بصلابة الرأس، وصعوبة المراس.

وما انفكا منذ القدم ينصبان لحرب بني إسرائيل ويدحرانهم وينزلان بهم أكبر الخسائر.

فوجب على كتّاب التوراة أن يتلقّحوا[2] عليهما، ويطلقوا ألسنتهم في أعراضهما ويلصقوا بهما أقبح المثالب». . .

وفي سبيل ذلك لا حرج على اليهود أن يسيئوا إلى نبي كريم، وأن ينسبوا إليه وإلى ابنتيه ما يتورع عنه الحشاشون والرعاع.

المهم عندهم أن يجرحوا أعداءهم، وأن يسقطوا أنسابهم، وأن يعتمدوا في ذلك على وحي سماوي معصوم، لا يجرؤ على تكذيبه أحد!!

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾. [آل عمران: ٧٨].

يقول عصام الدين حفني ناصف: «وصفوة القول: إن كتّاب التوراة لم يدونوا هذه القصص المسلسلة اعتباطاً، بل إنهم ابتدعوها ورتّبوها ليصلوا بها إلى غاية لهم وضعوها نصب أعينهم، هي أن الله خلق الله والكون من أجل الأرض، وخلق الأرض

(١) سفر التكوين: الإصحاح ١٩.

(٢) أي يرمون الناس بالباطل.

من أجل بني آدم، وأنه أباد بني آدم وقطع دابرهم ما عدا نوحاً وبني نوح، واستبقى هؤلاء ليختار من بينهم ساماً ثم يختار من حفدته إسرائيل وبني إسرائيل.

ولقد آمن بنو إسرائيل بهذه الخزعبلات، وانتفخت أوداجهم غروراً وتبجحاً، فتوهموا أنهم شعب مقدس.

جاء في سفر التثنية هذا النص: «لأنك أنت شعب مقدس للرب إلّهك، أباك قد اختار الرب إلّهك، لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض»[1].

وهذا الاعتداد القوي بالجنس والنسب هوَّن عند اليهود كثيراً من القيم والفضائل، فإن طمأنينتهم إلى شرف الأرومة، ونبل الجرثومة جعلهم لا يبالون شيئاً عندما يقولون أو يفعلون، فهم ـ على أية حال ـ «الأسباط» أولاد الأنبياء، وحلية الدنيا!!

ولا بأس عندهم من اقتراف الدنايا، أو افترائها ما دام ذلك يحقق ما يشتهون. والغاية تبرر الوسيلة.

• • •

ولقد نظرتُ إلى قصصهم عن زيارة إبراهيم الخليل لمصر فرأيتهم بسهولة يصفون الرجل الكبير بأنه ديوث!!، وفي سبيل حرصه على الحياة والمنافع الدنيئة يقدم امرأته إلى من يملكون النفع والضر.

والتحقت زوجة إبراهيم ببيت فرعون الذي أهداه في نظير ذلك بعض الغنم والحمير!!

قبَّحكم الله ﴿إنَّ إبراهيمَ كان أمةً﴾. [النحل:١٢٠]، كان إنساناً يساوي الألوف من الرجال، وفي سبيل الله حارب الوثنية، وحطم الأصنام وتعرض لنيران الجحيم، وربّى جيلاً من الموحدين الحِرَاص على مرضاة الله.

فهل هذا الرجل هو الذي يغري امرأته بالذهاب إلى بيت فرعون من أجل الظفر بزريبة غاصة بالغنم والحمير؟ لكن كاتب التوراة لم يرَ في ذلك حرجاً، وهاك النص:

---

(١) سفر التثنية: ٧: ٦.

«. . . وحدث لما قرب ــ أي أبرام ــ إلى مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك.

فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون، ومدحوها لدى فرعون، فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها، وصار له غنم، وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة، فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ خذها واذهب»[1].

● ● ●

ولنتجاوز هذه القصة الهابطة إلى قصة أخرى عن يعقوب نفسه الأب المباشر لليهود، والذي أخذ لقب إسرائيل بعد معركة حامية مع الله نفسه ظلت ليلاً طويلاً، والذي سمَّى اليهود دولتهم القائمة على أنقاض العرب باسمه.

إنَّ هذا النبي عندنا نحن المسلمين إنسان جليل نبيل، شارك أباه في الدعوة إلى الله، ونبذ الوثنية ورفع علم التوحيد وإقامة الملة السمحة:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾. [البقرة: ١٣٢].

لكنه عند اليهود شخص محتال، سرق النبوة من أخيه البكر بطريقة منحطة.

ويظهر أن الفكر اليهودي يحسب النبوة ميراثاً دنيوياً يمكن الاستيلاء عليه بالشطارة والمهارة، وليست هبة عليا يمنحها رب العالمين من يصطفيهم من أهل الطهارة والنضارة.

وكان اليهود يخصون الابن البكر بالتركة كلها مادية أو أدبية، وعلى هذا كان «عيسو» الابن الأكبر لإسحاق هو الذي سيرث اللقب والمال ــ مثلما كان يحكم القانون الإنجليزي ــ ، ولكن أم يعقوب تفاهمت مع ولدها على غير هذا، وانتهزت أن

(١) سفر التكوين: الإصحاح ٢١.

«عيسو» خرج ليحضر الطعام إلى أبيه المكفوف ثم نفذت خطتها، وهاك التفاصيل كما حكاها سفر «التكوين». . . تفاصيل سرقة نبوة!!:

«. . وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ليأتي به، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً: ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي، فالآن يا ابني اسمع لقولي فيما أنا آمرك به: اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جَدْيَيْن جيِّدين من المعزَى فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته، فقال يعقوب لرفقة أمه: هو ذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس. ربما يحسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة، فقالت له أمه: . . اسمع لقولي فقط. . وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت، وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جَدْيي المعزَى. . فدخل إلى أبيه وقال: يا أبي فقال: ها أنذا، من أنت يا بني؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتني، قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. . فقال إسحق ليعقوب: تقدم لأجسك يا ابني. . أأنت هو ابني عيسو أم لا. . فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو!! فباركه. . وقال: . . فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض. . لتستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. كن سيداً لأخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين»[1].

وهكذا تمت سرقة رسالة سماوية.

. . . أنا أفهم أن تختطف الطائرات في الجو، وأن تغتصب المناصب في الأرض، أما أن يفرض شخص نفسه على الله، ويعتبر نفسه نبياً ويحول رسالة سماوية إليه بطريق التدليس والنصب، فهذا هو العجب العجاب ولكنه منطق مؤلفي العهد القديم.

• • •

ويظهر أن شريعة الاحتيال أخذت امتدادها في التصرفات التي نسبها العهد القديم إلى يعقوب وأبنائه.

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح ٢٧.

وأمامي الآن قصة زنا وقعت لابنة «يعقوب»!!

وما أكثر قصص الزنا التي تقع في بيوت الأنبياء، كما يفتري هؤلاء الأفّاكون.

والقصة لفتاة اسمها «دينة» بنت يعقوب عليه السلام من إحدى زوجاته، أعجب بها ابن رئيس المدينة المجاورة واتصل بها، ثم رأى أن يجعل هذه العلاقة مشروعة، فلاطف الفتاة وقرر الزواج بها وكلم أباه كي يمضي في إجراءات العقد.

وذهب رئيس القبيلة يعرض على يعقوب مصاهرته، وتظاهرت الأسرة بقبول المصاهرة، وكانت شروط الصلح مقبولة، وطلب أبناء يعقوب من أصهارهم الجدد أن يختتنوا حتى يتم الزواج، وتتسع دائرة العلاقات بين بني إسرائيل وأهل المدينة جميعاً.

وفي اليوم الثالث لإجراء الختان بين ذكور المدينة أغار أولاد يعقوب عليها وهي آمنة، فقتلوا الذكور كلهم، وسبَوْا كل الأطفال والنساء، ونهبوا ما وجدوه من ثروات.

ولم يذكر سفر التكوين أن يعقوب علّق بشيء على هذه المأساة، بل يُشتمّ من السياق أن المؤامرة تمت بموافقته.

وهكذا يفعل الأنبياء!!

إن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» لم يؤخذ من الساسة «الزمانيين».. إن مصدره من هنا، وإليك النص:

«وخرجت «دينة» ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب، فرآها شكيم ابن حمور الحوي رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها، وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب، وأحب الفتاة، ولاطف الفتاة، فكلم شكيم حمور أباه قائلاً: خذ لي هذه الصبيَّة زوجة. وسمع يعقوب أنه نجَّس دينة ابنته.. فسكت حتى جاؤوا ـ أي أبناؤه ـ [ثم بعد أن عرض عليهم حمور مصاهرتهم].. فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر..، فقالوا لهما: لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر: أن نعطي أختنا لرجل أغلف.. إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ لكم بناتكم.. واختتن كل ذكر.. فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين ـ أي بسبب الختن ـ أن ابني يعقوب: شمعون ولاوي أخوي دينة أخذا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن، وقتلا كل ذكر، وقتلا حمور

وشكيم بحد السيف، ونهبوا المدينة، وسَبَوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما في البيوت. . . »[1].

أين شرف المعاملة في هذه الروايات المليئة بالفسق وسفك الدم؟

ولنا أن نسأل:

- **كيف ضاع عرض ابنة نبي على هذا النحو الغامض؟**
- **وإذا كان غلام أثيم قد اغتصبها كرهاً فلم لم يعاقب وحده؟**
- **وإذا كان يعقوب وبنوه قد قبلوا إصلاح الخطأ بإتمام الزواج فلماذا أغاروا على المدينة، واستباحوها وأزهقوا أرواح الأبرياء، واسترقوا الأطفال والنساء؟**
- **هل هذه سيرة أنبياء وأولاد أنبياء؟ أم سيرة قطاع الطرق؟!**

لكن مؤلف التوراة وَقَر في نفسه أن اليهود شعب مختار، فصوَّر الألوهية والنبوة وعلاقة اليهود بالناس أجمعين على الصورة التي أبرزنا لك ملامحها، لم نستعن في توضيحها إلَّا بالنصوص الواردة في الكتاب المقدس!!

• • •

أكرهتُ نفسي على قراءة سفر التكوين بأناة، ثم تملكني الضجر وأنا أقرأ الأسفار الأُخر فاكتفيت بنظرات عابرة.

إن جمهرة الفلاسفة والعلماء المؤمنين بالله يرفضون كل الرفض أن يوصف بالانحصار والجهالة والتسرع، كما يرفضون كل الرفض أن يُسيء اختيارَه لسفرائه إلى خلقه، فلا يقع إلَّا على السكارى والمنحرفين.

بل إن عرب الجاهلية المشركين كانت نظرتهم إلى خالق الكون أرقى وأرحب.

وما أوخذوا به أنهم تزلَّفوا إليه بآلهة أرضية لا أصل لها يحسبون أنه أكبر وأنهم أقل من أن يتصلوا به اتصالاً مباشراً.

أما وصف الله أو الحديث عنه بالعبارات المدونة في العهد القديم فهو خبال في الفكر يتنزه المولى الجليل عنه.

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح ٣٤.

بَيْدَ أنَّ النصارى قبلوا هذه الأسفار على علاتها وجعلوها شطر الكتاب المقدس!!

لماذا؟.. لأنها تخدم قضيتين تقوم عليهما النصرانية الشائعة:

الأولى: قضية تجسُّد الإلـه، وإمكان أن يتحول رب العالمين إلى شخص يأكل ويصارع ويجهل ويندم... إلخ.

الثانية: قضية أن البشر جميعاً أرباب خطايا وأصحاب مفاسد، وأنهم محتاجون لمن «ينتحر» من أجلهم كي تُغفر خطاياهم.

وقد رفض الإسلام كلتا القضيتين، وتنزل القرآن الكريم مفيضاً الحديث عن تنزيه الله وسعته وقدرته وحكمته وعلمه، كما أفاض الحديث عن الناس ومسؤوليتهم الشخصية عما يقترفون من خير أو شر.

وذكر القرآن الكريم أن لله عباداً تعجز الأبالسة عن غوايتهم، وأنهم من نقاوة الصدر وشرف السيرة ورفعة المستوى بحيث يقدمون من أنفسهم نماذج للإيمان والصلاح والتقوى، تتأسى بها الجماهير.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾. [الإسراء: ٦٥].

فإن لم يكن نوح ولوط وإبراهيم ويعقوب من هؤلاء النبلاء الكرام فمن هم إذن الصالحون الفضلاء؟

وإذا كان أنبياء الله سكارى وزناة ومحتالين فلماذا يلام رواد السجون وأصحاب الشرور؟؟

ولا عذر للنصارى في تصديق هذا اللغو، بل لا عذر لهم في ادعاء أن الله وُلد أو أن له ولداً، إلى آخر ما يهرفون به.

أحياناً في هدأة الليل أرمق النجوم الثاقبة وأبعادها السحيقة، ثم أتساءل: أليس باريء هذا الملكوت أوسع منه وأكبر؟ فكيف يحتويه بطن امرأة!

وأحياناً أرمق الأمواج ذوات الهدير وهي تضرب الشاطىء وتعود دون ملل أو كلل. إن أربعة أخماس الأرض مياه، ويبرق في رأسي خاطر عابر هل رب هذا البحر العظيم كان جنيناً فرضيعاً... فبشراً قتيلاً؟

وأهز رأسي مستنكراً وأنا أتلو هذه الآيات:

- ﴿ قُل: لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟! (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) ﴾.

- ﴿ قُلْ: مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ؟! (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ! (٨٧) ﴾.

- ﴿ قُلْ: مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟! (٨٨)

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ !! (٨٩) ﴾. [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

- ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ، وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾. [المؤمنون: ٩١].

ـ «رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» . . .

* * *

. . في هذا القرن المشؤوم سقطت الخلافة الإسلامية، ونُكِّست راية الإسلام، واختفت من الصعيد العالمي كل علاقة تشير إلى وجود سياسي لهذا الدين الحنيف.

نعم كانت هناك أمم إسلامية كبيرة تنتشر على رقع واسعة من الأرض، لكن هذه الأمة لاذت بقومياتها الخاصة، ولبست أزياء مدنية مائعة، وأغلبها استبعد الدين من الحياة العامة، وأماته تربية وقانوناً ومسلكاً وشعاراً.

وربما سمح له بوجود في بعض العبادات الفردية، لكن هذا الوجود مؤقت بطبيعته إلى أن تجرف تيارات الحياة الجديدة مخلَّفات الماضي البعيد . .

وفي الوقت نفسه، كانت تعاليم العهد القديم ـ التي سقنا لك مثلاً منها ـ تصنع أمة جديدة.

كان اليهود يتجمعون في فلسطين ليقيموا مملكة «يهوه» على الأرض وفق مراسمهم الموروثة.

وكانت الصليبية الحقود تعينها بما تملك من قوة، احتضنتها أملاً مستبعداً، وما زالت ترعاها حتى جعلتها حقيقة قائمة.

وهكذا أفلحت القوى الشريرة في ضرب الحق، وتغيير معالم الدنيا، وقيل في كل مكان: بدأت نهاية الإسلام تقترب! يوشك أن يوارى في الثرى!.

شاهت الوجوه! هم يحسبونها النهاية ونحن سنجعلها بداية الصعود كرة أخرى.

إن حقائق القرآن لن تتلاشى، والأساطير التي كَذَبت على الله وعلى الناس لن تخلد.

إن الصراط المستقيم لن تُطمس شاراته أو تضيع آياته، وعلى مسلمي الحاضر والقادم أن يواجهوا قَدَرهم ويؤدوا واجبهم.

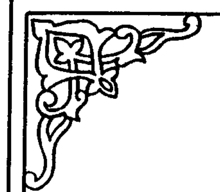
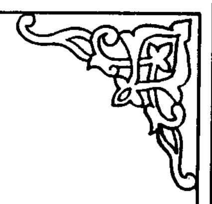
الأعداء كثيرون، والعوائق صعبة، والكفاح طويل، وربما صاح المرء وهو يودع محنة ويستقبل أخرى: أمَا لهذا الليل من آخر؟

إن الفجر سيطلع حتماً، ولأَن يطوينا الليل مكافحين أشرف من أن يطوينا راقدين.

«من خاف أدلج، ومن أدلج نجا، ألا إن سِلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[1].

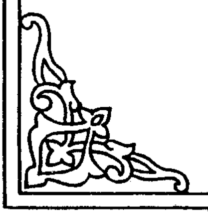
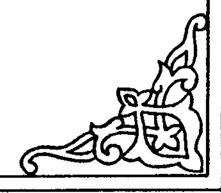


(١) رواه البخاري وغيره.

الفصل الثاني

- تحرُّك ضد عقيدة التوحيد يتعرَّض له أبناؤنا.
- حول صلب عيسى.
- المنشورات وما تضمَّنت من أوهام.
- الإسلام أقوى بكثير من هذه التفاهات.
- قصة «الله محبة» وموقف شتى الأناجيل منها.
- تجلِّيات العذراء، الرمح المقدس، الحقيقة العلمية المطاردة.



الفصل الثاني

تحرك ضد عقيدة التوحيد يتعرض له أبناؤنا

لا يستطيع عاقل أن يقول: إن يوم النصرانية في أوروبا وأمريكا طيب. فالإلحاد شائع، والزنا والربا أشيع، والركض في أودية الحياة ابتغاء المتاع العاجل هو السمة الظاهرة، وبدع الشباب المادية والأدبية لا حصر لها.

ولولا الحياء لغلقت تسعة أعشار الكنائس أبوابها من الفراغ.

أما في ربوع العالم الإسلامي كله، والأقطار العربية خاصة، فالحال على العكس: النصرانية تنتعش، والكنائس تكثر، وطوائف الشباب والشيوخ تتلاقى عليها، والأموال الدافقة تجيء من منابع شتى لتدعم الطوائف المسيحية وترجِّح كفتها في ميادين العلم والإنتاج.

وأوروبا وأمريكا من وراء هذا العون الواسع تخدمان به آمالها العريضة في القضاء على الإسلام، وإعادته إلى الصحراء من حيث جاء!!

ومن يدري؟ ربما قضيا عليه في الصحراء نفسها، كذلك يؤملون، ولذلك يعملون!!

ومن ربع قرن وأنا ألاحق الهجوم الثقافي والسياسي على أمتنا وديننا.. والطلائع المؤمنة في كل مكان تشتبك معه وتحاول صده.

غير أن النتائج إلى الآن لا تسر، لقد سقطت جماهير كبيرة من الدهماء، وأعداد وفيرة من المتعلمين في براثن هذا الغزو المزدوج، وتاحت الفرص أمام الطوائف غير المسلمة، فأطلت برأسها تريد أن تشارك في الإجهاز على الفريسة.

وفي مصر رأيت عملاً مريباً منظماً يكاد يعالن بأنه يريد وضع الطابع النصراني على التراب الوطني في هذا الوادي المحروب.

ولا ريب في أن قوى خارجية تكمن وراء هذا النشاط وتغذيه.. وفي هذه الصحائف نريد أن نواجه حرب المنشورات التي شنت بغتة على الشباب المسلم، مكتفين بدحض الشبهات، ورد المفتريات، عالمين أن هناك نصارى كثيرين يريدون العيش مع المسلمين في سلام وتراحم، وأن محاولة البعض طعن الإسلام من الخلف هي تصرفات فردية يحمل وزرها أصحابها وحدهم.

ونحب قبل أن نبدأ النقاش في هذه القضية الأساسية أن نسجل مسلكاً إسلامياً مقرراً: إن اختلاف الأديان لا يستلزم أبداً إيغار الصدور وتنافر الود، وإنه في ظل مشاعر البر وقوانين العدالة يمكن لأتباع عقيدتين مختلفتين أن يعيشوا في وئام وتراحم(١).

والانسجام المنشود بين أولئك الأتباع لا يعني بداهة أن الفروق بين عقائدهم تلاشت.

وقد كان العرب الأولون يؤمنون بالله الواحد:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٦١﴾ ﴾. [العنكبوت: ٦١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٦٣﴾ ﴾. [العنكبوت: ٦٢].

ولكنهم مع هذا الاعتراف بالله الواحد نسبوا إليه ولداً يقصدون إليه ويتشفعون به!! فرفض القرآن هذا النسب المختلق، وعدَّ ذلك شركاً، وأنكره ـ في سورة مريم ـ أشد الإنكار:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾. [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].

---

(١) منع الرقيب المصري نشر هذا الكلام في يناير سنة ١٩٧٢م في مجلة لواء الإسلام.

ومـع هذا النكير الشديد لعقيدة التعدد في الآلهة، فقد أمـر الله صاحب الـرسالـة أن يقول للمشركين:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾. [الكافرون: ٦].

إذن نستـطيـع أن نوجـد تلاقيـاً ما بين أصحـاب الأديان المختلفـة، أمـا تـذويب الفوارق بين التوحيد والتعدد كليهما، فذاك مستحيل.

• • •

كتب بعض الناس كلامـاً يريـد عقد لقـاء بين عقيدة التـوحيد الإسـلامية وعقيـدة التثليث المسيحية، فنفى أن يكون الله ثالث ثلاثـة ــ كما ذكـر القرآن الكـريم ــ وقال: إن الله الواحد هو جملة الأقانيم الثلاثة.

ولمَّا كان كل أقنوم ــ على حدة ــ يسمى إلّهاً، فإن الكاتب أراد أن يـوضـح هذا الغمـوض، ولا نقول يكشف هـذا التناقض!! فقـال ــ والكلام منقـول عن مجلة تـوزَّع على طلاب كلية الهندسة بجامعة القاهرة ــ نثبته هنا بنصـه: «إذن كيف نوفق بين هـذا وذاك؟ بين ثلاثة ثم واحد؟».

(إن هذا هو بيت القصيـد وفحوى الحـديث وسوف أذكـر مثالاً: مـاذا تعرف عن الشمس، الشمس الواحدة؟ أعرف أنها قرص، وحرارة، وأشعـة.. وأي شيء من هذه الثلاثة هـو الشمس؟ هل القـرص، أم الحرارة، أو الأشعـة ثلاثتهم يكـونون الشمس!! إذن الشمس واحـدة، وهكذا الله سبحـانه واحـد، مـع فارق التشبيـه العـظيم من حيث المكانة..).

ونقف قليلاً لنذكـر رأينا في هـذا الكلام: إن الكـائن الواحـد قد تكـون له عـدة صفـات، قد يكـون طويـل القـامـة أسمـر اللون ذكي العقـل. ويمكن أن تنسب إليـك صفات أخرى، فهل قلة الصفات أو كثرة الصفات تعني تعـدداً في الذات؟ وهـل يجوز أن يطلق شخصك نفسه على صفة الطول أو السمرة أو الذكاء؟ وهل يتصور أن تنفصـل إحدى الصفات المذكورة ليطلق عليها الرصاص، أو تتـدلى من حبل المشنقـة أو تسمَّر على خشبة الصليب؟!

إن الشمس واحـدة، ولكن استدارتهـا وحرارتهـا وإضاءتهـا وكثـافتهـا... إلـخ،

صفات لها، أعراض لذاتها، والصفة لا تسمَّى ابناً ولا خالاً ولا عماً، ونحن نثبت للإلّـه الواحد عشـرات الأوصاف الجليلة، بيـد أن إثبات الأوصـاف شيء بعيد كـل البعد عن القـول بأن الأب هـو الابن وهو الصـديق، وأن خالق الكـون هو هـو الـذي صُلب على خشبة في أرضه.

إن التمثيـل بالشمس وأوصـافها الكثيـرة لا يخدم قضيـة التـثليث ولا التربيـع في ذات الله، والأمر لا يعدو لوناً من اللعب بالألفاظ.

إن الله ــ خالق هذا العـالم ــ واحد، ومـا عداه عبـد له أوجـده من الصفر، ولن تنفك صفة العبودية عن أي موجود آخر، سواء كان «عيسى»، أو «موسى»، أو «محمـد» أو غيرهم من أهل الأرض والسماء.

ونـريد أن نسـأل: هل إذا كـانت الشمس هي القرص والحـرارة والأشعة، فهـل يمكن القول بأن الحرارة مثلاً ثلث الشمس؟.

لا يقول هذا عاقل، لأن الصفة لا تكون قسيماً للذات بتاتاً، هل يمكن القول بأن القرص شكا للأشعة ما نزل به من بلاء مثلاً؟!

ذاك ما لا يتصوره ذو لب. !!

إن هذا الكلام ــ كمـا قلت ــ لون من اللعب بـالألفاظ، ولا يصـور العلاقـة بين أفراد الأقانيم الثلاثة كما رسمتها الأناجيل المقدسة.

• • •

وذكـرت المجلة التي توزع على الـطلاب «بكلية الهنـدسة» دليـلاً آخـر على أن التثليث هو التوحيد. قال الكاتب:

«أقول لك أيضـاً عن إنسان اسمـه إبراهيم ــ إبـراهيم هذا في بيتـه ووسط أولاده يدعى رباً لأسرته وينادونه «يا أبانا يا إبراهيم»، هذا ذهب يوماً إلى البحر، فإذا الجمـوع محتشـدة وإنسان يغـرق وليس من ينقذه، فمـا كان منـه إلَّا أن خلـع ملابسـه، وارتدى لباس البحر وأسرع وأنقذ الغريق، فهتف المتجمهرون: ليحيا المنقذ إبراهيم.

ذهب بعـد ذلك إلى عمله، وإذ كـان يعمل بـالتدريس ويشـرح للتلاميـذ وصاروا ينادونه: المعلم إبراهيم. فأيهم إبراهيم: الأب، أم المنقذ، أم المعلم؟

كلهم إبراهيم وإن اختلفت الألقاب مع الوظائف، وهكذا أيضاً الله خلق فهو الأب الله، الله أنقذ فهو الابن، الله يعلم فهو الروح»!!

نقول: هذا الكلام أوغل من سابقه في خداع النظر، فإن الضابط قد يرتدي في الجيش ملابسه العكسرية، وقد يرتدي في عطلته الملابس المدنية، وقد يرتدي في بيته ملابس النوم. ولم يقل مجنون ولا عاقل إن هؤلاء ثلاثة، وأنهم واحد، ولا يتصور أحد أن الضابط بزيه العسكري يصدر حكماً بالإعدام على الضابط نفسه بزيه المدني، وأن هذا المدني يقول للعسكري: لماذا قتلتني أو لماذا تركتني.

إن المعلم إبراهيم أو المنقذ إبراهيم أو الخالق إبراهيم يستحيل أن يكونوا ثلاثة أقانيم على النحو المألوف في المسيحية، وإنما المعقول أن يقال:

الله الواحد يوصف بالقدرة والعلم والرحمة والحكمة مثلاً، وهذا ما يذكره الإسلام. فالله ذات واحدة، لا تقبل التعدد بتة، والروح القدس وهو جبريل عبد مخلوق له، والمعلم المرشد الصالح عيسى عبد مخلوق له، وما دام العقل البشري موجوداً فلن يسيغ إلاَّ هذا.. أما الفرار من التناقض الحتم إلى التلاعب بالألفاظ فلا جدوى منه!!

وإذا كان خالق السماء هو هو المقتول على الصليب فمن كان يدبر العالم بعدما قُتل خالقه؟ بل كيف يبقى العالم بعد أن ذهب موجده؟ والعالم إنما يبقى لأنه يستمد وجوده لحظة بعد أخرى من الحي القيوم جل جلاله.

إن القرآن الكريم ينصح أصحاب عقيدة التثليث فيقول لهم:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾. [النساء: ١٧١، ١٧٢].

وإنه ليسرنا أن تكون عقيدة التوحيد محور العلاقة بين الناس جميعاً وبين الله

الـواحـد الأحـد، لـكن من المضحـك المبكي أن يحـاول البعض التشبث بـالثـالـوث وبألوهية كل فرد من أفراده، ثم يزعم بطريقة ما أن الثلاثة هم في الحقيقة واحد.

قيـل في باب الفكـاهة أن رجـلاً جلس على قهوة ثم طلب «ينسـونـاً»، وقبـل أن يتناوله تركه وطلب بدله «شاياً» شربه ثم قام لينصرف. . فلما طولب بثمن الشـاي الذي شربه قال: إنه بدل الينسون، فلما طولب بثمن الينسـون قال: وهـل شربتـه حتى أدفـع ثمنه؟!

ويـظهر أن هـذا الاستدلال الفكـاهي انتقل من ميـدان المشـروبـات إلى ميـدان العقائد، ليطمس الحقيقة ويسيـغ المتناقضات.

● ● ●

وقصة ثالثة تنشرها المجلة المعلقة بكليـة الهندسـة ـ جامعـة القاهـرة هي عجيبة العجائب نثبتها هنا ـ على طولها ـ بعد النقلين الموجزين السابقين.

عنوان القصة: «أنت تعبان والله مرتاح. .»!!

والعنوان المذكور يحكي إجابة طريفة عن سبب الصلب.

والسؤال التقليدي في هذا الموضوع: لماذا قتل الإلّـه الأب الإلّــه الابن؟!

والجواب المعروف لدى المسيحيين هو: الفداء لخطايا الخليقة.

لكن الكـاتب الذكي ـ تمشياً منه مـع أن الـواحد ثـلاثة والثـلاثة واحـد ـ جعل القصة تدور حول هذا السؤال: لماذا قتل الإلّـه نفسه؟ ولنذكر القصة برمتها:

(انتهت الحياة، وتزاحم الملايين من البشر في وادٍ كبيـر أمام عـرش الله، وكانت المقدمة من جماعات تتكلم بامتثال شديد دون خوف أو خجل، ولكن بطريقة عدوانية، حتى تقـدمت الصفوف فتـاة تصرخ: كيف يستـطيـع الله أن يحـاكمني؟! ومـاذا يعـرف هو عن الآلام التي عانيتها؟!.

قالت هذا وهي تكشف عن رقم على ذراعها مدموغ بالحرق في أحد معسكـرات التعـذيب والإبادة النـازيـة، ثم أردفت: «لقـد تحملت الضـرب والتعـذيب بـل والقتـل أيضاً».

وعلا صوت هادر من مجموعة أخرى قائلاً: «وما رأيكم في هذا؟» وعلى إثر ذلك أزاح صاحب الصوت ـ وهو زنجي ـ ياقة قميصه كاشفاً عن أثر بشع لحبل حول عنقه وصاح من جديد: «شنقت لا لسبب، إلاّ أني أسود... لقد وُضعنا كالحيوانات في سفن العبيد، بعد انتزاعنا من وسط أحبائنا، واستُعبدنا، حتى حررنا الموت».

وعلى امتداد البعد كنت ترى المئات من أمثال هذه المجموعات، كل منها له دعوى ضد الله: بسبب الشر والعذاب اللذين سمح بهما في عالمه. كم هو مُرفه هذا الإلّه!! فهو يعيش في السماء حيث كل شيء مغلّف بالجمال والنور، لا بكاء ولا أنين، لا خوف ولا جوع ولا كراهية، فماذا يعرف هو عما أصاب الإنسان وتحمله مكرهاً في هذا العالم؟

حقاً، إن الله يحيا حياة ناعمة هانئة لا تعرف الألم.

وهكذا خرج من كل مجموعة قائد، كل مؤهلاته أنه أكثر من قاسى وتألم في الحياة، فكان منهم يهودي وزنجي وهندي ومنبوذ وطفل غير شرعي، وواحد من هيروشيما وآخر من معسكرات المنفى والسخرة.

هؤلاء جميعاً اجتمعوا معاً يتشاورون، وبعد مدة كانوا على استعداد لرفع دعواهم، وكان جوهرها بسيطاً جداً، قبل أن يصبح الله أهلاً لمحاكمتهم، عليه أن يذوق ما ذاقوا!!

وكان قرارهم الحكم على الله أن يعيش على الأرض كإنسان، ولأنه إلّه، وضعوا شروطاً تضمن أنه لن يستخدم قوته الإلّهية ليساعد نفسه، وكانت شروطهم:

- ينبغي أن يولد في شعب مستعمر ذليل.
- ليكن مشكوكاً في شرعية ميلاده، فلا يعرف له أب، وكأنه وليد سِفاح.
- ليكن صاحب قضية عادلة حقيقية، لكنها متطرفة جداً حتى تجلب عليه الكراهية والحقد والإدانة، بل والطرد أيضاً من كل سلطاته الرئيسية التقليدية، ليحاول أن يصف للناس ما لم يره إنسان أو يسمع به، ولا لمسته يداه، ليحاول أن يعرِّف الإنسان بالله.
- ليجعل أعز وأقرب أصدقائه يخونه ويخدعه، ويسلمه لمن يطلبونه، ليجعله

يُدان بتهم كاذبة، ويحاكم أمام محكمة متحيزة غير عادلة، ويحكم عليه قاض جبان.

● ليذق ما معنى أن يكون وحيداً تماماً بلا رفيق في وسط أهله، منبوذاً من كل أحبائه، كل الأحباء.

● ليتعذب ليموت. . نعم يموت ميتة بشعة محتقرة مع أدنى اللصوص.

كان كل قائد يتلو الجزء الذي اقترحه في هذه الشروط، وكانت همهمات الموافقة والاستحسان تعلو. . . ولكن ما إن انتهى آخرهم من نطق الحكم حتى ساد الوادي صمت رهيب وطويل، ولم يتكلم إنسان أو يتحرك.

فقد اكتشفوا جميعاً ــ فجأة ــ أن الله قد نفذ فيه هذا الحكم فعلاً. . لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس، وإذ وجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت. . موت الصليب. .)

ولنا بعد هذه المطالعة المفيدة عن سر «الانتحار الإلّهي» أن نسأل:

(أ) هل كان العبيد الثائرون يعرفون أن الله عديم الإحساس بآلامهم المبرحة، فأحبوا أن يشعر شخصياً بمرارتها حتى يرق لحالهم، ولذلك حكموا بقتله؟

(ب) هل انقطعت هذه الآلام بعد الصلب أم بقيت تتجدد على اختلاف الزمان والمكان؟ وبذلك لم تؤدِّ قصة الصلب المنشودَ منها، فينبغي أن تكرر؟

(ج) ما هي درجة السلطة التي يمتلكها هذا الإلّه في العالم؟ وهل هي من الهوان بحيث تسمح لثورة بيضاء أو حمراء أن تنفجر مطالبة بشنقه أو صلبه؟ وهل يحمل هذا الإلّه مسؤولية المآسي العالمية؟!

(د) وإذا كان الصلب لفداء الخطايا، فهل هذا الفداء يتناول صانعي الشرور والآثام والمظالم أم يتجاوزهم؟ أم هو لتصيير الضحايا على ما ينزل بها؟

ونحن لا نريد إجابات على هذه الأسئلة، فعقيدتنا نحن المسلمين أن الله العظيم فوق هذه التصورات الهازلة.

إن هذا الكلام الذي قرأنا من أسوأ وأغرب ما وُصف به الله، وما كنا نحن نتصور أن يصل الإسفاف في الحديث عن الله جلَّ جلاله إلى هذا الدرك المعيب، ولكن

صاحب الفم الذهبي ـ لا فض فوه ـ يأبى إلاَّ أن يستغل مهارته الصحافية في تسطير هذا اللغو ونشره بين الطلاب المسلمين، لأنه يعتقد أن القرآن يقبل التعاليم المسيحية وأن التوحيد ينسجم مع التثليث!!.

وقد كتب في رمضان الأسبق مقالاً في مجلة الهلال يحاول فيه إثبات هذا الهراء، ويريد به أن يختل المسلمين عن توحيدهم وسلامة معتقدهم.

وكم نود أن نقول لهذا الكاتب ومن وراءه من الحاقدين على الإسلام:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

[المائدة: ٧٧].

وأعود إلى ما بدأت به هذا الحديث: إن أتباع الأديان المختلفة يستطيعون أن يعيشوا أصدقاء، والوحدة القومية بين العرب المسلمين والنصارى موضع احترام الجميع.

لكن الانسياق مع التعصب الأمريكي ضد الإسلام يجب أن يختفي فوراً. إن كل محاولة لإهانة الإسلام وإحراج أهله لا يمكن أن تكون موضع احترام، والمال الأمريكي المبذول في هذا السبيل يجب أن يذهب هَدْراً.

حول صَلْب عيسى عليه السلام

لا أعرف قضية طال فيها اللجاج دون سبب يعقل مثل قضية الصلب والفداء، ولعلها أصدق شاهد يساق لقوله تعالى: ﴿وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلاً﴾، ولا أزال أذكر حكاية القسيس الألماني الذي زارني يوماً في مكتبي، وشاء له سوء حظه أن يحدثني فيها، فقلت له ضاحكاً: أترى هذا الثوب الأبيض الذي ألبسه؟ أرأيت إذا وقعت عليه نقطة حبر أتزول إذا غسلت أنت ثوبك؟ قال: لا. قلت: فلم يزول خطئي إذا اعتذر عنه آخر؟!.

عندما ألوِّث نفسي بخطأ دقَّ أو جلَّ، فأنا المسؤول عنه، أغسل أنا نفسي منه، أشعر أنا بالندم عليه، أقوم أنا من عثرتي إذا وقعت، ثم أعود أنا إلى الله لأعترف له بسوء تصرفي وأطلب أنا منه الصفح.

أما أن العالَم يخطىء فيقتل الله ابنه كفارة للخطأ الواقع فهذا ما يضرب الإنسان كفاً بكف لتصوره!!

هذا أول الأسطورة، أما آخرها فلا بد أن نعرف: من القاتل ومن القتيل؟؟

إن المسيحيين يقولون: إن الله «الابن» صُلب، لكنهم يقولون كذلك: إن الآب هو الابن، هما ــ والروح القدس ــ جميعاً شيء واحد.

إن كان الأمر كذلك فالقاتل هو القتيل!! وذاك سر ما قاله أحد الفرنجة المفكرين:

«خلاصة المسيحية أن الله قتل الله لإرضاء الله!!».

ولمن شاء أن يقنع نفسه بهذه النقائض وأن يفني عمره في خدمتها، أما أن يجيء إلينا نحن المسلمين ليلوينا بالختل أو بالعنف عن عقيدتنا الواضحة ويحاول الطعن فيها فهذه هي السماجة القصوى.

المنشورات وما تضمَّنت من أوهام

وبين يدي الآن نحو عشر نشرات وُزعت خارج الكنائس للدعوة إلى أسطورة الفداء، قرأتها كلها وشعرت بالرثاء لكاتبيها.

وكما يحاول قروي ساذج إقناع العلماء أن القنبلة الذرية مصنوعة من كيزان الذُرة يحاول هؤلاء «المبشرون» العميان إقناعنا بأنهم على حق.

اقرأ معي هذه السطور الصادرة عن كنيسة «مار مرقص» بمصر الجديدة، يقول الكاتب: (ربما لم أقابلك شخصياً لكن هناك شيئاً يجب أن أقوله لك، إنه أمر في غاية الأهمية حتى إنني سأكون مقصراً إن لم أخبرك به).

حسناً، هات ما عندك، ولا تكن من المقصرين!!

يقول الكاتب: (دعني أخبرك بإخلاص أنها رسالة شخصية لك، لا يمكنك أن تهرب منها، وهذه هي الرسالة من إنجيل يوحنا (٣: ١٦):

لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل «ابنه» الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية).

هذا هو الخبر الخطير!! تمخض الجبل فولد فأراً!!

لماذا يقتل الله ابنه الوحيد البريء من أجل ذنوب الآخرين.

وإذا كان هذا الإلّه رب أسرة كبيرة فلم يقتل أبناءه كلهم أو جلهم من غير جريرة؟

أليس الأعقل والأعدل أن يقول هذا الإلّه للمذنبين:

تطهروا من أخطائكم وتوبوا إليَّ أقبلكم؟!

ولا قتل هناك ولا لفّ ولا دوران؟!

هكذا فعل الإسلام وأرسى قواعد العلاقة الصحيحة بين الله وعباده:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾. [النساء: ١١٠].

أما قصة أن لله ولداً وحيداً أو غير وحيد فكذب صارخ. إن الولادة شيء يتوقع بين بعض الأحياء، ولا مكان لهذه المفاهيم عند تصور الألوهية:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾. [الإسراء: ١١١].

«يا ربِّي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك».

• • •

وهاك سطوراً من نشرة أخرى تحت عنوان: «حقائق مخفية» بدأها كاتبها قائلاً: (حقائق أنت أحوج إلى إدراكها من الهواء الذي تتنفسه)!!

شيء مدهش، ما هذه الحقائق التي نفتقر إليها على هذا النحو ولم نشعر بفقدانها من زمن بعيد؟

يقول الكاتب: (تعالَ إلى الرب يسوع الآن كما أنت، لا تَسْعَ في إصلاح نفسك!! لأنه هو يستطيع أن يخلق منك شخصاً جديداً طاهراً)، ولكن لماذا لا أسعى في تزكية نفسي ورفع مستواي المادي والمعنوي؟

يقول كاتب النشرة: (احذر أن يكون مثلك مثل المتسول مع الرسام.

ذلك أن رساماً أراد أن يرسم رجلاً في منتهى الذل والمسكنة، فرأى متسولاً يتعثر في أسمال بالية، فطلب منه أن يحضر في ميعاد عيَّنه لـه، على أن يعطيه أجراً. لكن ذلك المتسول خجل من أسماله البالية فاستعار لباساً يدفع بـه عن نفسه الخجـل، ثم أتى إلى الـرسام في الميعـاد، فلما نـظر إليه الـرسام قـال: إني لا أعـرفـك. فـأجـاب الرجل: ألا تذكر شحاذاً فقيراً اتفقت معه على أن يجيئك في هـذا الميعاد؟ قـال: إني لا أذكر إلاَّ رجلاً في أسمال بالية أما أنت فلا أذكرك.

إن الرب ــ يعني يسوعاً ــ يطلبك في حالتـك السيئة، ومـا عليك إلاَّ أن تعتـرف بكل الشرور التي أنت مستعبد لها، وتقبله مخلِّصـاً شخصياً لـك، إذا فعلت ذلك فـإن حِمل خطاياك ينطرح عن ظهرك).

ونحن المسلمين نقـرأ هذا الكـلام ونستغـرب أن تنقـل صفـات الله إلى شخص آخر.. إننا مكلفون ــ كسائر البشر ــ بتزكية أنفسنا وصقلها وتربيتها:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾. [الشمس ٧: ١٠].

فـإذا أخطأ أحـدنا، ذهب إلى ربـه يستغفره ويستهـديه ويستعينـه على العودة إلى الصواب:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴿٢٦﴾ ﴾. [الشورى: ٢٥، ٢٦].

مـا دخـل آدم أو عيسى أو محمـد في ذلـك؟ إنهم كلهم بشـر يحتـاجـون إلى المغفرة، ويطلبون من ربهم النجدة.

ولكي يحس القـارىء بمـا حـوت هـذه النشـرة من خلط ننقـل هـذه العبـارة من كـلامه: (هب أنـه طُلب منك أن تشتـرك في جـريمـة صلب ربـك، وأن تقف مـع من هزئوا به، أكنت ترضى؟ يقيناً لا... ولكنك ما دمت لم تختبر قـوة صلب المسيـح في خلاص نفسك من الخطيئة، فإنك بخطاياك تشترك في جريمة صلب ربك).

هذا الهراء هو الذي نحتاج إليه كما نحتاج إلى الهواء الذي نتنفسه!!

عبيد يستطيعون صلب ربهم، ومع ذلك يطلبون منه المغفرة والرضا. . هلاَّ طلبوا ذلك من الله الذي طلب منه المسيح نفسه النجاة، وعاتبه أن تركه للأعداء كما يقولون!!

• • •

وهاك نشرة أخرى تحت عنوان: «متجدِّد أم متدين»؟ بدأت بهذه الكلمات: (الوردة الطبيعية جميلة الشكل، زكية الرائحة، فيها حياة. والورود الصناعية جميلة الشكل، عديمة الرائحة، ليس فيها حياة. إن الوردة الطبيعية تمثل المتجدد، أما الوردة الصناعية فتشبه أولئك الذين قال عنهم بولس: لهم صورة التقوى ولكنهم ينكرون قوتها).

ولا أفهم بالضبط ما يعني بولس، أيقصد المرائين؟ ربما. . المهم أن كاتب النشرة يختمها بهذه العبارات: (دعني أسألك أيها العزيز: هل أنت متجدِّد أم متدين؟ إذا كنت قد حصلت على الولادة من فوق فطوبى لك، اثبت إذن في المسيح. . . أما إذا كنت متديناً فأسرع بتسليم حياتك الآن للمسيح. . فتنال الحياة الجديدة التي حصلت عليها المرأة الخاطئة حين غسلت قدمي الرب يسوع بدموعها ومسحتها بشعر رأسها، والتي قال لها الرب: مغفورة لك خطاياك، إيمانك قد خلَّصك).

هذه النشرة مثل مثيلاتها مصرَّة على تسمية المسيح الرب، ووصفه بأنه الغفار.

ونحن نقبل المسيح مبلِّغاً عن الله كإخوانه الأنبياء لا يزيد ولا ينقص، ونقتدي به وبهم جميعاً في التقرب إلى الله بالعمل الصالح.

والتدين يهب لنا حياة عقلية ووجدانية راقية، أما التجديد الذي تتحدث عنه النشرة فضرب من الهوس يستهوي الصبية، ومن يحسبون الدين أوهاماً وتهاويل:

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾. [الزخرف: ١٥].

التجديد ليس أن تعجن الخالق والمخلوق في مفهوم مائع، ثم تلف حوله حارقاً البخور، نافخاً في المزمور، كلا، إن التجديد أولاً وآخراً عقل يرفض الخرافة، وقلب يتعشق الكمال ويتطلبه. .

• • •

وهذا منشور آخر من «لبنان» يدور كذلك حول يسوع المصلوب غفّار الذنوب، يقول كاتبه: (أيها الأخ العزيز خطاياك موضوعة على يسوع لتنال سلاماً مع الله، وتشفي نفسك من جروحها. إن تقدمت إلى المصلوب المحبوب وسلمته خطاياك تختبر أن دمه يطهرك من كل إثم، حتى ولو كنت قاتلاً أو متعصباً أو حالفاً بالله كذباً، ومهما كانت خطاياك كبيرة أو صغيرة فإن المسيح هو يغفرها جميعاً)!!

ويجاوبه منشور آخر من القاهرة يرد فيه هذا التساؤل: (لكنك تقول توجد آراء كثيرة فكيف أعرف من هو على حق؟

كل من يرشدك إلى المسيح قارب النجاة فهو على حق، وكل من يبقيك في السفينة العتيقة ـ المشرفة على الغرق ـ يخدعك ويضلك، هل أنت مجتهد بشتى الوسائل في إصلاح السفينة العتيقة، أي طبيعتك البشرية الساقطة؟ اعلم أنك إذن إذا استمررت على هذه الحال فلا بد أن تغطس إن عاجلاً وإن آجلاً..).

أي أن كل تهذيب وتأديب منتهيان بصاحبهما حتماً إلى الغرق، ما لم يعتقد أن المسيح صلب من أجله، وأنه هو وحده فداء خطاياه.

مهما أتيت ربك بقلب سليم، بل لو أتيته بضمير في طهر السحاب وضياء الشروق، فلا وزن لهذا كله، ما لم تؤمن أن عيسى قُتل من أجل أن يفتدي خطاياك، ويخلصك من ذنوبك!!

الإسلام أقوى بكثير من هذه التفاهات

هذه هي خلاصة المنشورات التي حررها بنفسه أو أشرف على تحريرها صاحب الفم الذهبي رئيس الأقباط، وعمل على توزيعها في أوسع نطاق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.[العنكبوت: ١٢، ١٣].

إننا معشر المسلمين نحب عيسى ونوقره ونعد أنفسنا أتباعه، ونرفض بغضب كل ريبة تُوجَّه إليه أو إلى السيدة البتول أمه، بل نحن أولَى بعيسى من أولئك الذين ينتمون إليه ويغالون فيه.

وليس خلافنا مع النصارى أنه قتل أو لم يقتل، الخلاف أعمق من ذلك..
الخلاف: أهو «إنسان» كما نقول أو «إلـه» كما يزعمون؟

أكلّ امرىء بما كسب رهين؟ أم أن هناك قرباناً قدَّمه الله من نفسه لمحو خطايا البشر؟

هم يرون أن الله في السماء ترك ابنه الوحيد على خشبة الصليب ليكون ذلك القربان.

ونتساءل: أكان عيسى يجهل ذلك عندما قال: إلّهي لماذا تركتني؟

وثم سؤال أخطر: هل المنادي المستغيث في الأرض هو هو المنادي المستغاث به في السماء، لأن الأب والابن شيء واحد كما يزعمون؟؟

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول!!

الحق أن هذه العقيدة النصرانية يستحيل أن تُفهم.

قرأت مقالاً للدكتور «ميشيل فرح» في جريدة «لميساجي» الصادرة في القاهرة في ١٦/٩/١٩٧٣م، يشرح هذه العقيدة بطريقة عقلانية قال: (الكتاب المقدس ينبىء أن الله سوف يظهر نفسه، أي أن الكلمة المجرَّدة ستأخذ جسداً ولحماً(!!) وهذا هو الحدث الجديد. عمانوئيل. الله معنا. الله يصبح بشرى سارة، الله يعلن ويخبر. وهذا الظهور أساس كل شيء. هو الرد على سؤال توفيق الحكيم في قصته المشهورة «أرني الله». ها هو الله. شيء ما حدث وحصل ووقع وتأنس).

هذا الكلام المبهم المضطرب الذي لا يعطي معنى هو التفسير العقلاني للعقيدة المسيحية!!

رب المشارق والمغارب ظهر في إهاب «بشر» ليراه الناس، ثم من فرط رحمته بهم «ينتحر» من أجلهم!!

- من يكلفني بهضم هذا القول؟
- هل أعتنق هذا وأترك القرآن الذي يقرر العقيدة على هذا النحو:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.
[الأنعام: ١٢].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾. [يونس: ٦٦ ـ ٦٩].

هكذا خاصم الإسلام الخرافة وأعلن إباءه التام للون مقنع من الشرك، وسدَّ الطريق في وجه القرابين الوثنية وهي تتسلل في خبث لتطمس معالم التوحيد.

لم كرمنا الله بالعقل إذا كان مفروضاً أن نطرحه ظهرياً عندما نختار أهم شيء في الحياة وهو الإيمان والسلوك؟

إن العقل يجزم بأن عيسى بشر وحسب، ويرفض أن يكون «إلٰهاً» ابناً مع «إلٰه» أي مع «إلٰه» آخر روح قدس، وثلاثتهم واحد مع تعددهم، وتعددهم حتم، لأن أحدهم ترك الآخر يصلب.

هذا الكلام يدخل في باب الألغاز ولا مجال له في عالم الحق والتربية.

ومع ذلك فنحن المسلمين نقول لمن يصدقه: عش به ما شئت:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴿٢٥٦﴾ ﴾. [البقرة: ٢٥٦].

فهل الرد على هذا المنطق إثارة كل هذا الدخان في آفاقنا، ومحاولة ختل الشباب ونشر الفتنة؟

قصة «الله محبة» وموقف شتى الأناجيل منها

وقال لي أحدهم وهو يحاورني: إننا نرى أن الله محبة!! على عكس ما ترون.. فأجبت ساخراً، كأننا نرى الله كراهية؟ إن الله مصدر كل رحمة وبرّ، وكل نعمة وخير.. وصحيح أننا نصفه بالسخط على الفجّار والظَلَمة، والأمر في ذلك كما قال جل شأنه: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧]. أفليس الأمر كذلك لديكم؟ إنكم تخدعون العالمين بذكر هذه الكلمة وحدها ووضع ستائر كثيفة على ما عداها من كلمات تصف الجبروت الإلّهي بأشد مما ورد في الإسلام، بل إن تعامل بعضكم مع البعض، وتعاملكم جميعاً مع الخصوم لا يقوم إلّا على هذه الكلمات الأخرى التي تخفونها، وما أكثرها لديكم.

قال «اتينيه دينيه» المستشرق المسلم: (بَيْدَ أن المسيح نفسه ــ وهو سيدنا وسيد المسيحيين ــ يعلن:

«ولا تظنوا أني جئت أنشر السلام على الأرض، إنني لم آت أحمل السلام وإنما السيف» (إنجيل متى. الإصحاح العاشر، ٣٤).

ويقول السيد المسيح: «إنني جئت لألقي النار على الأرض، وماذا أريد من ذلك إلّا اشتعالها» (إنجيل لوقا. الإصحاح الثاني عشر، ٤٩).

ويقول السيد المسيح: «إذ أني جئت لأفرق بين الولد وأبيه، والبنت وأمها، وبين زوجة الابن وأمه» (إنجيل متى، الإصحاح العاشر، ٣٥).

ويقول السيد المسيح: «إن كان أحد يأتي ولا يبغض أباه وأمه، وامرأته وأولاده، وإخوته وأخواته، حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع عشر، ٢٦).

أين من هذا ما جاء به النبي العربي الكريم من سلام حقيقي وحب كامل بين الأخ وأخيه، وبين الزوجة وزوجها، وبين الأب وولده، وبين الأم وفلذة كبدها، وبين الجار وجاره مسلماً كان أو غير مسلم، وبين الأرحام والأقرباء، وبين المشتركين في الإنسانية الذين يتوفر لديهم مدلول الإنسانية في بني الإنسان).

● ● ●

إننا ـ نحن المسلمين ـ نتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ برحمة الناس وغير الناس، والبذل من مالنا وجهدنا ووقتنا في سبيل نفعهم، ولنا على كل شيء من ذلك أجر في ميزان الله الذي لا يختل عنده ميزان.

وما أصدقها شهادة تلك التي بعث بها البطريرك (النسطوري الثالث) إلى البطريرك «سمعان» زميله في المجمع بعد ظهور الإسلام حيث قال في كتابه: (إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا معنا، ومع ذلك نراهم لا يعرضون للنصرانية بسوء، فهم يساعدوننا ويشجعوننا على الاحتفاظ بمعتقداتنا، وإنهم ليجلُّون الرهبان والقسيسين، ويعاونون بالمال الكنائس والأديرة).

وما أصدق ما يقوله المؤرخ العالمي (هـ. ج. ويلز) في كتابه: «معالم تاريخ الإنسانية»: (لقد تم في ١٢٥ عاماً أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسي وإسبانيا، ومن حدود الصين إلى مصر العليا، ولقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت الأيام تقديمه، وهو قد انتشر لأنه كان يجد في كل مكان شعوباً بليدة سياسياً: تُسلَب وتُظْلَم وتخوَّف، ولا تُعلَّم ولا تُنظَّم، كذلك وجدت حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أي شعب. فكان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلي في العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب بني الإنسان نظاماً أفضل من أي نظام آخر).

تجليات العذراء

تقتعد خوارق العادات المكانة الأولى في الأديان البدائية، وكلما وهى الأساس العقلي لدين ما زاد اعتماده على هذه الخوارق، وجمع منها الكثير لكهنته وأتباعه.

والمسيحية من الأديان التي تعوِّل في بقائها وانتشارها على عجائب الشفاء، وآثار القوى الخفية الغيبية.

وبين يدي الآن نشرة صغيرة على أحد وجهيها صورة العذراء وهي تقطر وداعة ولطفاً، وعلى ذراعها الطفل الإلّه يسوع يمثل البراءة والرقة. أما الوجه الآخر للصورة فقد تضمن هذا الخبر تحت عنوان: «محبة الآخرين وخدمتهم»، وتحته هذه الجملة: «حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع» (غل ٦ : ١٠)، «كانت السيدة زهرة ابنة محمد علي باشا بها روح نجس، ولما علم أبوها أن «الأنبا حرابامون» أسقف المنوفية

قـد أعطاه الله مـوهبة إخـراج الأرواح النجسة استـدعاه. ولمـا صلَّى لأجلها شفيت في الحال، فأعطاه محمد علي باشا صرة بها أربعة آلاف جنيه، فرفضها قـائلاً: «(إنـه ليس في حاجة إليها لأنه يعيش حياة الزهد، وهو قانـع بها)».

هذا هو الخبر الذي يوزع على الجماهير ليترك أثره في صمت.

وموهبة استخراج العفاريت من الأجسام الممسوسة موهبة يدَّعيها نفر من الناس، أغلبهم يحترف الدجل، وأقلهم يستحق الاحترام، وأعرف بعض المسلمين يزعم هذا، وأشعر بريبة كبيرة نحوه.

ومرضى الأعصاب يحيِّرون الأطباء، وربما أعيا أمرهم عباقرة الطب، ونجـح في علاجهم عامي يكتب «حجاباً» لا شيء فيه غير بعض الصور والأرقام.

وليس يعنيني أن أصدِّق أو أكذب المأسوف على مهارته أسقف المنـوفية، وإنمـا يعنيني كشف طـريقة من طـرق إقناع النـاس بصـدق النصـرانيـة، وأن الثـالـوث حق، والصلب قد وقـع، والأتباع المخلصين يأتون العجائب.

والمسيحية أحوج الأديان لهذا اللون من الأقـاصيص، هي فقيرة إليهـا في سِلمها لإثبات أصولها الخارجة على المنطق العقلي، وفقيرة إليه في قتالها لتبرير عدوانها على الآخرين.

• • •

وتـدبَّر معي هـذه القصة من قصص الحروب الصليبية المشهـورة بقصة «الـرمـح المقدس» منقولة من كتاب «الشرق والغرب»:

(دفـع الصليبيـون من أجل عبـور آسيا الصغـرى ثمنـاً بـاهـظاً، إذ فقـدوا أفضـل جنودهم وخيرة عساكرهم، بينما استولى اليأس والفزع على البقية الباقية.

وبدأ الخوف من تفكـك الجيش وفرار الجنـود يساور القـادة، فعمدوا إلى بعض الحيـل الدينيـة لصدِّ هـذا الخطر وربط الجنـود بربـاط العقيدة. ومن تلك الحيـل التي روَّجـوا لهـا مـا رواه المؤرخـون عن ظهـور المسيـح والعـذراء أمـام الجنـود الهيـابين، ووعـدهم بـالصفـح عن الخـطايا والخلود في الجنـة إذا ما استمـاتوا في معـاركهم ضد المسلمين).

غير أن هذا الأسلوب النظري لم يلهب حماس الجنود، ولم يحقق الغرض الذي ابتدعه الصليبيون من أجله، فكان لا بد من أسلوب آخر ينطوي على واقعة مادية يكون من شأنها إعادة الإيمان إلى القلوب التي استبد بها اليأس وتقوية العزائم التي أوهنتها الحرب. وهنا أذيع بين الجنود قصة اكتشاف الرمح المقدس.

تلك الواقعة التي روى تفاصيلها المؤرخ «جيبون» فضلاً عن غيره من المؤرخين المعاصرين. قال:

(إن قساً يدعى بطرس بارتلمي من التابعين لأسقفية «مارسيليا» منحرف الخلق، ذا عقلية شاذة وتفكير ملتو معقد، زعم لمجلس قيادة الحملة الصليبية أن قديساً يدعى «أندريه» زاره أثناء نومه وهدده بأشد العقوبات إن هو خالف أوامر السماء، ثم أفضى إليه بأن الرمح الذي اخترق قلب عيسى عليه السلام مدفون بجوار كنيسة القديس بطرس في مدينة «أنطاكيا»، فروى «بارتلمي» هذه الرؤيا لمجلس قيادة الجيش، وأخبرهم بأن هذا القديس الذي طاف به في منامه قد طلب إليه أن يبادر إلى حفر أرض المحراب لمدة أيام ثلاثة تظهر بعدها: «أداة الخلود» التي «تخلص» المسيحيين جميعاً، وأن القديس قال له: ابحثوا تجدوا.. ثم ارفعوا الرمح وسط الجيش وسوف يمرق الرمح ليصيب أرواح أعدائكم المسلمين.

وأعلن القس «بارتلمي» اسم أحد النبلاء ليكون حارساً للرمح، واستمرت طقوس العبادة من صوم وصلاة ثلاثة أيام دخل في نهايتها اثنا عشر رجلاً ليقوموا بالحفر والتنقيب عن «الرمح» في محراب الكنيسة.

لكن أعمال الحفر والتنقيب التي توغلت في عمق الأرض اثني عشر قدماً لم تسفر عن شيء، فلما جنَّ الليل أخلد «النبيل» الذي اختير لحراسة الرمح إلى شيء من الراحة، وأخذته سِنَةٌ من النوم، وبدأت الجماهير التي احتشدت بأبواب الكنيسة تتهامس.

فاستطاع القس «بارتلمي» في جنح الظلام أن ينزل إلى الحفرة مخفياً في طيات ثيابه قطعة من نصل رمح أحد المقاتلين العرب، وبلغ أسماع القوم رنين من جوف الحجرة، فتعالت صيحاتهم من فرط الفرح، وظهر القس وبيده النصل الذي احتواه بعد ذلك قماش من الحرير الموشّى بالذهب، ثم عرض على الصليبيين ليلتمسوا منه

البركة، وأذيعت هذه الحيلة بين الجنود وامتلأت قلوبهم بالثقة، وقد أمعن قادة الحملة في تأييد هذه الواقعة بغض النظر عن مدى إيمانهم بها أو تكذيبهم لها).

● ● ●

على هذا النحو، ولمثل هذا الغرض جرت أسطورة ظهور العذراء في كنيسة عادية، وكاهنها فيما علمت رجل فاشل لا يتردد الأقباط على دروسه.

وبين عشية وضحاها أصبح كعبة الآلاف، فقد شاع وملأ البقاع أن العذراء تجلّت شبحاً نورانياً فوق برج كنيسته، ورآها هو وغيره في جنح الليل البهيم..

وكأنما الصحف المصرية كانت على موعد مع هذه الإشاعة، فقد ظهرت كلها بغتة وهي تذكر النبأ الغامض، وتنشر صورة البرج المحظوظ، وتلح إلى حد الإسفاف في توكيد القصة.

وبلغ من الجرأة أنها ذكرت تكرار التجلّي المقدس في كل ليلة.

وكنت موقناً أن كل حرف من هذا الكلام كذب متعمد، ومع ذلك فإن أسرة تحرير مجلة «لواء الإسلام» قررت أن تذهب إلى جوار الكنيسة المذكورة كي ترى بعينيها ما هنالك..

وذهبنا أنا والشيخ «محمد أبو زهرة» وآخرون، ومكثنا ليلاً طويلاً نرقب الأفق، ونبحث في الجو، ونفتش عن شيء فلا نجد شيئاً البتة.

وبين الحين والحين نسمع صياحاً من الدهماء المحتشدين لا يلبث أن ينكشف عن صفر.. عن فراغ.. عن ظلام يسود السماء فوقنا.. لا عذراء ولا شمطاء.

وعدنا وكتبنا ما شاهدنا وفوجئنا بالرقابة تمنع النشر.

وقال لنا بعض الخبراء: إن الحكومة محتاجة إلى جعل هذه المنطقة سياحية، لحاجتها إلى المال، ويهمها أن يبقى الخبر ولو كان مكذوباً. ما هذا؟!

● ● ●

ولقيني أستاذ الظواهر الجوية بكلية العلوم في جامعة القاهرة، ووجدني ساخطاً ألعن التآمر على التخريف وإشاعة الإفك، فقال لي: أحب أن تسمع لي قليلاً، إن الشعاع الذي قيل برؤيته فوق برج الكنيسة له أصل علمي مدروس، واقرأ هذا البحث.

وقرأت البحث الذي كتبه الرجل العالم المتخصص[1]، واقتنعت بـه، وإني أثبته كاملاً هنا:

ظاهرة كنيسة الزيتون ظاهرة طبيعية.

(عندما أتحدث باسم العلم لا أعتبر كلامي هذا رداً على أحد، أو فتحاً لباب النقاش في ظاهرة معروفة، فلكل شأنه وعقيدته، ولكن ما أكتب هو بطبيعة الحال ملخص ما أثبته العلم في هذا المجال من حقائق لا تقبل الجدل ولا تحتمل التأويل نبصِّر بها الناس، ولكل شأنه وتقديره.

ولا ينكر العلم الطبيعي حدوث هذه الظاهرة، واستمرارها في بعض الليالي لعدة ساعات، بل يقرها ولكن على أساس أنها مجرد نيران أو وهج أو ضياء متعددة الأشكال غير واضحة المعالم، بحيث تسمح للخيال أن يلعب فيها دوره، وينسج منها ما شاءت الظروف أن ينسج من ألوان الخيوط والصور. إنها من ظواهر الكون الكهربائية التي تحدث تحت ظروف جوية معينة تسمح بسريان الكهرباء من الهواء إلى الأرض عبر الأجسام المرتفعة نسبياً المدببة في نفس الوقت، شأنها في ذلك مثلاً شأن الصواعق التي هي نيران مماثلة، ولكن على مدى أكبر وشدة أعظم، وشأن الفجر القطبي الذي هو في مضمونه تفريغ كهربي في أعالي جو الأرض، ولطالما أثار الفجر القطبي اهتمام الناس بمنظره الرائع الخلاب، حتى ذهب بعضهم خطأ إلى أنه ليلة القدر، لأنه يتدلى كالستائر المزركشة ذات الألوان العديدة التي تتموج في مهب الريح.

ومن أمثلة الظواهر المماثلة لظاهرتنا هذه أيضاً ــ من حيث حدوث الأضواء وسط الظلام ــ السحب المضيئة العالية المعروفة باسم «سحاب اللؤلؤ»، وهذا السحاب يضيء ويتلألأ وسط ظلام الليل لأنه يرتفع فوق سطح الأرض، ويبعد عنها البعد الكافي الذي يسمح بسقوط أشعة الشمس عليه رغم اختفاء قرص الشمس تحت الأفق، وتضيء تلك الأشعة ذلك السحاب العالي المكون من إبر الثلج، فيتلألأ ويلمع ضياؤه ويترنح وسط ظلام الليل ونقاء الهواء العلوي فيتغنى به الشعراء.

---

(١) الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الفندي.

وتذكرنا هذه الظاهرة كذلك بظاهرة السراب المعروفة، تلك التي حيَّرت جيوش الفرنسيين أثناء حملة نابليون على مصر، فقد ظنوا أنها من عمل الشياطين حتى جاءهم العالم الطبيعي «مونج» بالخبر اليقين، وعرف الناس أنها من ظواهر الطبيعة الضوئية.

وظاهرتنا التي تهمنا وتشغل بال الكثيرين منا تسمى في كتب العلم «نيران القديس المو» أو «نيران سانت المو»، ونحن نسوق هنا ما جاء عنها في دائرة المعارف البريطانية التي يملكها الكثيرون ويمكنهم الرجوع إليها: النص الإنجليزي في: (Handy Volume Essue Eleventh Edition).

الصحيفة الأولى من المجلد الرابع والعشرين تحت اسم: "St. Elmos Fires".

وترجمة ذلك الكلام حرفياً:

نيران سانت المو: هي الوهج الذي يلازم التفريغ الكهربي البطيء من الجو إلى الأرض، وهذا التفريغ المطابق لتفريغ «الفرشاة» المعروف في تجارب معامل الطبيعة، يظهر عادة في صورة رأس من الضوء على نهايات الأجسام المدببة التي على غرار برج الكنيسة وصاري السفينة، أو حتى نتوآت الأراضي المنبسطة، وتصحبها عادة ضوضاء طقطقة وأزيز.

وتشاهد نيران «سانت المو» أكثر ما تشاهد في المستويات المنخفضة خلال موسم الشتاء أثناء وفي أعقاب عواصف الثلج.

واسم «سانت المو» هو لفظ إيطالي محرف من سانت «رمو»، وأصله سانت أراموس، وهو البابا في مدة حكم دومتيان، وقد حطمت سفينته في ٢ يونيو عام ٣٠٤، ومنذ ذلك الحين اعتبر القديس الراعي لبحارة البحر المتوسط، الذين اعتبروا نيران «سانت المو» بمثابة العلاقة المرئية لحمايته لهم، وعرفت الظاهرة لدى قدماء الإغريق. ويقول بلن (Biln) في كتابه «التاريخ الطبيعي»: إنه كلما تواجد ضوءان كانت البحارة تسميهما التوأمان، واعتبر بمثابة الجسم المقدس.

على هذا النحو نرى أن أهل العلم الطبيعي لا يتحدثون عن خوارق الطبيعة، وإنما يرجعون كل شيء إلى قانونه السليم العام التطبيق، أما من حيث انبعاث ألوان تميز تلك النيران فيمكننا الرجوع إلى بعض ما عمله العلماء الألمان أمثال جوكل

(Gockel) من تفسير الاختلاف في الألوان، فهو يبين من التجارب التي أجراها في ألمانيا أنه أثناء سقوط الثلج تكون الشحنة موجبة (اللون الأحمر)، أما أثناء تساقط صفائح ثلج فإن الشحنة ليست نادرة ويصحبها أزيز ويغلب عليها اللون الأزرق.

وفي كتاب الكهرباء الجوية (Atmospheric Electricity)، لمؤلفه شوتلاند صفحة ٣٨ نجده يقول:

تحت الظروف الملائمة فإن القسم البارز على سطح الأرض كصواري السفن إذا تعرضت إلى مجالات شديدة من حالات شحن الكهرباء الجوية يحصل التفريغ الوهجي ويظهر واضحاً ويسمى نيران «سانت المو».

قارن هذا بالأوصاف التي وردت في جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٦٨/٥/٦م (هيئة جسم كامل من نور يظهر فوق القباب الأربع الصغيرة لكنيسة الزيتون، أو فوق الصليب الأعلى للقبة الكبرى، أو فوق الأشجار المحيطة بالكنيسة... إلخ).

أما الألوان فقد أجمعت التقارير حتى الآن على أنها الأصفر الفاتح المتوهج والأزرق السماوي.

وعندما نرجع بالذاكرة إلى الحالة الجوية التي سبقت أو لازمت الرؤية الظاهرة نجد أن الجمهورية كانت تجتاحها في طبقات الجو العلوي موجة من الهواء الباردة جداً الذي فاق في برودته هواء أوروبا نفسها، مما وفَّر الظرف الملائم لتولد موجات كهربية بسبب عدم الاستقرار، ولكن فروق الجهد الكهربي يمكن أن تظل كافية مدة طويلة.

ويضيف ملهام (Milham) عالم الرصد الجوي البريطاني في كتابه «المتيرولوجيا» صفحة ٤٨١: (إنه أحياناً تنتشر رائحة من الوهج..) وتفسيرنا العلمي للرائحة أنها من نتائج التفاعلات الكيماوية التي تصحب التفريغ الكهربي وتكوِّن مركبات كالأوزون.

وخلاصة القول: أنه من المعروف والثابت علمياً أن التفريغ الكهربي المصحوب بالوهج يحدث من الموصلات المدببة عندما توضع في مجال كهربي كاف، وهو يتكون من سيال من الأيونات التي تحمل شحنات من نفس نوع الشحنات التي يحملها الموصل.

والتفريغات الكهربية التي من هذا النوع يجب أن تتوقع حدوثها من أطراف الموصلات المعرضة على الأرض مثل النخيل والأبراج ونحوها، عندما يكون مقدار التغير في الجهد الكهربي كافياً، بشرط أن يكون ارتفاع الجسم المتصل بالأرض ودقة الأطراف المعرضة ملائمة. ومن المؤكد أن الباحثين الأول أمثال فرنكلين لاحظوا مجال الجو الكهربي حتى في حالات صفاء السماء.

وتحت الظروف الطبيعية الملائمة التي توفرها الأطراف المدببة للأجسام المرتفعة فوق سطح الأرض قد يصبح وهج التفريغ ظاهراً واضحاً.

وقد ذكر «ولسون» العالم البريطاني في الكهربائية الجوية أن التفريغ الكهربي البطيء للأجسام المدببة يلعب دوراً هاماً في التبادل الكهربي بين الجو والأرض، خصوصاً عن طريق الأشجار والشجيرات وقمم المنازل وحتى حقول الحشائش. وليس من اللازم أن ينتهي الجسم الموصل بطرف مدبب أو يبرز إلى ارتفاعات عظيمة.

وقد يتساءل الناس:

- إن الظاهرة خدعت الأقدمين من الرومان قبل عصر العلم، ثم في عصر العلم فسر العلماء الظاهرة على أنها تفريغ كهربي، لكن التاريخ يعيد نفسه فقد خدعت نفس الظاهرة الطبيعية أهل مصر فأطلقوا عليها نفس الاسم الذي تحمله الكنيسة التي ظهرت النيران فوقها، ومن هنا ظن القوم خطأ أنها روح مريم عليها السلام.

- الظاهرة الطبيعية تحدث في الهواء الطلق أعلى المباني والشجر، ولا تحدث داخل المباني وهو عين ما شوهد، ولو أنها كانت روح العذراء لراحت تظهر داخل الكنيسة بدلاً من الظهور على الأشجار والقباب.

- الظاهرة الجوية يرتبط ظهورها ومكثها بالكهربائية الجوية، وعموماً بالجو وتقلباته، فهل إذا كانت روحاً يرتبط ظهورها بالجو كذلك؟؟

- الظاهرة الطبيعية لا تشاهد إلاّ عندما يخيم الظلام بسبب ضعف ضوء الوهج بالنسبة إلى ضوء الشمس الساطع. ولكن ما يمنع الأرواح الطاهرة أن تظهر بالنهار!؟

- إذا كانت نفس الظاهرة تشاهد في أماكن أخرى في مصر فما الموضوع؟).

• • •

وحاول الدكتور محمد جمال الدين الفندي أن ينشر بحثه في الصحف فأبت، والغريب أنه لما نشر في مجلة «الوعي الإسلامي» الكويتية منع دخولها مصر.

والأغرب من ذلك أن الأوامر صدرت لأئمة المساجد ألا يتعرضوا للقصة من قريب أو بعيد!!

وذهب محافظ القاهرة «سعد زايد» ليضع تخطيطاً جديداً للميدان، يلائم الكنيسة التي سوف تبنى تخليداً لهذا الحدث الجليل.. وعلمت بعد ذلك من زملائي وتلامذتي أن لتجليات العذراء دورات منظمة مقصودة.

فقد ظهرت في «الحبشة» قريباً من أحد المساجد الكبرى فاستولت عليه السلطة فوراً، وشيدت على المكان كله كنيسة سامقة!!

وظهرت في «لبنان» فشدت من أزر المسيحية التي تريد فرض وجودها على جباله وسهوله مع أن كثرة لبنان مسلمة.

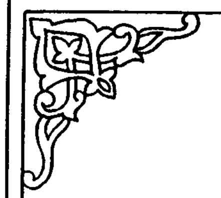
وها هي ذي قد ظهرت في القاهرة أخيراً لتضاعف من نشاط الأقباط كي يشددوا ضغطهم على الإسلام.

وقد ظلت جريدة «وطني» الطائفية تتحدث عن هذا التجلِّي الموهوم قريباً من سنة، إذ العرض مستمر، والخوارق تترى، والأمراض المستعصية تشفى، والحاجات المستحيلة تُقضى.

كل ذلك وأفواه المسلمين مكممة، وأقلامهم مكسورة حفاظاً على الوحدة الوطنية.

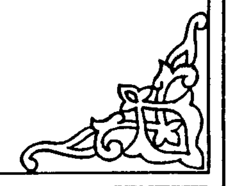
وسوف تتجلَّى مرة أخرى بداهة عندما تريد ذلك المخابرات المركزية الأمريكية. ولله في خلقه شؤون!!






الفصل الثالث

- ماذا يريدون؟
- تقرير رهيب.
- الحقائق تتكلم
- نحن نريد الحفاظ على وحدة مصر الوطنية

الفصل الثالث

ماذا يريدون؟

إذا أراد الأقباط أن يعيشوا كأعدادهم من المسلمين فأنا معهم في ذلك، وهم يقاربون الآن مليونين ونصف، ويجب أن يعيشوا كملونين ونصف من المسلمين.

لهم ما لهم من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات، أما أن يحاولوا فرض وصايتهم على المسلمين، وجعل أزمّة الحياة الاجتماعية والسياسية في أيديهم فلا.

● إذا أرادوا أن يبنوا كنائس تسع أعدادهم لصلواتهم وشعائرهم الدينية فلا يعترضهم أحد.

● أما إذا أرادوا صبغ التراب المصري بالطابع المسيحي، وإبراز المسيحية وكأنها الدين المهيمن على البلاد، فلا.

● إذا أرادوا أن يحتفظوا بشخصيتهم فلا تمتهن، وتعاليمهم فلا تجرح، فلهم ذلك. أما أن يودوا «ارتداد» المسلمين عن دينهم، ويعلنوا غضبهم إذا طالبنا بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتعميم التربية الدينية، فهذا ما لا نقبله.

إن الاستعمار أوعز إلى بعضهم أن يقف مراغماً للمسلمين، ولكننا نريد تفاهماً شريفاً مع ناس معقولين.

إن الاستعمار أشاع بين من أعطوه آذانهم وقلوبهم أن المسلمين في مصر غرباء، طارئون عليها، ويجب أن يزولوا، إن لم يكن اليوم فغداً.

وعلى هذا الأساس أسموا جريدتهم الطائفية «وطني»!!

ومن هذا المنطلق شرع كثيرون من المغامرين يناوش الإسلام والمسلمين، وكلما رأى عودة من المسلمين إلى دينهم همس أو صرخ: عاد التعصب، الأقباط في خطر!!

ولا ذرة من ذلك في طول البلاد وعرضها، ولكنها صيحات مريبة أنعشها وقوّاها «بابا شنودة» دون أي اكتراث بالعواقب.

وقد سبقت محاولات من هذا النوع أخمدها العقلاء نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كتابات القُمُص «سرجيوس» الذي احتفل «البابا» شنودة أخيراً بذكراه.

ففي العدد ٤١ من السنة ٢٠ من مجلة المنارة الصادرة في ١٩٤٧/١٢/٦ كتب هذا القمص تحت عنوان:

«حسن البنا يحرض على قتال الأقليات بعد أن سلَّح جيوشه بعلم الحكومة»: يقول:

نشرنا في العدد السابق تفسير الشيخ «حسن البنا» لآية سورة التوبة قوله:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾. [التوبة: ٢٩].

قال: «وقد قال الفقهاء، وتظاهرت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنَّة: إن القتال فرض عين إذا ديست أرض الإسلام، أو اعتدى عليها المعتدون من غير المسلمين، وهو فرض كفاية لحماية الدعوة الإسلامية وتأمين الوطن الإسلامي، فيكون واجباً على من تتم بهم هذه الحماية وهذا التأمين.

.. وليس الغرض من القتال في الإسلام إكراه الناس على عقيدة أو إدخالهم قسراً في الدين، والله يقول:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴿٢٥٦﴾ ﴾. [البقرة: ٢٥٦].

كما أنه ليس الغرض من القتال كذلك الحصول على منافع دنيوية أو مغانم دينية، فالزيت والفحم والقمح والمطاط ليست من أهداف المقاتل المسلم الذي يَخرج عن نفسه وماله ودمه لله بأن له الجنة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴿١١١﴾ ﴾. [التوبة: ١١١].

حكم قتال أهل الكتاب:

وأهل الكتاب: (يقاتلون كما يقاتَل المشركون تماماً إذا اعتدوا على أرض الإسلام، أو حالوا دون انتشار دعوته).

الرد: للشيخ «حسن البنا» أسلوبه الخاص في الكتابة والتفسير وفي الفتاوى، ويعرف بالأسلوب المائع، إذ يترك دائماً الأبواب مفتوحة ليدخل متى شاء في ما أراد دون أن يتقيد أو يمسك، ومن آيات ميوعته أنه يقول إن القتال يكون فرض عين إذا ديست أرض الإسلام أو اعتدى عليها المعتدون من غير المسلمين، دون أن يبين أو يحدد ما هي أرض الإسلام أو الوطن الإسلامي: هل هي الحجاز فقط، أم هي كل بلد من بلاد العالم يكون فيها المسلمون أغلبية أو أقلية أو متعادلين؟

وكان في عدم تحديده لأرض الإسلام أو الوطن الإسلامي ماكراً سيئاً، ليكون حراً في إعلان القتال على من يشاء من المستضعفين من المسيحيين واليهود الذين يقوى على محاربتهم في أي بلد كان، وكان أحرى به أن يقولها كلمة صريحة إن أرض الإسلام هي الحجاز، أي الأرض التي نشأ عليها الإسلام ــ أي الدين الإسلامي ــ، وليست البلاد التي يعيش فيها المسلمون في العالم. وسواء كانت أرض الإسلام أو وطن الإسلام هي الحجاز أم هي كل بلد من بلاد العالم يعيش فيه المسلمون، فلا يمكن العمل بما يقول به الشيخ «حسن البنا» بأن القتال فرض عين أو فرض كفاية على المسلمين إذا ديست أرض الإسلام أو اعتدى عليها المعتدون من غير المسلمين).

وأنا أسأل أي قارىء اطَّلع على تفسير «حسن البنا»: هل اشتم منه رائحة تحريض على الأقباط أو اليهود؟

وأسأل أي منصف قرأ الرد عليه: هل وجد فيه إلَّا التحرُّش والرغبة في الاشتباك دون أدنى سبب؟!

إن هذا القمص المفتري لا يريد إلَّا شيئاً واحداً: إبعاد الصفة الإسلامية عن مصر واعتبار الحجاز وحده وطناً إسلامياً، أما مصر فليست وطناً إسلامياً لأن سكانها المسلمين فوق ٩٢ ٪ من جملة أهلها.

ولماذا تنفى الصفة الإسلامية عن مصر مع أن هذه الصفة تُذكر لجعل الدفاع عنها فريضة مقدسة؟!

هذا ما يُسأل عنه القمص الوطني، والذين احتفلوا بذكراه بعد ربع قرن من وفاته. . .

إن الدفاع عن مصر ضد الاستعمار العالمي ينبغي أن تهتز بواعثه وأن تُفَتَّر مشاعره!!.

لقد كانت مصر وثنية في العصور القديمة، ثم تنصَّر أغلبها، فهل يقول الوثنيون المصريون لمن تنصَّر: إنك فقدت وطنك بتنصُّرك؟!

ثم أقبل الإسلام فدخل فيه جمهور المصريين، فهل يقال للمسلم: إنك فقدت وطنك بإسلامك؟!

ما هذه الرقاعة.

تقرير رهيب

بيد أن الحملة على الإسلام مضت في طريقها، وزادت ضراوة وخسة في الأيام الأخيرة، ثم جاء «الانبا شنودة» رئيساً للأقباط فقاد حملة لا بد من كشف خباياها وتوضيح مداها حتى يدرك الجميع: مم نحذر؟ وماذا نخشى؟

وما نستطيع السكوت ومستقبلنا كله تعصف به الفتن ويأتمر به سماسرة الاستعمار.

كنت في الإسكندرية في مارس من سنة ١٩٧٣م، وعلمت عن غير قصد بخطاب ألقاه البابا شنودة في الكنيسة المرقصية الكبرى في اجتماع سري أعان الله على إظهار ما وقع فيه.

وإلى القراء ما حدث كما نقل مسجلاً إلى الجهات المعينة:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«نقدم لسيادتكم هذا التقرير لأهم ما دار في الاجتماع بعد أداء الصلاة والتراتيل:

(طلب البابا شنودة من عامة الحاضرين الانصراف، ولم يمكث معه سوى رجال الدين وبعض أثريائهم بالإسكندرية، وبدأ كلمته قائلاً: إن كل شيء على ما يرام

ويجري حسب الخطة الموضوعة لكل جانب من جوانب العمل على حدة في إطار الهدف الموحد، ثم تحدث في عدد من الموضوعات على النحو التالي:

أولاً ــ عدد شعب الكنيسة:

صرَّح لهم أن مصادرهم في إدارة التعبئة والإحصاء أبلغتهم أن عدد المسيحيين في مصر يقارب الثمانية مليون (٨ مليون نسمة)، وعلى شعب الكنيسة أن يعلم ذلك جيداً، كما يجب عليه أن ينشر ذلك ويؤكده بين المسلمين، إذ سيكون ذلك سندنا في المطالب التي سنتقدم بها إلى الحكومة التي سنذكرها لكم اليوم.

والتخطيط العام الذي تم الاتفاق عليه بالإجماع والتي صدرت بشأنه التعليمات الخاصة لتنفيذه وضع على أساس بلوغ شعب الكنيسة إلى نصف الشعب المصري، بحيث يتساوى عدد شعب الكنيسة مع عدد المسلمين لأول مرة منذ ١٣ قرناً، أي منذ «الاستعمار العربي والغزو الإسلامي لبلادنا» على حد قوله، والمدة المحددة وفقاً للتخطيط الموضوع للوصول إلى هذه النتيجة المطلوبة تتراوح بين ١٢، ١٥ سنة من الآن.

ولذلك فإن الكنيسة تحرم تحريماً باتاً تحديد النسل أو تنظيمه، وتعد كل من يفعل ذلك خارجاً عن تعليمات الكنيسة، ومطروداً من رحمة الرب، وقاتلاً لشعب الكنيسة، ومضيِّعاً لمجده، وذلك باستثناء الحالات التي يقرر فيها الطب والكنيسة خطر الحمل أو الولادة على حياة المرأة، وقد اتخذت الكنيسة عدة قرارات لتحقيق الخطة القاضية بزيادة عددهم:

١ ــ تحريم تحديد النسل أو تنظيمه بين شعب الكنيسة.

٢ ــ تشجيع تحديد النسل وتنظيمه بين المسلمين (خاصة وأن أكثر من ٦٥٪ من الأطباء والقائمين على الخدمات الصحية هم من شعب الكنيسة)!!

٣ ــ تشجيع الإكثار من شعبنا ووضع حوافز ومساعدات مادية ومعنوية للأسر الفقيرة من شعبنا.

٤ ــ التنبيه على العاملين بالخدمات الصحية على المستويين الحكومي وغير الحكومي كي يضاعفوا الخدمات الصحية لشعبنا، وبذل العناية والجهد الوافرين،

وذلك من شأنه تقليل نسبة الوفيات بين شعبنا (على أن نفعل عكس ذلك مع المسلمين).

٥ ــ تشجيع الزواج المبكر وتخفيض تكاليفه، وذلك بتخفيف رسوم فتح الكنائس ورسوم الإكليل بكنائس الأحياء الشعبية.

٦ ــ تحرم الكنيسة تحريماً تاماً على أصحاب العمارات والمساكن المسيحيين تأجير أي مسكن أو شقة أو محل تجاري للمسلمين، وتعتبر من يفعل ذلك من الآن فصاعداً مطروداً من رحمة الرب ورعاية الكنيسة، كما يجب العمل بشتى الوسائل على إخراج السكان المسلمين من العمارات والبيوت المملوكة لشعب الكنيسة، وإذا نفذنا هذه السياسة بقدر ما يسعنا الجهد فسنشجع ونسهل الزواج بين شبابنا المسيحي، كما سنصعبه ونضيق فرصه بين شباب المسلمين، مما سيكون له أثر فعال في الوصول إلى الهدف، وليس بخافٍ أنَّ الغرض من هذه القرارات هو انخفاض معدل الزيادة بين المسلمين وارتفاع هذا المعدل بين شعبنا المسيحي.

• • •

ثانياً ــ اقتصاد شعب الكنيسة:

قال شنودة: إن المال يأتينا بقدر ما نطلب وأكثر مما نطلب، وذلك من مصادر ثلاثة: أمريكا، الحبشة، الفاتيكان، ولكن ينبغي أن يكون الاعتماد الأول في تخطيطنا الاقتصادي على مالنا الخاص الذي نجمعه من الداخل، وعلى التعاون على فعل الخير بين أفراد شعب الكنيسة، كذلك يجب الاهتمام أكثر بشراء الأرض، وتنفيذ نظام القروض والمساعدات لمن يقومون بذلك لمعاونتهم على البناء، وقد ثبت من واقع الإحصاءات الرسمية أن أكثر من ٦٠ ٪ من تجارة مصر الداخلية هي بأيدي المسيحيين، وعلينا أن نعمل على زيادة هذه النسبة.

وتخطيطنا الاقتصادي للمستقبل يستهدف إفقار المسلمين ونزع الثروة من أيديهم ما أمكن، بالقدر الذي يعمل به هذا التخطيط على إثراء شعبنا، كما يلزمنا مداومة تذكير شعبنا والتنبيه عليه تنبيهاً مشدداً من حين لآخر بأن يقاطع المسلمين اقتصادياً، وأن يمتنع عن التعامل المادي معهم امتناعاً مطلقاً، إلَّا في الحالات التي يتعذر فيها ذلك، ويعني ذلك مقاطعة: المحامين ــ المحاسبين ــ المدرسين ــ الأطباء ــ

الصيادلة ــ العيادات ــ المستشفيات الخاصة ــ المحلات التجارية الكبيرة والصغيرة ــ الجمعيات الاستهلاكية أيضاً!!، وذلك ما دام ممكناً لهم التعامل مع إخوانهم من شعب الكنيسة، كما يجب أن ينبهوا دوماً إلى مقاطعة صُنَّاع المسلمين وحرفييِّهم والاستعاضة عنهم بالصناع والحرفيين النصارى، ولو كلفهم ذلك الانتقال والجهد والمشقة.

ثم قال البابا شنودة: إن هذا الأمر بالغ الأهمية لتخطيطنا العام في المدى القريب والبعيد.

• • •

ثالثاً ــ تعليم شعب الكنيسة:

قال البابا شنودة: إنه يجب فيما يتعلق بالتعليم العام للشعب المسيحي الاستمرار في السياسة التعليمية المتبعة حالياً مع مضاعفة الجهد في ذلك، خاصة وأن بعض المساجد شَرَعت تقوم بمهام تعليمية كالتي نقوم بها في كنائسنا، الأمر الذي سيجعل مضاعفة الجهد المبذول حالياً أمراً حتمياً حتى تستمر النسبة التي يمكن الظفر بها من مقاعد الجامعة وخاصة الكليات العملية.. ثم قال: إني إذ أهنىء شعب الكنيسة خاصة المدرسين منهم على هذا الجهد وتلك النتائج، إذ وصلت نسبتنا في بعض الوظائف الهامة والخطيرة كالطب والصيدلة والهندسة وغيرها إلى أكثر من ٦٠٪!!! إني إذ أهنئهم أدعو لهم يسوع المسيح الرب المخلص أن يمنحهم بركاته وتوفيقه، حتى يواصلوا الجهد لزيادة هذه النسبة في المستقبل القريب.

• • •

رابعاً ــ التبشير:

قال البابا شنودة: كذلك فإنه يجب مضاعفة الجهود التبشيرية الحالية إذ إن الخطة التبشيرية التي وضعت بُنِيَت على أساس هدف اتُّفق عليه للمرحلة القادمة، وهو زحزحة أكبر عدد ممكن من المسلمين عن دينهم والتمسك به، على ألا يكون من الضروري اعتناقهم المسيحية، فإن الهدف هو زعزعة الدين في نفوسهم، وتشكيك الجموع الغفيرة منهم في كتابهم وصدق محمد، ومن ثم يجب عمل كل الطرق واستغلال كل الإمكانيات الكنسية للتشكيك في القرآن وإثبات بطلانه وتكذيب محمد.

وإذا أفلحنا في تنفيذ هذا المخطط التبشيري في المرحلة المقبلة فإننا نكون قد نجحنا في إزاحة هذه الفئات من طريقنا، وإن لم تكن هذه الفئات مستقبلاً معنا فلن تكون علينا.

غير أنه ينبغي أن يراعى في تنفيذ هذا المخطط التبشيري أن يتم بطريقة هادئة لبقة وذكية، حتى لا يكون ذلك سبباً في إثارة حفيظة المسلمين أو يقظتهم.

وإن الخطأ الذي وقع منا في المحاولات التبشيرية الأخيرة ـ التي نجح مبشرونا فيها في هداية عدد من المسلمين إلى الإيمان والخلاص على يد الرب يسوع المخلص ـ هو تسرب أنباء هذا النجاح إلى المسلمين، لأن ذلك من شأنه تنبيه المسلمين وإيقاظهم من غفلتهم، وهذا أمر ثابت في تاريخهم الطويل معنا، وليس هو بالأمر الهين، ومن شأن هذه اليقظة أن تفسد علينا مخططاتنا المدروسة، وتؤخر ثمارها وتضيع جهودنا، ولذا فقد أصدرت التعليمات الخاصة بهذا الأمر، وسننشرها في كل الكنائس لكي يتصرف جميع شعبنا مع المسلمين بطريقة ودية تمتص غضبهم وتقنعهم بكذب هذه الأنباء، كما سبق التنبيه على رعاة الكنائس والآباء والقساوسة بمشاركة المسلمين احتفالاتهم الدينية، وتهنئتهم بأعيادهم، وإظهار المودة والمحبة لهم.

وعلى شعب الكنيسة في المصالح والوزارات والمؤسسات إظهار هذه الروح لمن يخالطونهم من المسلمين.. ثم قال بالحرف الواحد:

إننا يجب أن ننتهز ما هم فيه من نكسة ومحنة لأن ذلك في صالحنا، ولن نستطيع إحراز أية مكاسب أو أي تقدم نحو هدفنا إذا انتهت المشكلة مع إسرائيل سواء بالسلم أو بالحرب، ثم هاجم من أسماهم بضعاف القلوب الذين يقدمون مصالحهم الخاصة على مجد شعب الرب والكنيسة، وعلى تحقيق الهدف الذي يعمل له الشعب منذ عهد بعيد، وقال إنه لم يلتفت إلى هلعهم، وأصر على أنه سيتقدم إلى الحكومة رسمياً بالمطالب الواردة بعد، حيث إنه إذا لم يكسب شعب الكنيسة في هذه المرحلة مكاسب على المستوى الرسمي فربما لا يستطيع إحراز أي تقدم بعد ذلك.

ثم قال بالحرف الواحد: وليعلم الجميع خاصة ضعاف القلوب أن القوى الكبرى في العالم تقف وراءنا ولسنا نعمل وحدنا، ولا بد من أن نحقق الهدف، لكن

العامل الأول والخطير في الوصول إلى ما نريد هو وحدة شعب الكنيسة وتماسكه وترابطه.. ولكن إذا تبددت هذه الوحدة وذلك التماسك فلن تكون هناك قوة ما على وجه الأرض مهما عظم شأنها تستطيع مساعدتنا.

ثم قال: ولن أنسى موقف هؤلاء الذين يريدون تفتيت وحدة شعب الكنيسة، وعليهم أن يبادروا فوراً بالتوبة وطلب الغفران والصفح، وألا يعودوا لمخالفتنا ومناقشة تشريعاتنا وأوامرنا، والرب يغفر لهم (وهو يشير بذلك إلى خلاف وقع بين بعض المسؤولين منهم، إذ كان البعض يرى التريث وتأجيل تقديم المطالب المزعومة إلى الحكومة).

● ● ●

ثم عدد البابا شنودة المطالب التي صرَّح بأنه سوف يقدمها رسمياً إلى الحكومة:

١ ــ أن يصبح مركز البابا الرسمي في البروتوكول السياسي بعد رئيس الجمهورية وقبل رئيس الوزراء.

٢ ــ أن تخصص لهم ٨ وزارات (أي يكون وزراؤها نصارى).

٣ ــ أن تخصص لهم ربع القيادات العليا في الجيش والبوليس.

٤ ــ أن تخصص لهم ربع المراكز القيادية المدنية، كرؤساء مجالس المؤسسات والشركات والمحافظين ووكلاء الوزارات والمديرين العامين ورؤساء مجالس المدن.

٥ ــ أن يستشار البابا عند شغل هذه النسبة في الوزارات والمراكز العسكرية والمدنية، ويكون له حق ترشيح بعض العناصر والتعديل فيها.

٦ ــ أن يسمح لهم بإنشاء جامعة خاصة بهم، وقد وضعت الكنيسة بالفعل تخطيط هذه الجامعة، وهي تضم: المعاهد اللاهوتية الكليات العملية والنظرية، وتمول من مالهم الخاص.

٧ ــ يسمح لهم بإقامة إذاعة خاصة من مالهم الخاص.

ثم ختم حديثه بأن بشَّر الحاضرين، وطلب إليهم نقل هذه البشرى لشعب الكنيسة بأن أملهم الأكبر في عودة البلاد والأراضي إلى أصحابها من «الغزاة

المسلمين» قد بات وشيكاً، وليس في ذلك أدنى غرابة ــ في زعمه ــ وضرب لهم مثلاً بأسبانيا النصرانية التي ظلت بأيدي «المستعمرين المسلمين» قرابة ثمانية قرون (٨٠٠ سنة)، ثم استردها أصحابها النصارى، ثم قال: وفي التاريخ المعاصر عادت أكثر من بلد إلى أهلها بعد أن طردوا منها منذ قرون طويلة جداً (واضح أن شنودة يقصد إسرائيل)، وفي ختام الاجتماع أنهى حديثه ببعض الأدعية الدينية للمسيح الرب الذي يحميهم ويبارك خطواتهم.

الحقائق تتكلم

بين يدي هذا التقرير المثير لا بد من كلمة: إن الوحدة الوطنية الرائعة بين مسلمي مصر وأقباطها يجب أن تبقى وأن تصان، وهي مفخرة تاريخية، ودليل جيد على ما تسديه السماحة من بر وقسط.

ونحن ندرك أن الصليبية تغص بهذا المظهر الطيب، وتريد القضاء عليه، وليس بمستغرب أن تفلح في إفساد بعض النفوس وفي رفعها إلى تعكير الصفو. .

وعلينا ــ والحالة هذه ــ أن نرأب كل صدع، ونطفىء كل فتنة، لكن ليس على حساب الجمهور الطيب من المواطنين الأقباط.

وقد كنت أريد أن أتجاهل ما يصنع البابا «شنودة» الرئيس الديني للأقباط، غير أني وجدت عدداً من توجيهاته قد أخذ طريقه إلى الحياة العملية.

- فقد قاطع الأقباط مكاتب تنظيم الأسرة تقريباً.
- ونفذوا بحزم خطة تكثير عددهم في الوقت الذي تنفذ فيه بقوة وحماسة سياسة تقليل المسلمين. .

وأعتقد أن الأقباط الآن يناهزون ثلاثة ملايين، أي إنهم زادوا في الفترة الأخيرة بنسبة ما بين ٤٠ ٪، ٥٠ ٪!!

- ثم إن الأديرة تحولت إلى مراكز تخطيط وتدريب، خصوصاً أديرة وادي النطرون التي يذهب إليها بابا الأقباط ولفيف من أعوانه المقربين، والتي يستقدم إليها الشباب القبطي من أقاصي البلاد لقضاء فترات معينة وتلقي توجيهات مريبة.

● وفي سبيل إضفاء الطابع النصراني على التراب المصري، استغل البابا «شنودة» ورطة البلاد في نزاعها مع اليهود والاستعمار العالمي لبناء كنائس كثيرة لا يحتاج العابدون إليها ــ لوجود ما يغني عنها ــ فماذا حدث؟

لقد صدر خلال أغسطس وسبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٧٣م خمسون مرسوماً جمهورياً بإنشاء ٥٠ كنيسة، يعلم الله أن أغلبها بُنِيَ للمباهاة، وإظهار السطوة، وإثبات الهيمنة في مصر.

وقد تكون الدولة محرجة عندما أذنت بهذا العدد الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ مصر.

لكننا نعرف المسؤولين أن البابا «شنودة» لن يرضى لأنه في خطابه كشف عن نيته، وهي نية تسيء إلى الأقباط والمسلمين جميعاً. . .

وقد نفى رئيس لجنة «تقصي الحقائق» أن يكون هذا الخطاب صادراً عن رئيس الأقباط.

ولما كان رئيس اللجنة ذا ميول «شيوعية» وتهجمه على الشرع الإسلامي معروف، فإن هذا النفي لا وزن له، ثم إنه ليس المتحدث الرسمي باسم الكنيسة المصرية. .

ومبلغ علمي أن الخطاب مسجل بصوت البابا نفسه ومحفوظ، ويوجد الآن من يحاول تنفيذه كله.

● ● ●

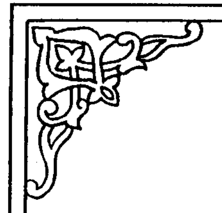
نحن نريد الحفاظ على وحدة مصر الوطنية

ونحن نناشد الأقباط العقلاء أن يتريثوا، وأن يأخذوا على أيدي سفهائهم، وأن يبقوا بلادنا عامرة بالتسامح والوئام كما كان ذلك ديدنها من قرون طوال. . .

وإذا كانت قاعدة «لنا ما لكم وعلينا ما عليكم» لا تقنع، فكثِّروا بعض ما لكم وقللوا بعض ما عليكم شيئاً ما، شيئاً معقولاً، شيئاً يسهل التجاوز عنه والتماس المعاذير له!!

أما أن يحلم البعض بإزالتنا من بلدنا، ويضع لذلك خطة طويلة المدى فذلك ما لا يطاق، وما نرجو عقلاء الأقباط أن يكفونا مؤونته، ونحن على أتم استعداد لأن ننسى . . وننسى .

* * *




الفصل الرابع

ـ الإسلام وجماعة الإخوان.

ـ تقرير يفضح النيات المبيتة للإسلام.

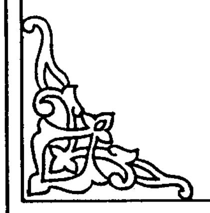
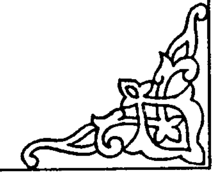
ـ صور من الهجوم على الإسلام ذاته ـ تحقير الماضي ـ تزوير التاريخ.

ـ القومية العربية ومعناها.

ـ فتح المجال على مصراعيه لضرب الإسلام.

ـ العدالة العربية.

ـ صفحات من مذكرات معتقل.



الفَصْلُ الرَّابِعُ

الإسلام وجماعة الإخوان

انتسبتُ لجماعة الإخوان في العشرين من عمري، ومكثت فيها قرابة سبع عشرة سنة، كنت خلالها عضواً في هيئتها التأسيسية، ثم عضواً في مكتب الإرشاد العام. .

وشاء الله أن يقع نزاعٌ حادٌ بيني وبين قيادة الجماعة انتهى بصدور قرار يقضي بفصلي وفصل عددٍ آخر من الأعضاء.

وبعد عدة شهور من ذلك الحدث صدر قرار حكومي بحل الجماعة كلها والإجهاز على جميع أنشطتها.

وأريد أن أكون منصفاً، فإنَّ الزعم بأنَّ جميع الإخوان أشرار سخف وافتراء، والزعم بأن الجماعة كلها كانت معصومة من الخطأ غرور وادعاء. .

وليس ذلك ما يعنيني هنا، إنما الذي يعنيني أمر آخر هو الأهم والأخطر، عند الله وعند الناس، أمر الإسلام نفسه.

قال لي أحد الناس: ليذهب الإخوان إلى الجحيم!

قلت له: اسمع، مصاير الناس بيد الله وحده، وليذهب من شاء إلى الجحيم. . لكن هل يذهب الإسلام إلى الجحيم؟

قال: لا. قلت: دعني من العناوين ولنتحدث في الموضوع. هل نترك كتاب ربنا وسنَّة نبينا أم نتشبَّث بهما ونحرص عليهما؟ فأجاب بعد تريث: لا نترك ديننا!

قلت: هل ننفذ من ديننا ما نحب ونهمل ما نكره، أم نطيع الله في كل ما أمر به ونهى عنه؟ إنَّ هناك نصوصاً في الكتاب والسنَّة معطلة محكوماً عليها بالموت، ونصوصاً أخرى تنفذ جزئياً ولا يؤذن بتطبيقها على وجه كامل فهل تبقى هذه الأوضاع أم ينبغي إصلاحها؟

قال: لكن هذا ما يقوله الإخوان المسلمون!!

قلت له: دعني من جماعة الإخوان، فقد نفضت يدي من العناوين، أنا أتحدث عن الإسلام نفسه، وعن المنحدر الذي وقع فيه، وعن الأمة الكسيرة التي تنتمي إليه، ألم نتفق على ضرورة التسمك بكتاب ربنا وسنّة نبينا؟

قال: بلى!! قلت: وذاك ما نريد أن نتعاون على بلوغه، ونرسم الخطة المثلى لتحقيقه!

ولعلك ترى معي بعد ذلك أن الانتساب للإسلام ليس جريمة، وأن الجريمة هي تشويه نهجه وإنكار هديه وترك أعدائه أحراراً في النيل منه..

قال: أشعر أنك تجرني بدهاء إلى جماعة الإخوان!!

قلت له: يا أخي تخلَّ عن هذه العقدة التي تحكمك.. إنني أريد أن أعمل للإسلام الذي رفع علمه خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وخلفه على مواريثه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.. هذا المصحف المهجور في دواوين السلطة، وفي أرجاء المجتمع نريد أن نؤنس وحشته ونرفع شعاره.

دعني من أي تجمع حدث في هذا العصر، ولننس الأشخاص الذين اشتهروا، ولنطو صحائفهم بما فيها من خطأ وصواب ولنعمل للإسلام وحده..

فسكت متردداً حائراً.

قلت له: اسمع، إنَّ هناك قوماً يكرهون الإسلام ذاته ويخدمون بكراهيته القوى الثلاث التي تجمعت ضده اليوم:

الشيوعية، الصهيونية، الصليبية، وهؤلاء يريدون أن يجعلوا من كلمة «الإخوان» سيفاً مصلتاً على عنق كل مخلص له عامل في حقله، وأنا أرفض هذا الخلط..

إن إرهاب المجاهدين في سبيل الله بوصفهم إخواناً، ووضع العوائق أمام النهضة الإسلامية بزعم أنَّ ذلك منع لعودة الجماعة المنحلَّة، إن هذا وذاك خيانة عظمى وارتداد عن الملة..

لقد أصبح التجمع على الإسلام ضرورة حياة في وجه اليهود الذين احتلوا أجزاءً حسَّاسة من أرضنا، ويوشك أن تكون لهم وثبة أخرى، ربما كانت عواصمنا

وبقية مقدَّساتنا، فاصطياد الريب لهذا التجمع لا أستطيع وصفه إلَّا بأنه عمل لمصلحة بني إسرائيل . .

إن الخطة التي وضعت لمحاربة جماعة الإخوان لا يسوغ أن تستغل لمحاربة الله ورسوله.

ويسوءني أنَّ الذين رسموا هذه الخطة يحاولون أن يقضوا بها على الدين نفسه، والفرق واضح بين دين له قداسته، ونفر من الناس لهم خطؤهم وصوابهم.

* * *

تقرير يفضح النيات المبيّتة للإسلام

اقرأ معي هذا التقرير:

تقرير اللجنة المؤلفة برياسة السيد «زكريا محيي الدين» رئيس الوزراء في حينه بشأن القضاء على تفكير الإخوان بناء على أوامر السيد الرئيس بتشكيل لجنة عليا لدراسة واستعراض الوسائل التي استعملت والنتائج التي تم التوصل إليها بخصوص مكافحة جماعة الإخوان المسلمين المنحلة، ولوضع برنامج لأفضل الطرق التي يجب استعمالها في مكافحة الإخوان بالمخابرات، والمباحث العامة، لبلوغ هدفين:

(أ) غسل مخ الإخوان من أفكارهم.

(ب) منع عدوى أفكارهم من الانتقال إلى غيرهم.

اجتمعت اللجنة المشكلة من:

١ ـ سيادة رئيس مجلس الوزراء

٢ ـ السيد / قائد المخابرات العامة

٣ ـ السيد / قائد المباحث الجنائية العسكرية

٤ ـ السيد / مدير المباحث العامة

٥ ـ السيد / مدير مكتب السيد المشير عبد الحكيم عامر

وذلك في مبنى المخابرات العامة بكوبري القبة، وعقدت عشرة اجتماعات متتالية وبعد دراسة كل التقارير والبيانات والإحصائيات السابقة، أمكن تلخيص المعلومات المجتمعة في الآتي:

١ ـ تبين أنَّ تدريس التاريخ الإسلامي في المدارس للنشء بحالته القديمة يربط السياسة بالدين في لا شعور كثير من التلاميذ منذ الصغر ويتتابع ظهور معتنقي الأفكار الإخوانية.

٢ ـ صعوبة واستحالة التمييز بين أصحاب الميول والنزعات الدينية، وبين معتنقي الأفكار الإخوانية، وسهولة وفجائية تحول الفئة الأولى إلى الفئة الثانية بتطرف أكبر.

٣ ـ غالبية أفراد الإخوان عاش على وهم الطهارة، ولم يمارس الحياة الجماعية الحديثة، ويمكن اعتبارهم من هذه الناحية «خام».

٤ ـ غالبيتهم ذوو طاقة فكرية وقدرة تحمُّل ومثابرة كبيرة على العمل وقد أدى ذلك إلى اطراد دائم وملموس في تفوقهم في المجالات العلمية والعملية التي يعيشون فيها وفي مستواهم الفكري والعلمي والاجتماعي بالنسبة لأندادهم رغم أنَّ جزءاً غير بسيط من وقتهم موجه لنشاطهم الخاص بدعوتهم المشؤومة.

٥ ـ هناك انعكاسات إيجابية سريعة تظهر عند تحرك كل منهم للعمل في المحيط الذي يقتنع.

٦ ـ تداخلهم في بعض، ودوام اتصالهم الفردي ببعض وتزاورهم، والتعارف بين بعضهم البعض يؤدي إلى ثقة كل منهم في الآخر ثقة كبيرة.

٧ ـ هناك توافق روحي، وتقارب فكري وسلوكي يجمع بينهم في كل مكان حتى ولو لم تكن هناك صلة بينهم.

٨ ـ رغم كل المحاولات التي بذلت منذ عام ١٩٣٦م لإفهام العامة والخاصة بأنهم يتسترون وراء الدين لبلوغ أهداف سياسية إلَّا أن احتكاكهم الفردي بالشعب يؤدي إلى محو هذه الفكرة عنهم، رغم أنها بقيت بالنسبة لبعض زعمائهم.

٩ ـ تزعمهم حرب العصابات سنة ١٩٤٨م، والقتال سنة ١٩٥١م رسَّب في أفكار بعض الناس صورهم كأصحاب بطولات وطنية عملية، وليست دعائية فقط، بالإضافة إلى أن الأطماع الإسرائيلية والاستعمارية والشيوعية في المنطقة لا تخفي أغراضها في القضاء عليهم.

١٠ ــ نفورهم من كل من يعادي فكرتهم جعلهم لا يرتبطون بأي سياسة خارجية سواء كانت عربية أو شيوعية أو استعمارية، وهذا يوحي لمن ينظر في ماضيهم أنهم ليسوا عملاء.

وبناء على ذلك رأت اللجنة أن الأسلوب الجديد في المكافحة يجب أن يشمل أساساً بندين متداخلين وهما:

(أ) محو فكرة ارتباط الدين الإسلامي بالسياسة.

(ب) إبادة تدريجية مادية ومعنوية وفكرية للجيل القائم فعلاً من معتنقي الفكرة.

ويمكن تلخيص أسس الأسلوب الواجب استخدامه لبلوغ هذين الهدفين في الآتي:

أولاً ــ سياسة وقائية عامة:

١ ــ تغيير مناهج تدريس التاريخ الإسلامي والدين في المدارس وربطها بالمعتقدات الاشتراكية كأوضاع اجتماعية واقتصادية وليست سياسية، مع إبراز مفاسد الخلافة خاصة زمن العثمانيين وأنَّ تقدم الغرب السريع إنما كان عقب هزيمة الكنيسة وإقصائها عن السياسة.

٢ ــ التحري الدقيق عن رسائل وكتب ونشرات ومقالات الإخوان المسلمين في كل مكان ثم مصادرتها وإعدامها.

٣ ــ يحرم بتاتاً قبول ذوي الإخوان وأقربائهم حتى الدرجة الثالثة في القرابة من الانخراط في السلك العسكري أو البوليس أو السياسة مع سرعة عزلة الموجودين من هؤلاء الأقرباء من هذه الأماكن أو نقلهم إلى الأماكن الأخرى في حالة ثبوت ولائهم.

٤ ــ مضاعفة الجهود المبذولة في سياسة العمل الدائم على إفقاد الثقة بينهم وتحطيم وحدتهم بشتى الوسائل وخاصة عن طريق إكراه البعض على كتابة تقارير عن زملائهم بخطهم ثم مواجهة الآخر بما معها مع العمل على منع كل من الطرفين من لقاء الآخر أطول فترة ممكنة لتزيد هوة انعدام الثقة بينهم.

٥ ــ بعد دراسة عميقة لموضوع المتدينين من غير الإخوان، وهم الذين يمثلون

«الاحتياطي» لهم وجد أن هناك حتمية طبيعية عملية لالتقاء الصنفين في المدى الطويل، ووجد أنه من الأفضل أن يبدأ بتوحيد معاملتهم بمعاملة الإخوان قبل أن يفاجئونا كالعادة باتحادهم معهم علينا.

ومع افتراض احتمال كبير لوجود أبرياء منهم إلَّا أن التضحية بهم خير من التضحية بالثورة في يوم ما على أيديهم.

ولصعوبة واستحالة التمييز بين الإخوان والمتدينين بوجه عام فلا بد من وضع الجميع ضمن فئة واحدة ومراعاة ما يلي:

(أ) تضييق فرص الظهور والعمل أمام المتدينين عموماً في المجالات العلمية والعملية.

(ب) محاسبتهم بشدة وباستمرار على أي لقاء فردي أو زيارات أو اجتماعات تحدث بينهم.

(ج) عزل المتدينين عموماً عن أي تنظيم أو اتحاد شعبي أو حكومي أو اجتماعي أو طلابي أو عمالي أو إعلامي.

(د) التوقف عن السياسة السابقة في السماح لأي متدين بالسفر للخارج للدراسة أو العمل حيث فشلت هذه السياسة في تطوير معتقداتهم وسلوكهم، وعدد بسيط جداً منهم هو الذي تجاوب مع الحياة الأوروبية في البلاد التي سافروا إليها. أما غالبيتهم فإنَّ من هبط منهم في مكان بدأ ينظم فيه الاتصالات والصلوات الجماعية أو المحاضرات لنشر أفكاره.

(هـ) التوقف عن سياسة استعمال المتدينين في حرب الشيوعيين، واستعمال الشيوعيين في حربهم بغرض القضاء على الفئتين، حيث ثبت تفوق المتدينين في هذا المجال، ولذلك يجب أن نعطي الفرص للشيوعيين لحربهم وحرب أفكارهم ومعتقداتهم، مع حرمان المتدينين من الأماكن الإعلامية.

(و) تشويش الفكرة الشائعة عن الإخوان في حرب فلسطين والقنال وتكرار النشر بالتلميح والتصريح عن اتصال الإنجليز بالهضيبي، وقيادة الإخوان، حتى يمكن غرس فكرة أنهم عملاء للاستعمار في أذهان الجميع.

(ز) الاستمرار في سياسة محاولة الإيقاع بين الإخوان المقيمين في الخارج وبين الحكومات العربية المختلفة، وخاصة في الدول الرجعية الإسلامية المرتبطة بالغرب، وذلك بأن يروَّج عنهم في تلك الدول أنهم عناصر مخرِّبة ومعادية لهم وأنهم يضرون بمصلحتها، وبهذا تسهل محاصرتهم في الخارج أيضاً.

ثانياً ــ سياسة استئصال السرطان الموجود الآن:

وبالنسبة للإخوان الذين اعتقلوا أو سجنوا في أي عهد من العهود يعتبرون جميعاً قد تمكنت منهم الفكرة كما يتمكن السرطان في الجسم ولا يرجى شفاؤه، ولذا تجري عملية استئصالهم كالآتي:

المرحلة الأولى: إدخالهم في سلسلة متصلة من المتاعب تبدأ بالاستيلاء أو وضع الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم، ويتبع ذلك اعتقالهم، وأثناء الاعتقال تستعمل معهم أشد أنواع الإهانة والعنف والتعذيب على مستوى فردي ودوري حتى يصيب الدور الجميع ثم يعاد وهكذا.

وفي نفس الوقت لا يتوقف التكدير على المستوى الجماعي، بل يكون ملازماً للتأديب الفردي.

وهذه المرحلة إذا نفذت بدقة ستؤدي إلى:

ــ **بالنسبة للمعتقلين**: اهتزاز الأفكار في عقولهم وانتشار الاضطرابات العصبية والنفسية والعاهات والأمراض بينهم.

ــ **بالنسبة لنسائهم**: سواء كن زوجات أو أخوات أو بنات فسوف يتحررن ويتمردن لغياب عائلهن، وحاجتهن المادية قد تؤدي لانزلاقهن.

بالنسبة للأولاد: تضطر العائلات لغياب العائل ولحاجتها المادية إلى توقيف الأبناء عن الدراسة وتوجيههم للحرف والمهن، وبذلك يخلو جيل الموجهين المتعلم القادم ممن في نفوسهم أي حقد أو أثر من آثار أفكار آبائهم.

المرحلة الثانية: إعدام كل من يُنظر إليه بينهم كداعية. ومن تظهر عليه الصلابة سواء داخل السجون أو المعتقلات أو بالمحاكمات، ثم الإفراج عن الآخرين بحيث يكون الإفراج عنهم على دفعات، مع عمل الدعاية اللازمة لكي تنتشر أنباء العفو عنهم،

ليكـون ذلك سـلاحاً يمكن استعمـاله ضـدهم من جديـد في حالـة الـرغبـة في إعـادة اعتقالهم.

وإذا أُحسن تنفيذ هذه المرحلة مـع المرحلة السابقة فستكون النتائـج كما يلي:

١ ـ يخرج المعفو عنه إلى الحياة، فإن كان طالباً فقد تأخَّر عن أقرانـه، ويمكن أن يفصل من دراسته ويحرم من متابعة تعليمه.

٢ ـ إن كان موظفاً أو عاملاً فقد تقدم زملاؤه وترقوا وهو قابـع مكانه.

٣ ـ إن كان تاجراً فقد أفلست تجارته، ويمكن أن يحرم من مزاولة تجارته.

٤ ـ إن كان مزارعاً فلن يجد أرضاً يزرعها حيث وقعت تحت الحراسـة أو صدر قرار استيلاء عليها.

وسوف تشترك الفئات المعفو عنها جميعاً في الآتي:

١ ـ الضعف الجسمـاني والصحي، والسعي المستمر خلف العـلاج، والشعور المستمر بالضعف المانـع من أية مقاومة.

٢ ـ الشعور العميق بالنكبات التي جرَّتها عليهم دعوة الإخوان، وكراهية الفكرة والنقمة عليها.

٣ ـ انعـدام ثقة كـل منهم في الآخر، وهي نقـطة لها أهميتهـا في انعزالهم عن المجتمـع وانطوائهم على أنفسهم.

٤ ـ خروجهم بعائلاتهم من مستوى اجتماعي أعلى إلى مستوى اجتماعي أدنى نتيجة لعوامل الإفقار التي أحاطت بهم.

٥ ـ تمرد نسائهم وثورتهن على تقاليدهم، وفي هذا إذلال فكري ومعنوي لكون النسـاء في بيـوتهن يخـالف سلوكهن أفكـارهم، ونـظراً للضعف الجسمـاني والمـادي لا يمكنهم الاعتراض.

٦ ـ كثرة الديون عليهم نتيجة لتوقف إيراداتهم واستمرار مصروفات عائلاتهم.

• • •

النتائـج الإيجابية لهذه السياسة هي:

١ ـ الضباط والجنود الذين يقومون بتنفيذ هذه السياسة سواء من الجيش أو البوليس سيعتبرون فئة جديدة ارتبط مصيرها بمصير هذا الحكم القائم حيث يستشعرون عقب التنفيذ أنهم (أي الضباط والجنود) في حاجة إلى نظام الحكم القائم ليحميه من أي عمل انتقامي قد يقوم به الإخوان للثأر.

٢ ـ إثارة الرعب في نفس كل من تسوِّلُ له نفسه القيام بمعارضة فكرية للحكم القائم.

٣ ـ وجود الشعور الدائم بأن المخابرات تشعر بكل صغيرة وكبيرة وأن المعارضين لن يستتروا وسيكون مصيرهم أسوأ مصير.

٤ ـ محو فكرة ارتباط السياسة بالدين الإسلامي.

انتهى، ويعرض على السيد الرئيس جمال عبد الناصر.

إمضاء

السيد / رئيس مجلس الوزراء

السيد / قائد المخابرات

السيد / قائد المباحث الجنائية العسكرية

السيد / مدير المباحث العامة

السيد / شمس بدران

وافق على اقتراحات اللجنة.

جمال عبد الناصر

هذا تقرير رديء، وقع في الخلط الذي حذرنا منه، ونلاحظ عليه ثلاثة أمور:

أن الخصومة بلغت حد اللدد والعنت، وسنؤخر الحديث في حقيقة ما وقع إلى آخر هذا الفصل.

إن عاطفة التدين أمست موضع اتهام، وأنَّ المتدينين جملة لا يرتاح إليهم.

إنَّ باب المسخ والتحريف الإسلامي نفسه انفتح على مصراعيه والمتأمل في أسماء واضعي التقرير يرى أن أغلبهم يساري النزعة، وهم في السجون الآن لمحاولات آثمة ارتكبوها ضد حركة التصحيح التي قادها الرئيس أنور السادات. .

لقد اتجه الهدم إذن إلى أعمدة الفكر الإسلامي نفسه، وانفسح المجال أمام كل أفَّاكٍ ليقولَ ما عنده وهو آمن، على حين احتبست أصوات المؤمنين في حلوقهم.

ولم يتحرك في ميدان الدين كله إلَّا واحد من رجلين: إما مسلم منحرف يضر الإسلام ولا ينفعه، أو نصراني ذكي اهتبل الفرصة فامتد إلى ما قصرت عنه آمال أسلافه من ألف عام...

وظهر المسلمون وكأنهم في أعقاب غارة تاتارية أكلت الأخضر واليابس.

* * *

صور من الهجوم على الإسلام ذاته: تحقير الماضي، تزوير التاريخ

ولنشرح في إيضاح الأمور التي لاحظناها على التقرير الآنف بادئين بآخرها الذي يمس التاريخ الإسلامي.

ظهرت حركة تحقير «للماضي» وصرف للشباب عنه وعن القيم التي يحتويها.

ترجم الدكتور زكي نجيب محمود عن ذلك في مقال نشرته جريدة «الأهرام» جاء فيه: أن بناء الإنسان العربي في العصر الحديث لا يجوز أن يعتمد على ما كان، أي على ما قال فلان وروى علّان..!!

مَن المقصود بهذا الكلام المرسَل؟

مَن الذين يعتمدون على القول والرواية في مجتمعنا؟

إنَّ الرجل يطلب في إجمال ترك القرآن والسنَّة، وإذا لم يصرِّح بذلك فلأنه حدَّد هدفه وصَرَّح به في مقال آخر عندما أوصى بقراءة كتاب «رأس المال» لكارل ماركس.

ونحن المسلمين تعلمنا في كتابنا احترام «الحقيقة» بغض النظر عن زمان ماض أو قادم، فلا الحقيقة يشينها أنها من نتاج الأوائل، ولا الخرافة يزكيها أنها من إنتاج المعاصرين...

ومن بيع الماء للسقائين ــ كما يقول العامة ــ أن ينصح الإسلام والمسلمين بعدم التعويل على الماضي عند وزن الحقائق، كيف والقرآن الكريم يعيب المقلدين الجامدين فيقول:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾. [المائدة: ١٠٤].

ولكن الماضي يعاب يوم يكون أمجاد الإسلام وهداياته، ويترك ليؤثر في الكيان الدولي يوم يكون إقامة لإسرائيل وإحياء لترهات العهد القديم!!

أما الدكتور «فؤاد زكريا» فيربط بين تقديس الماضي والنظام الإقطاعي فيقول: «إنَّ زمام السيطرة في هذا المجتمع يقع في قبضة أناس يتجهون بحكم وضعهم الاجتماعي إلى تكريم الأسلاف والإشادة بماضيهم، فالمالك الإقطاعي الكبير يدين بثروته ونفوذه في معظم الأحيان للوراثة..

وهكذا فإن أمجاده كلها مرتبطة بالماضي. ولما كان الأعيان الإقطاعيون هم المسيطرين في هذا المجتمع فإنَّ طرق تفكيرهم وقيمهم الأخلاقية هي التي تنتشر وتطبع صورتها على المجتمع ككل.

ومن هنا تتعلق الأذهان في مثل هذا المجتمع بالماضي، وتنظر إلى المستقبل بعين الارتياب، بل إنها لا ترضى عن الحاضر ذاته إلَّا بقدر ما يكون انعكاساً للماضي...».

إنني تحيرت في بواعث هذا الكلام، هل الشكوى من التعلق بالماضي تعود إلى تشبث الملّاك الكبار والصغار بوسائل عقيمة في الإنتاج؟

واقع بلادنا ينطق بغير هذا.

إذن ما القصد من مهاجمة الماضي ورفض امتداده في الحاضر؟

ومضيت في قراءة كتاب «الجوانب الفكرية للنظم الاجتماعية» الذي ألَّفه الدكتور «فؤاد زكريا» فإذا هو يتحدث عن تأثير المصالح الإقطاعية في التصورات الدينية فيقول إنها «أسهمت بدورها في تشكيل عقول الأفراد بصورة مميزة: تلك هي إدخال نوع من التفاوت أو التسلسل في المراتب في المجال الروحي ذاته. فهناك مجتمعات تتصور الألوهية عالية مترفعة عن عالم البشر، وتقيم نوعاً من تدرج المراتب بين هذه الألوهية وعامة الناس، فبعد الله يأتي الأنبياء والقدّيسون، ثم كبار الكهنة ورجال الدين، ويتدرج الترتيب بعد ذلك حتى يصل آخر الأمر إلى الإنسان العادي. ولا بد في

الارتقاء إلى كل مرحلة من هذه المراحل من المرور بالمراحل السابقة، أي أنَّ الإنسان العادي لا يستطيع مثلاً أن يتقرَّب إلى الله أو يحظى بالشفاعة من أحد القدّيسين إلَّا عن طريق الكاهن الذي يتوسَّط بينه وبينهم.

والدليل على أن هذه النظرة إلى الدين انعكاس لنظام اجتماعي يتَّسم بالتدرج وتفاوت المراتب أنَّ هناك نظرات أخرى إلى الدين تختفي فيها الحواجز، ويشيع فيها التقارب بين الله والإنسان إذ يعد الله قريباً من البشر مستجيباً ومعيناً لهم.. بل إنَّ بعض المذاهب الدينية تؤكد حلول الله في العالم، وإمكان اتحاد الإنسان به إذا هو ارتقى إلى مستوى معين من الروحانية!! هذه الفكرة الأخيرة ترتبط بنظرة أكثر ديمقراطية إلى المجتمع البشري لأنها لا ترتكز على تأكيد الفوارق في المرتبة بين الموجودات.

وبالفعل سادت هذه النظرة في العصور التي كانت أقرب إلى الروح الديمقراطية على حين أن فكرة تسلسل المراتب من الأعلى إلى الأدنى كانت مقترنة بالفوارق التي هي أولىٰ خصائص المجتمع الإقطاعي.

أي أن الدين قد يكون إنتاجاً إقطاعياً أو إنتاجاً ديمقراطياً!! فحيث توجد فوارق بين الله والناس فالدين اختراع الإقطاعيين، أما حيث تقل الفوارق ويمكن أن يتحد الإنسان مع الله فالدين اختراع الديمقراطيين!!

هذه هي فكرة أستاذ فلسفة عن الدين يقدمها لطلابه في كلية آداب عين شمس.

فما تكون إذن تصورات الأطفال والبُلْه عن حقائق الأديان؟؟

ظاهر أن الدكتور شيوعي، وأن حديثه الغامض عن الماضي وتقديس الأسلاف إنما هو لصرف الطلاب المسلمين عن النهر الذي يستقون منه، لأن منابعه هناك في الماضي القديم.

هل الأمانة العلمية تقتضي تدريس الباطل وحده؟ أم يدرس الحق والباطل معاً ويترك للطلاب حرية الموازنة والاختيار.

لكن أساتذة الفلسفة الذين ذكرناهم هنا لم يجشموا أنفسهم عبء الاطلاع على الفكر الإسلامي في مظانه المعروفة وانطلقوا في طريقهم يدمرون مستقبل أمة وهم آمنون.

بـل لعلهم كانـوا يفعلون ذلك وهم ينفـذون خطة مـرسومـة، ويرقبـون من ورائها الرضا والانتفاع.

وشعبة أخرى حَاذَت هذه الشعبـة الفلسفية في نبـذ الماضي. عـلامَ تقوم؟ تقـوم على تزوير التاريـخ الإسلامي والسيرة النبويـة أجمـع ابتداءً من دولـة الخلافـة إلى يوم الناس هذا...

وهدف هذه الشعبة الفكرية إبراز «محمد» إنساناً عادياً، أو قائدَ انقلاب اقتصـادي يساري على نحو ما صنـع أو حاول أن يصنـع «جيفارا».

وقد كتب السيد عبد الرحمن الشرقاوي ــ وهو شيوعي معروف ــ سيرةً على هذا النسق حَشَاها بالدس والتدليس العلمي وتوجيه الأحداث بعنف في غير مسارها.

وأصدرت مجلة الأزهر عدداً يحتوي جملة مقـالات فضحت هذه السيـرة السيئة، وحذَّرت منها دون جدوى.

وقد تُعرض السيرة الشريفة من خلال نظرات استشراقية واتهامات تبشيرية من غير كشف لتهافت هذه النظرات والاتهامات.

ولا بأس أن يعرض الفتح الإسلامي، وكأنَّ العرب أسراب جراد منطلق في الأودية اليـانعة ليـأتي على ما فيهـا.. أما تحـريرهم للشعـوب المسترقّـة، وتحطيمهم للقـوتين العظيمتين المنتفختين بالجبروت والاستعلاء فهذا ما لا يقال؟!

وقـد ينسب للعرب ــ امتنـاناً عليهم ــ أنهم نقلوا حضـارة الأقدمين إلى العصـور الوسطى، أما أنهم أصحاب حضارة مقدورة ورسالة هادية ومدنية راقية فلا...

وفي كلية آداب عين شمس كان التاريـخ يدرس على هذا النحو!!

مساكين طلابنا الذين راحوا ضحية هذا الإرهاب الفكـري في مرحلة «جَـأَر» فيها الضلال «وخرس» فيها الحق!!

كتب أخونا «علي عبد العظيم» هذا التقرير عن كتاب ألّفـه الدكتـور «عبد المنعم ماجد» وأسماه «التاريـخ السياسي للدولة العربية» ننشـر نصه كـاملاً لمـا له من دلالـة. قال:

«المؤلف من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وكان عليه أن يقدِّرَ المسؤولية، وأن يرعى الأمانة العلمية، وأن يعتمد في أبحاثه ودراساته على المراجع التاريخية الأصلية التي عاصر مؤلفوها الأحداث أو نقلوها بأمانة عمن عاصرها وشارك في أحداثها، ولكنه اعتمد على المبشرين والمستشرقين المتعصبين الذين تمتلىء قلوبهم بالأحقاد المتوارثة على الإسلام والمسلمين والذين أعمتهم العصبية الحمقاء فأضلّتهم سواء السبيل.

«ومن الغريب أنه يسرد آراءهم دون مراجعة أو تمحيص وينقلها كأنها حقائق ثابتة ويلقنها لتلاميذه ويلزمهم بها كأنها أحكام صحيحة لا تحتمل البحث أو الجدال، وليس هذا شأن الأساتذة الجامعيين الذين يرعون الأمانة ويقدرون المسؤولية ويتحرَّون الحقائق من مصادرها الأصيلة ويراجعون أنفسهم مراجعة دقيقة قبل إصدار الأحكام الحاسمة التي تشوه التاريخ العربي وتلطِّخ القيم الإسلامية العليا بأبشع الأكاذيب والمفتريات.

ولوكان الأمر مقصوراً على كتاب يؤلفه صاحبه ويحشوه بما يشاء من آراء المنحرفين المتعصبين لهان الأمر، ولكنه كتاب جامعي مفروض على طلبة الكلية فرضاً منذ سنوات يتلقاه الطلبة عن أستاذهم واثقين به ليرددوا ما فيه ــ بعد ذلك ــ على عشرات الآلاف من تلاميذهم في التعليم العام عاماً بعد عام».

والمؤلف يعلم أنَّ هناك مستشرقين منصفين درسوا الحضارة الإسلامية والتاريخ العربي دراسةً علميةً عميقة بعيدة عن الهوى والتعصب، وأنصفوا العرب والمسلمين وعزَّزوا آراءهم بالأدلة الحاسمة والبراهين القاطعة معتمدين على الآثار الإسلامية الباقية والتراث العربي الخالد، ولكن المؤلف تحاماهم جميعاً واستباح لنفسه أن يسرد آراء المتعصبين الحاقدين دون دليل أو برهان كأنه يشفي غليلاً في نفسه أو يشبع ما حملته طبيعته من بواعث الهدم والتدمير، ومن الخير أن نسوق بعض الأحكام التي ملأ بها الكاتب صفحات كتابه دون نقد أو تمحيص:

أولاً: صفحة ٦٠، ٦١ من الجزء الأول: «كان بعض الأعراب يذبحون الكلاب كقبيلة أسد أو يأكلون لحوم الناس كقبيلة هذيل. كما أنَّ بعض الأعراب كانوا يأكلون الحيَّات والعقارب والجعلان والخنافس أو حتى القمل.

ثانياً: يذكر المؤلف في صفحة ٩٤، ٩٥ أن تاريخ ميلاد الرسول ﷺ غير معروف بالضبط ويتشكك في ربطه بعام الفيل ويوحي بأنَّ ذلك ناشىء عن محاولة الربط بين مولده وهذا الحادث القومي بالنسبة لقريش، ومن الغريب أن يعتمد في ذلك على معجم البلدان لياقوت، وهو كتاب متأخر ويعتبر من الكتب الجغرافية لا التاريخية، كما يعتمد على ثلاثة مراجع فرنسية، يفعل هذا على حين يترك المصادر التاريخية المتقدمة الأصيلة مثل تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وفتوح البلدان، والروض الأنف. . .

ثالثاً: في صفحة ١٩٨ من الجزء الأول يقول المؤلف: «وفجأة في سن الأربعين يملك محمد موهبة النبوة» وهذا التعبير غير لائق بجلال النبوة فإنها ليست موهبة فطرية كالمواهب الأخرى، ولكنها اصطفاء من الله للأخيار الذين اجتباهم من عباده المخلصين.

رابعاً: يستبيح المؤلف لنفسه أن يسرد عبارات تصف القرآن بأنه من صياغة محمد ﷺ مثل قوله في صفحة ٩٩ من الجزء الأول: «ومع ذلك فلم يرد على لسان النبي في القرآن. .» ويقول في صفحة ١٢٥: «وقد أناب فيه أبا بكر صديقه ليقرأ عليهم سورة براءة التي يتبرأ فيها محمد ممن يحج من المشركين» وكأن محمداً ﷺ هو الذي ألَّف هذه السورة ليتبرَّأ فيها من المشركين مع أنَّ أول السورة ﴿براءةٌ من الله ورسوله﴾.

خامساً: في صفحة ٢٥٠ يصدر المؤلف حكماً غريباً يهدم الشريعة الإسلامية من أساسها حيث يقرر أن الوحي كان يتم في المنام، وكأنه أضغاث أحلام فيقول عن الوحي: «إنه كان ينزل عليه وهو نائم».

سادساً: يدعي في صفحة ٢٥٠ أنَّ النبي ﷺ «كان ينسخ بعض الآيات ويأتي بأخرى محلها» وكأنه هو الذي ألَّف القرآن ثم أجرى فيه بعض المحو والإثبات، وكأنه ليس وحياً سماوياً منزلاً.

على أنَّ موضوع النسخ في القرآن محل جدل بين علماء المسلمين، وعلى فرض ثبوته فهو من عند الله وحده، وهو تدرج في التشريع موحى من عند الله لا من عند محمد ﷺ. قال تعالى:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾. [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

سابعاً: يذكر المؤلف في صفحة ١٢٧، ١٢٨ من الجزء الأول عن رسالة النبي ﷺ فيقول: «وهو وإن كان أُرسل إلى العرب وحدهم، ولكنه تجاوز حده واعتبر نفسه رسولاً إلى كافة الناس»، وكأنما الأمر متروك إليه يقرر فيه ما يشاء مع دلالة النصوص القرآنية وتواتر الأحاديث النبوية على رسالته إلى جميع الناس:

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾. [الفرقان: ١].

ثامناً: في صفحة ١٢٧ يذكر المؤلف أنَّ رسالة المسيحية عامة وليست خاصة كاليهودية، والمؤلف هنا يخالف القرآن الكريم في قوله تعالى: على لسان عيسى عليه السلام:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٤٩﴾ ﴾. [آل عمران: ٤٩].

كما يخالف العهد الجديد حيث جاء في إنجيل متى «لم أرسل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» [الإصحاح ١٥ : ٢٤].

فالمؤلف ينقل آراء المستشرقين والمبشرين دون نقد أو تمحيص ولو خالفت القرآن الكريم والحديث الشريف.

تاسعاً: يتحدث المؤلف في صفحة١٢٨ وما بعدها عن قضية البعث والحساب فيصوغها في عبارات توحي بالسخرية والشك فيما رواه القرآن الكريم فيقول مثلاً: «ويخرجُ الأموات من قبورهم ليقفوا أمام اللّهِ والملائكة ليحاكموهم» وكأنها محكمة جماعية يتبادل فيها القضاة الآراء ويحكمون برأي الأغلبية، ولنا أن نتساءل ما علاقة هذا بالدراسة التاريخية؟

والمؤلف متأثِّر بما كتبه صاحب كتاب «الفن القصصي في القرآن الكريم» الذي رفضت جامعة القاهرة قبوله رسالة للدكتوراة، وكأنه مولع بنقل آراء الحائدين عن الصواب من شرقيين وغربيين.

عاشراً: يقول المؤلف في صفحة ١٢٣ أن الزكاة في الإسلام ليست نوعاً من التضامن الاجتماعي كما في وقتنا، وإنما هي حثٌ على الشفقة والرحمة واستغلال في الجهاد ونشر الدين، فهل الشفقة تتعارض والتضامن الاجتماعي؟

إنَّ القرآن الكريم لم يعتبر الزكاة إحساناً، وإنما جعلها حقاً مفروضاً للسائل والمحروم، وقد حدَّد الإسلام مصارفَ الزكاة وليس فيها نص على الجهاد وحده ونشر الدين فحسب، وإنما هما يدخلان في أحد وجوه الصَّرف الثمانية كما ذهب إليه بعض المفسرين.

حادي عشر: ينفي المؤلف في صفحة ١٣٤ أن «الدين الإسلامي عالج نظم الحياة بنصوص صريحة» وكل من له إلمام بالتشريع الإسلامي يدرك بأدنى ملاحظة النصوصَ الصريحة التي تناولت جميع شؤون الحياة من بيع وشراء وهبة ودَيْن ووصية وزواج وميراث كما حدَّدت الفضائلَ والرذائلَ والعلاقات الاجتماعية، والنظمَ السياسية، وشؤون الحرب والسلام، كما تناولت أساليب الحكم والقضاء وحدَّدت الجرائم والقصاص والحدود... كما تناولت حقوقَ الإنسان قبل أن تحدده هيئة الأمم بأكثر من ثلاثة عشر قرناً.

ثم يكرر هذا الاتهام في صفحة ١٣٨ فيقول: «والواقع أنَّ الإسلام لم يدعِ أنه بنى مجتمعاً في غاية التنظيم»!!! لقد كان العرب قبائل متناحرة متنافرة يحارب بعضها بعضاً لأتفه الأسباب، وما كان يمكن أن تتألف منها وحدة تامة، وما كاد القرآن الكريم ينفذ إلى قلوب أفرادها حتى أصبحت أمة قوية متماسكة كالجسد الواحد أو البنيان المرصوص، قال تعالى:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾. [الأنفال: ٦٣].

وما تفرَّق شملهم إلَّا بعد أن تهاونوا في التمسُّك بدينهم القويم وكتابهم الكريم.

ثاني عشر: سَرَد المؤلف في صفحة ١٣٤ ما يلوكه المبشرون من تعدد الزوجات دون مراجعة أو مناقشة أو تمحيص، وكأنه بوق يردِّد أصداء الحاقدين.

ثالث عشر: في صفحة ١٣٦ يذكر أن الإسلام حَرَّم الربا لأنَّ معظم القائمين به

هم اليهود، وكأنَّ التشريع الإسلامي يقوم على الأغراض الشخصية، وليس وحياً سماوياً يستهدف الصالحَ العامَ لجميع العالمين، ومن العجيب أنَّ المؤلف يتناول الآياتِ القرآنية ويفسِّرها تفسيراً يدل على عدم فهمه لأسلوب القرآن العربي المبين فقد فَسَّر المؤلف قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴿٢٧٥﴾ ﴾. [البقرة: ٢٧٥].

وقد فسرها المؤلف بأن الآية تشبه «آكل الربا بالشيطان» (جزء ٢، ص ٢٧٥)، مع أنَّ الآية الكريمة واضحة بَيِّنة يفهمها العامة قبل الخاصة، ولكن سوء الفهم حَجَبَهُ عن أنوار القرآن الكريم.

رابع عشر: في صفحة ١٤٥ يقول المؤلف: «ولا ريب أنَّ النبيَّ نفسَه تعب من استهتار العرب بالدين وعدم ميلهم إليه»، وهو تعبير يجافي الذوق السليم إزاء النبي ﷺ الذي قضى حياتَه مكافحاً مناضلاً يتقدَّم الصفوفَ ويقود المسلمين في مواطن الخطر دون أن يدركه ملل أو كلل ودون أن يخشى في الله لومة لائم فكيف يتعب من الدعوة إلى الله.

خامس عشر: لاحظنا أنَّ المؤلف يلتزم نقل آراء المستشرقين ويتحمس لها، ولكنهم إذا أنصفوا الإسلام في موقف ما أسرع إلى مخالفتهم وكأنه موكَّل بتشويه صفحة الإسلام الوضّاءة وتلويث تراثه المجيد فنجده في صفحة ١٦٣ يقول: «لا نوافق بعض المستشرقين في قولهم أنَّ العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماس الديني.. ولكن من غير المعقول أن يخرج البدوي ــ وهو الذي لا يهتم بالدين(!) ــ لنشر الإسلام».

ومن العجيب أن يقرر المستشرقون الحقيقة وينصفوا الفتوحات الإسلامية، ولكن المؤلف المسلم يخالفهم على غير عادته فيزعم أن الصحابة لا يهتمون بالدين، وأن الفتوحات الإسلامية كانت قائمة على النهب والسلب لا على نشر الإسلام.

سادس عشر: ينكر المؤلف كعادته آثارَ التسامح الإسلامي في تحرير الشعوب من أغلالها فيخالف آراء جميع المؤرخين العرب كما يخالف آراء جمهرة

المستشرقين، ويكتفي برأي يوحنا النقيوس الذي انفرد بذكر مقاومة الأقباط في مصر للفتح الإسلامي مدة ١٢ عاماً دون مناقشة أو دليل ليخلص من هذا إلى أنَّ الفتوح الإسلامية كانت قائمة على النهب والسلب وإشباع شهوة سفك الدماء (ص ٢٢١ ـ ٢٢٣).

سابع عشر: يذكر في صفحة ١٨٠ أنه «كان لانتصار المسلمين في أجنادين وقع عظيم بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصر من عند الله»، وهي عبارة تصدم العقيدة الإسلامية في الصميم، لقد انتصر المسلمون قبل أجنادين، فهل كانوا يعتقدون أن هذا النصر من عندهم لا من عند الله؟

ولقد كانوا يحفظون القرآن الكريم وفيه قوله تعالى:

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾. [الأنفال: ١٠].

ولو كان للمؤلف الأغر أدنى معرفة بالعقيدة الإسلامية لعلم أنَّ النفع والضر بيد الله وحده وأنَّ الإنسانَ لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلَّا ما شاء الله، فهل كان الصحابة ينكرون هذا ولم يعتقدوه إلَّا بعد انتصارهم في أجنادين!!

ثامن عشر: في صفحة ٢٢٧، ٢٣٠ يرمي المؤلف الصحابة بالوحشية والإجرام في فتوحاتهم الإسلامية ويزعم أنهم كانوا قساة القلوب، غلاظَ الأكباد، لا يكتفون بحرق المزارع وهدم البيوت وإنما يحاولون قهر الشعوب المفتوحة وإرغامهم على دفع الجزية حتى ولو أسلموا مخالفاً بذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وإجماع المؤرخين ثم يشتط في أحكامه فيزعم أنَّ العرب في فتحهم لبرقة وطرابلس اكتفوا بفرض الجزية وأجازوا لأهلها بيع أبنائهم ليدفعوا الجزية، ولو رجع إلى المصادر الوثيقة لعلم أنَّ الجزية لا تفرض إلَّا على القادرين ـ من غير المسلمين ـ على دفعها، وأنها تقابل فريضة الزكاة عند المسلمين، وأنها تنفق لتحقيق الصالح العام للجميع لا للغزاة الفاتحين. ولكنه لا يريد أن يعلم وإنما يلتزم الباطل التزاماً. ومن هذا ما زعمه من أن المسلمين «أرغموا أهل النُّوبة على أن يحملوا كل سنة إلى ولاة مصر ٣٦٠ رأساً من الرقيق غير المعيب المتوسط العمر!! ولو كان للمؤلف الأغر أدنى إلمام بالثقافة الإسلامية لعلم حرص الإسلام الشديد على تحرير الرقاب وأنه أهاب بالمسلمين أن يتقربوا إلى الله بتحرير الرقاب، أي الرقيق، وأنه جعل هذا العتق كفارة بعض

الذنوب وأنه رصد جزءاً من صدقات المسلمين لإنفاقها في تحرير الرقاب، قال تعالى:

﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾. [البلد ١١ : ١٣].

ولكن المؤلف يجهل أحياناً ويتجاهل في معظم الأحيان.

تاسع عشر: المؤلف مولعٌ بتشويه صفحات الفتوحات الإسلامية بكل الوسائل وهو يستبيح في سبيل إشباع شهوته نقل الأساطير الوهمية، وهو يسوقها دون مناقشة أو جدال كما قال في صفحة ٢٠٤ من الجزء ٢ عن فتح المسلمين للأندلس: «قيل: إنهم طبخوا أول من قتلوه في القدور» ولو كان المؤلف مؤرخاً حقاً لدرس الفتح الأندلسي دراسةً جادةً فعلم أنَّ الأهالي ساعدوا العرب مساعدة قيمة للتخلص من حكم طاغيتهم المستبد لدريق، ولو كان المؤلف جاداً فيما يكتب ما اعتمد على الأساطير والخرافات، ولعلم أنَّ المسلمين حريصون على تحرير الشعوب ولكنه حريص على أن يصوِّرَ المسلمين وحوشاً مفترسة من آكلي البشر. ولو كان المؤلف قد نال قسطاً يسيراً من الثقافة الإسلامية لتذكر وصية النبي ﷺ للمجاهدين من الصحابة ومن تلاهم: «لا تقطعوا شجراً ولا تقتلوا طفلاً ولا امرأةً ولا شيخاً ولا تهدموا بيتاً»، ويظهر أنَّ المؤلف الأغر لا يأخذ بالقرآن الكريم ولا بالحديث الشريف وأن ذكرهما في مصادره للتمويه والتضليل.

عشرون: المؤلف مهتم كل الاهتمام بتشويه سيرة الصحابة رضوان الله عليهم فهو يرمي عمر بأنه كان يخشى الرجال الأشداء فينحيهم عن مناصب القيادة (صفحة ١٨٣) ويكرر هذا في (صفحة ٢٠٠) ليبررَ عزلَه خالداً أو المثنى بن حارثة، ونسأل المؤلف الأغر: هل نحَّى عمرُ أبا عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وغيرهم من كبار القادة الأقوياء عن مناصبهم؟

وشبيه بهذا ما ذكره عن الإمام الحسن رضي الله عنه ناقلاً ما ذكره خصومه من الأمويين وطائفة من المبشِّرين والمستشرقين حيث يقول في (صفحة ٢١) من الجزء الثاني: «فلعل وفاة الحسن كانت بسبب إسرافه في حياة اللهو..» ويتناسى أنه سبط الرسول ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، وأن الله سبحانه وتعالى أنزل فيه وفي أسرته:

﴿يريد اللَّهُ لِيذهبَ عنكم الرجسَ أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾، نعم يتناسى أنَّ هناك رأياً قوياً في التاريخ الإسلامي مؤدّاه أنَّ معاوية أغرى امرأةَ الحسن بسمٍّه على أن يزوجها ابنه يزيد فلما أقدمت على فعلتها النكراء وأتَتْه تستنجزه وعده راغ منها وأرضاها ببعض المال، فالحسن على هذه الرواية قتيل السياسة الأموية الدنيوية لا قتيل الشهوات الدنيَّة. لكن مصادر الإسلام الصحيحة والراجحة من قرآن وسنَّة وخبر صادق وراجح لا ترقى لمستوى مطاعن المبشرين والمستشرقين عند هذا المؤرخ «المسلم»!!

واحد وعشرون: يستبيح المؤلف لنفسه أن يهب النبوة لمن يشاء ويسلبها ممن يشاء، فهو يمنح «زرادشت» النبوة دون سند، حيث يقول في صفحة ١٩٤ من الجزء الأول: «وكان رسول هذه الديانة نبي اسمه زرادشت» على حين ينكر النبوة على إدريس عليه السلام جاهلاً أو متجاهلاً قوله تعالى:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾. [مريم ٥٦: ٥٧].

اثنان وعشرون: المؤلف يلتزم التعبير المجافي للذوق السليم فضلاً عن مجافاته للتعبير فهو يذكر «الفتح العربي» بدلاً من الفتح الإسلامي ويذكر «الدين العربي» بدلاً من الدين الإسلامي، وكأنَّ الفتح الإسلامي كان مقصوراً على العرب وحدهم، وكأنَّ الدين الإسلامي كان مقصوراً على العرب وحدهم ولم يكن موجَّهاً إلى العالمين، وما سَمَح لنفسه قط أن يُتبع ذكر محمد بالعبارة المأثورة «صلَّى الله عليه وسلَّم»، والله تعالى يقول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾. [الأحزاب: ٥٦].

وإذا كان المؤلف لا يعدُّ نفسه من «الذين آمنوا» فهو يخاطب قوماً مؤمنين، فإن فاته أدب الإيمان فلا يفوتنَّه أدب الخطاب!

وقد حرص المؤلف الأغر على طبع كتابه في بيروت خشيةَ أن يلاحقه الرقيب في مصر، وفرضه على تلاميذه منذ خمس سنوات، وفاته أنَّ عين الله لا تغفل وأنَّ الذين يلحدون في آياته لا يخفون عليه.

ولعلَّ هناك صلة بين كتابه وكتب التبشير الصادرة في بيروت، ولو اجتهد المؤلف فأخطأ مرة وأصاب مرات لالتمسنا العذر، ولكنه ــ وا أسفاه ــ لا يجتهد ولا يبحث وإنما هو ناسخ فحسب يتعمد نقل ما يشوّه القيم الإسلامية المثالية، ويرتمي على أقدام المبشرين والمستشرقين المتعصِّبين، ويمعن كل الإمعان في التفاهة والضلال.

وكأنه يعيش في دولة غير إسلامية لا ينص دستورها على أنَّ دينَها هو الإسلام ولا ينادي رئيسها بشعار «دولة العلم والإيمان».

إن بقاء هذا المؤلف بين أعضاء هيئة التدريس بكلية آداب عين شمس خطر على البحث العلمي، والأمانة التاريخية، والفضائل الخلقية، والتراث الإسلامي المجيد».

* * *

القومية العربية ومعناها

وندع هذا التحامل الجهول على تراثنا وتاريخنا ونستعرض لوناً آخر من تزوير الحقائق وتضليل الأجيال وتحريف الكلم عن مواضعه لخدمة الإلحاد والاستعمار بدعوى القومية العربية أو الوطنية المصرية.

عندما أغار الاستعمار الحديث على العالم الإسلامي كان عقله الباطن والواعي طافحاً بالحقد على الإسلام وأمته المترامية الأطراف.

كان عقله الباطن والواعي مستغرقاً في المكر بهذا الدين والقضاء عليه، وكان اتجاهه إلى الاغتيال شاملاً للعقيدة والشريعة على سواء أو للقلب النابض والمظاهر المتحركة جميعاً.

إلَّا أنَّ عمله لثقب الصدور وتفريغ الإيمان منها وإبقائها جوفاء فارغة كان أحظى وأسرع لإبلاغه مأربه من أي تغيير آخر لأنماط الحياة وأشكالها، ومن ثم استمات في محاربة الإيمان، وإنشاء أجيال جاهلة بربها ورسولها أي بكتابها وسنتها.

يقول شوقي مناجياً النبيَّ ﷺ وباكياً تلك الحال:

شعوبك في شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهف في عميق سُبات

بأيمانهم نوران: ذكر وسنة ... فما بالهم في حالك الظلمات؟

والحقيقة أنَّ الاستعمار جَرَّد أيدي المسلمين من الذكر الحكيم والسنة المطهرة وبنى الثقافات التي احتضنها والنهضات التي أقرَّها على أن تكون بعيدة كل البعد عن الكتاب والسنَّة.

وبناء الأمم على غير عقيدة لا يساوي شيئاً.. إنَّ العقيدة في الكيان الاجتماعي كالقلب في الجسد الإنساني، وكالتيار في المصباح الكهربائي، وكالوقود في الآلة الدوَّارة.

واجتياح عقيدة في أمة ما، معناه إبقاؤها على الأرض مجموعة من الناس لا تصلح في سلم ولا حرب، ولا تكترث إلَّا لملذاتها الفردية ولا تصير في الأسرة الدولية إلَّا عضواً زرياً يحسن الأكل والسِّفاد وحسب.

وقد اجتهد الاستعمار أن يوقع بالمسلمين هذه النكبة الماحقة عندما هبط أرضهم، واستباح عرضهم وقرر سراً وعلناً أن يفتنهم عن دينهم وألَّا يسمح لهم بالعيش في ظله.

يقول الأستاذ أحمد موسى سالم في كتابه «الإسلام وقضايانا المعاصرة»: إنه منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وإلى اليوم ظهرت دعوات وصيغ كثيرة في بناء القومية العربية، أو في العمل على تقويضها وتفتيت فكرتها، بعض هذه الدعوات أوحى به الاستعمار، وبعضها أفرزه التخلف وشجَّعه الشعور المهين بالتبعية الثقافية للغرب، وبعضها يمكن أن يصحح نفسه ويتطور ويقترب من الاتجاه الصحيح.

* * *

فتح المجال على مصراعيه لضرب الإسلام

وفيما يلي نستعرض في إيجاز عابر صوراً دقيقة بقدر الإمكان لهذه الدعوات أو الصيغ التي يتداولها الفكر في المجتمع العربي من الخليج إلى المحيط، في إطار الدعوة للقومية العربية، وذلك منذ سقط الصرح البالي للإمبراطورية العثمانية عن هذا الوليد العربي القوي الغني الذي يصرخ بطلب الحياة، بينما تمتد مخالب كثيرة لأعدائه تدَّعي أمومته أو أبوَّته لتصنع منه عبداً، وتفرض عليه وصايةً من خلال حضانتها له بفكر سياسي خاطىء وإن كان له بريق:

١ ـ دعوة قديمة حديثة ترفض الإقليمية والقومية معاً وتنادي بالفكرة العالمية الغربية، وهذه تتردد في أفكار فردية، أو مدارس فكرية مقنّعة تتحرك هنا وهناك في مباحث ثقافية ذات طابع تحرري، هي دعوة تشجعها الصهيونية والاستعمار من قرب أو من بعد.

٢ ـ دعوة إقليمية ترفض القومية العربية إيثاراً لوطنيات ضيقة باسم الفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية، وهي أثر من آثار التحرك الاستعماري العاجل عقب سقوط الدولة العثمانية لقتل أي احتمال بظهور وانتشار فكرة القومية العربية بمعناها المقبول.

٣ ـ دعوة لاتحاد العالم الإسلامي ترفض القومية العربية، وهي أثر من آثار وتراكمات الوجود التركي في الوطن العربي، ودعوة يجند لها الاستعمار الجديد كل قواه لتفتيت الصمود العربي أمام إسرائيل[1]، وهو يحاول من خلال جماعات إسلامية كثيرة ووسائل إعلام ملتوية أن يبثّ بها المخاوف من القومية العربية في قلوب علماء الدين.

٤ ـ دعوة للقومية العربية أوروبية الشكل والمضمون، وهي دعوة ينفثها الاستعمار ـ مع جهوده المتنوعة لقتل القومية العربية ـ داخل الجماعات الرجعية وقيادتها المثقفة التي تؤمن بمجتمع «الكبراء والصغراء»، وتريد أن تفرض تصورها للقومية العربية بالشكل الذي يحمي نظرية التفوق والدم وامتيازات رأس المال.

٥ ـ دعوى للقومية العربية ترفض الدين وتشترط هذا الرفض، وهي دعوى تمتزج فيها المؤامرات الثقافية الخارجية بالانعكاسات المحلية لجيوب دينية وطنية.

٦ ـ دعوى لاتحاد وتضامن العرب تتجاوز إرادة الشعوب إلى علاقات الحكومات وتتمثل في جامعة الدول العربية التي تأسست سنة ١٩٤٤م بهدف «توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها تحقيقاً للتعاون بينها وصيانةً لاستقلالها كما جاء في ميثاقها».

٧ ـ دعوى للقومية العربية يتبناها التقدميون الماركسيون يضعون في مقوماتها

---

(١) لنا رأي في هذا الكلام سوف نذكره.

التجانس العقلي والثقافي ووحدة النظرة إلى الكون بدلاً من الـدين. والأممية بـدلاً من الإنسانية».

ولنا تعليق على الطيف الثالث من هذه الأطياف السبعة فإنَّ العالم الإسلامي المركّب من أجناس شتى يحترم العرب ويقدِّس لغتهم، ويعلم أنَّ العرب هم دماغ الإسلام وقلبُه، وأنه يستحيل وجود إسلام من غير أمَّة عربية سيدة ما دام القرآن عربي الآيات، وما دام النبي عربي التراث، وما بقيت مكة في مكانها من أرض الله، فالعرب إن اكتشفوا ذاتهم واحترموا مكانتهم هم جزء من الرسالة الخاتمة ولن يتبرم بوضعهم مؤمن أو يفتات على حقهم منصف.

ولكنْ يوم ينسى العرب هذه الحقيقة الدينية والتاريخية فسينطبق عليهم قول القائل:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هواناً بها كانت على الناس أهونا

والمؤلف الكبير ذكر أن هناك عرباً تجردوا من تاريخهم ورسالتهم أو بتعبير أصرح جردهم الاستعمار من ذلك كله، وأغراهم برفع راية العروبة وحدها على نحو ما شرح في الطيف الرابع والخامس والسابع، ولكي يعرف الناس حقيقة هؤلاء الخادعين المخدوعين ننقل كلامهم[1] بالتفصيل:

«العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا، مع دعوتها ــ أي العروبة ــ إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات، ولئن كان لكل عصر نبوَّته المقدسة، إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي».

«ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة وتكتيل الجبهة والانطلاق بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة. وأن كتّاب العرب في أعناقهم أمانة هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة يزكونها بأقلامهم وينفخون فيها من أرواحهم، ويعملون على أن تكتمل لها أسباب النماء والازدهار. . . !!

---

(١) من كتابات «ميشيل عفلق» و«ساطع الحصري» «وقسطنطين زريق» وآخرين.

والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانـوا منزل وحـدة الله من قلوب قوم مؤمنين».

وهذا الكلام يعني دون مواربة إقصاء الإسلام عن القلوب، ومطاردته في أرجاء المجتمع، وبناء أمَّة عربية أخرى مرتدَّة عن دينها ومتمرِّدة على رسالتها وتاريخها..

إن أكثر من «مسيلمة» بشَّر بهذا الدين فماذا أفادت الأمَّة العربية منه؟

لقد انطلقت أسباب الفتك الأدبي والمادي في أرجائنا تغشى ظاهر المجتمع وباطنه فلم تدع قيمةً روحيةً إلَّا أرخصتها، ولا صلاةً خاشعة إلَّا أماتتها، ولا قلباً محباً لله إلَّا ازدرته، ولا أخوةً خالصةً لوجهه الكريم إلَّا مزقتها شرَّ مُمَزَّق..!!

ونشأ عن ذلك أنَّ الأنفاس الباردة هي التي تنظر في قضايانا، والضمائرَ الخائنة هي التي تشرف على مصالحنا، والطبائعَ الجبانةَ الهلوع هي التي تدافع عن مقدساتنا...

ولو أنَّ حساب الأرباح والخسائر روجع بعد هذا الارتداد الشائن لما وجدنا إلَّا ما تقرّ به عين الاستعمار، ويثلج صدور الضائقين بالإسلام وماضيه ومستقبله..!!

لقد ضحكت من العجب العاجب وأنا أقرأ هؤلاء يقولون: «إن أمَّة العرب فتَّشت عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحية واستعانت بالنظام الإقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى لكن كل ذلك لم يجد فتيلاً... مع هذا شمَّرت أمَّة العرب عن ساعديها ونظرت بعيداً بعيداً لترى طفلها الوليد يقترب منها شيئاً فشيئاً، وهذا الوليد ليس إلَّا الإنسان العربي الاشتراكي الجديد، الإنسان المتمرِّد على جميع القيم المريضة الهزيلة المبعثرة في مجتمعه والتي ليست إلَّا وليدة الإقطاع والرأسمالية والاستعمار... تلك القيم التي جعلت من الإنسان العربي إنساناً متخاذلاً متواكلاً، إنساناً جبرياً مستسلماً للقدر، إنساناً لا يعرف إلَّا أن يقول:

«لا حول ولا قوة إلَّا بالله العليّ العظيم».

أما القيم الجديدة التي ستخلق الإنسان العربي الجديد فهي قيمٌ نابعةٌ من صلب الإنسان المتمرد المعذب، نابعةٌ من قلب الإنسان الجائع، نابعة من الإنسان الاشتراكي الثوري الجديد الذي لا يؤمن إلَّا بالإنسان وبالإنسان وحده.

والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هي خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن أنَّ اللَّهَ والأديانَ والإقطاعَ والرأسمالَ والاستعمارَ والمتخمينَ وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلَّا دمىً محنَّطةً في «متاحف التاريخ»[1]. . . !!

ونقول: إن الواقع الحقير هو وحده الذي يجابه هذه الدعاوي الهائلة، فقد استطاع هؤلاء العروبيون بوسائل الختل والقتل أن يملكوا زمام الأمة العربية في أكثر من قطر. فماذا صنعوا بها؟

إنَّ قادة اليهود لم يخدموا شعبهم بأفضل مما خدمهم به هؤلاء المفتونون أصحاب الصيحات العالية والهمم العليلة.

وظاهر أن هذه الحركات الغريبة على أمتنا أو المفروضة عليها من خارج، هي طور جديد من أطوار الهجوم الثقافي على الإسلام ولكنه طور بلغ مدى من التخريب لا بد من وقفه وإلَّا أوردنا القبور بيقين.

ذلك ويبدو أن وضع المقدسات في المتاحف نزعة مستحبة لدى كُتّابنا الذين يشار إليهم، فإنَّ محرر الأهرام الأغر زعم عقب وصول الأمريكيين إلى القمر أن أخطر الوثائق الدينية سيضم إلى أوراق البردى ويودع في المتاحف لطلاب الترويح[1].

ولقد قلت يومئذ: إن الأمريكيين كانوا في المعابد يدعون الله كي تنجح الرحلة الكونية ويعود الروّاد بالسلامة، أما كتّابنا العجزة فقد أخذوا يعلنون كفرهم بالله.

ويظهر أن الإسلام وحده هو المقصود بالوضع مع الآثار ومخلفات الماضي. بل نحن نوقن أن ذلك هو هدف السادة ميشيل عفلق وجورج حبش وأتباعهم من محرري الصحف الكبار عندنا.

هل أولئك عرب؟ لقد لاحظت أن هؤلاء الناس دخلوا «المعركة بين العامية والفصحى» إلى جانب العامية ليرجحوا كفتها.

---

(١) من كلمة لعسكري من حزب البعث اسمه إبراهيم خَلاص نشرها في مجلة جيش الشعب السورية.

(٢) الصحافي المعروف محمد حسنين هيكل.

ومعروف أنَّ المبشرين والمستشرقين بذلوا جهوداً حثيثةً لتغليب العامية، وإماتةِ لغةِ القرآن.

فكيف ـ باسم العروبة ـ نمْقُتُ لغتَها ونهجرُ بلاغتها وأدبَها، ولحساب من؟؟

ولاحظت أنه باسم العروبة كانت تُلقى الخطب الرسمية الضافية باللغة العامية الدنيا وهو تصرف لم يؤثر عن قادة الأمم في شرق وغرب!

ولاحظت أنه باسم العروبة أصبحت العامية لغةَ البرامج الإذاعية حاشا نشرات الأخبار والدروس الدينية، وتقررت اللهجات العامية لغةً للتخاطب والتسجيل..

كما أنه باسم العروبة فُرض حَظْرٌ رهيب على اللغة العربية أن تدخل كليات الطب والهندسة والصيدلة والعلوم... إلخ.

وتحجَّرت هذه اللغة فلم تواكب سير الحضارةِ إلَّا بخطىٰ السلحفاة أحياناً وفي جوٍ من التندّر والسخرية...!!!

وباسم العروبة يراد من جماهير العرب أن تنسىٰ فضلَ أكبر إنسان يشرِّفُ الأمة العربية في تاريخها كله من أزله إلى أبده، وهو محمد بن عبد الله الذي جعل للعرب وجوداً ومنحهم ذكراً مخلداً، وناط بأعناقهم رسالةَ الرشد والخير للعالم...

إنَّ هؤلاء الناس ليسوا عرباً.

ولكنهم الجيل الضائع التائه من أجيال الأمة التي أخذ الاستعمار بخناقها وسلَّط عليها من أبنائها من يوردها الحتوف، ويزين لها الانتحار.

لقد تابعت بعض العروض الروائية والسِّيَر التاريخية لرجالنا وأحوالنا الأولى فوجدت العجب من تزوير التاريخ والكذب على الأحياء والأموات.

زعم بعضهم أن علماء الأزهر لاذوا بالتقيَّة عند مجيء نابليون بونابرت إلى مصر، ولم يؤدوا واجبهم الوطني، وضربت كفاً على كف لهذه الصفاقة الغريبة...!

إنَّ جثث العلماء المسلمين بُعْثِرت حولَ القلعة وهم يقاومون الفرنسيين وضُرِب الأزهر بالمدافع ودخله الجَيش الفرنسي بخيله وقتل أحد الأزهريين[1] القائد «كليبر» وانتقم الفرنسيون منه فقتلوه شرَّ قتلة.

---

(١) هو سليمان الحلبي.

فكيف يطوى ذلك كله، ويذكر أنَّ النسوة المعلمات هنَّ اللائي قاومن الفرنسيين؟

قبحك الله من مؤلف كذوب... ولكنَّ التهجم على الإسلام هدف يشترك فيه الرعاع وبعض الرؤساء عمداً، لينالوا من الإسلام نفسه، ولتعيش الأمة بلا عقيدة، ولتجد الصهيونية الطريقَ أمامها مفتوحاً إلى ما تريد.

وإلى القارىء هذا الشاهد الآخر من شواهد تزوير التاريخ والحملة على الإسلام وعلمائه:

كتب السيد صلاح جاهين شيئاً من الشعر[1] العامي عن مصر وتاريخها الطويل جاءت فيه هذه الكلمات:

زَحف الفرنسيس وزحفت قبلهم جواسيس
غايصين لقاعها وعارفين باعها من باريس
وايش عمل القاع قصير الباع.. في القمة
وايش تعمل العمة في البرنيطة يا أئمة؟
العمة ما اتكلمت (!!) وتن صوتها حبيس!
غير مرة لما البوليس قال: نوروا الفوانيس!
وده كفر طبعاً. ولا يدخل لنا في ذمة
اطمن الغرب أن في بلدنا ناس رمة
وانهش يا ديب فينا واقضي بمنتهى الهمة
على اسم مصر

وأنا أعتذر أولاً عن تدوين هذه التعابير السوقية في صحيفة محترمة لا يجوز أن تنشر بغام العامة ولكني مضطر لتفنيد ما حوت من إفك خسيس على تاريخ الجهاد العلمي لأمتنا..

يرى هذا الكاتب أنَّ علماء الأزهر قابلوا الغزو الفرنسي لمصر بصوت محبوس،

---

(١) نأسف لإطلاق كلمة شعر على هذا الهذر.

وهمة مشلولة، وأنهم ما تحركوا محتجين إلاَّ عندما أنار الفرنسيون القاهرة لأن إبقاءَ المصابيح كفر، وإشاعةَ الظلام بالليل هو ما يعمل له علماء الدين «الرمم». . !!!.

ولست أستغرب من منكر لله أن يفتريَ على خلقه ولكن الافتراءَ يوم يعلن على أنه علم، وعهد الناس قريب بالحقيقة فإنَّ الأمر يستدعي الكي لا التكذيب المعتاد. .

ولقد علم الغرب والشرق أنَّ الحملةَ الفرنسية لما وطئت أرضَ مصر قاد الإسلام ــ وحده ــ حركةَ المقاومةَ، وقاتلَ الفرنسيين شبراً شبراً في هذا الوطن المحروب، وإنَّ علماء الدين كانوا قادةَ هذه المقاومة الباسلة ووقودها المتوهج.

ولما انتفضت القاهرة ضدَّ الغزاة وكان الجامعُ الأزهر مصدرَ الثورة اقتحمت الخيل الفرنسية حرمه، ويقول الجبرتي: «إنهم، تفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولَهم بقبلته ودشتوا المصاحف والكتب على الأرض، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه ــ أي بالوا داخله ــ وشربوا الشراب ــ أي الخمر ــ وكسروا الأواني وألقوها بجوانبه».

ويحكي التاريخ العدل الصدوقِ أن الشيخ الشهيد سليمان الحلبي كان ــ قبل أن يقتل بأشنع الطرق ــ رابط الجأش، وصرَّح في التحقيق الذي أجري معه أنه قتل الجنرال «كليبر» في سبيل الله وكان ينظر إلى من حوله «بعين رفيعة».

ولقد قبض الفرنسيون على الشيخ أحمد الجوسقي، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الله الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، وعروهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح، ثم أنزلوهم وقتلوهم بالبنادق، وألقوهم من السور خلف القلعة ولم تعرف لهم قبور. هكذا يذكر الجبرتي في تاريخه ويجيء رجل شيوعي وغد ليقول في حق علماء الأزهر كلهم:

وأنا لو «نابليون» لكنت عدمتهم تقتيل
ما دمت أقدر أسيح دمهم في النيل
وأخلع ذقونهم وأبين أنها تضليل
على اسم مصر

أهكذا يكون تزوير الوقائع، وتشييع شهداء المقاومة الشريفة؟ ولِمَ هذا كله؟

لنثبت بطريق الخداع والكذب أنَّ الدين «أفيون الشعوب» مع أن كل شيء يصرخ هنا بأنه محرر الشعوب ونافخ نارها ومعلي منارها؟

ونجيء أخيراً للقصة السمجة، قصة أنَّ علماء الإسلام قاوموا تعليق المصابيح على البيوت، لأنَّ الظلمة طاعة والضوء معصية كما يذكر رجال الأهرام الأغر.

إنه أضاف بهذه القصة منقبة لنابليون لم تعرف له، ألم يكتشف أنه جاء من فرنسا بجيشه كي ينير القاهرة؟

واتهم الإسلام بمثلبة لم يوردها أشد أعدائه صَغَاراً، ألم يقف علماؤه ضد إنارة الشوارع والحارات؟

وقصة تكليف الأهالي بإنارة الطريق أمام بيوتهم أوردها الجبرتي وذكر حولها بعض وقائع السَّلب والنهب التي تبعتها.

ورأينا أنَّ هذا التصرف الفرنسي كان إجراءاً عسكرياً ليحكم الغزاة وثاق القاهرة الجريح وتشتد قبضتهم عليها، حتى لا يستخفي القناصة والفدائيون في جنح الليل.

لكن سدنة القومية العربية الذين يقودون صحافتنا المعاصرة يريدون تشويه كل شيء لتحقيق مآربهم وفرض مبادئهم.

وباسم القومية العربية يُحارب البيان العربي الصريح ويتم التمهيد للعامية الهابطة.

وباسم القومية العربية ينقم العرب على أضوأ اسم في تاريخهم وأشرف إنسانٍ مشى على الثرى في الأولين والآخرين.. ينقمون على محمد بن عبد الله وينالون من رسالته.

إنَّ هؤلاء الناس ــ بداهة ــ ليسوا مسلمين. فهل هم عرب كما يوصفون أو يتَّصفون؟

كلا، إنَّ هؤلاء سواءٌ كانوا أُجراء أو مخلصين أفضل لإسرائيل من كل أسلحة الدنيا التي تَرِدُ إليها.

* * *

العدالـة العربيـة

قديماً وحديثاً كانت للقضاء حرمته، وكـان فسح الجو للقضـاء كي يقول كلمتـه النزيهة تقليداً تتوارثه الأمم المحترمة، وتضاعف له الضمانات حتى يرسـخ ويستقر.

وقد اجتهدت النهضات الإنسانية كلها في توفير العـدل للقريب والبعيـد، والقوي والضعيف، والغني والفقير، وافتنَّت في جعل المتَّهم يشعر بالثقة في قضاته والاطمئنان إلى نقاء ضمائرهم، وشرف سرائرهم، وكفلت له إذا تَظَلَّم أن يستأنف النظر في قضيته أمام محكمة أخرى. .

وكلما كان العقاب المتوقـع شديداً ازداد الدرس والتمحيص وتقليب وجوه النـظر ليصـدر الحكم في محله الحق وإذا كان هنـاك من خطأ فـإنه يحـدث غـالبـاً لمصلحـة المتَّهم لا ضده من باب مـا ورد في الحديث الشـريف: «لأن يخطىء الإمـام في العفو خيرٌ من أن يخطىء في العقاب».

هذا هو ما تعرفه دنيا الناس.

لكن حكـومات عـربية شتى وفي مقـدمتها (مصـر) تعقبت خصومهـا بأسلوب في الاتهـام والتحقيق والقضاء والتنفيـذ يزري بكـل ما عـرفته الإنسـانيـة من قيم، ويجعـل العدالة سراباً والشرف خدعة كبرى. .

أمسكت يوماً بإحدى الصحف فوجدت فيها أنَّ محكمةً عسكرية بعثيـة استطاعت خلال ساعتين أن تنظر في قضايا أربعين متَّهماً، وأن تحكم فيها بالإعدام شنقاً أو ضـرباً بالرصاص، وأن تنفِّذ قضاءَهَا هذا خلال ساعتين أخريين!!!

قلت: مـاذا يقول العـالم عنا ونحن نسفـك الدم بهـذه الغزارة؟ ونبتُّ في آجـال الناس بهذا النزق؟.

إنَّ القضـاء العادي جـدير بـالاحترام في جملة بـلادنا، لكن هـذا القضاء يجنب عمـداً النظر في قضـايا معينـة يريـد الحاكم أن ينـظر فيهـا بنفسـه كي يتشفَّى فيهـا من خصمه.

ومن ثم يؤلِّف لجاناً إدارية يسميها محاكم عسكرية أو شعبية تحقق له ما يريد.

والأمر كما قيل: فيك الخصام وأنت الخصم والحكم.

لقد فضحنا إنجلترا في العالمين عندما قتلت بهذه الطريقة عدداً من مواطنينا في قرية دنشواي فلما تولَّينا نحن أمورنا فعلنا ما تعتبر دنشواي بالنسبة إليه جرماً صغيراً:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾. [محمد: ٢٢ ــ ٢٣].

لكن هل نحن الذين تولينا أمورنا؟ كلا.

ما كان أبعد الشعوب عن حكم نفسها بنفسها.

إنه استعمار داخلي أعقبَ الاستعمارَ الخارجي بتدبيرٍ مُحْكَمٍ من أعداء الإسلام وأمته المثخنة بالجراح..

ولقد قدر هذا الاستعمار على ترويع الآمنين وإذلال الأعزة وهتك الحرمات وتمزيق العرى وإفقاد الأفراد الثقة بأنفسهم وبلادهم وماضيهم وحاضرهم.

قال لي والد لطالب جامعي: إن ميول ابني الدينية تجعلني أقلق عليه. قلت له مشجعاً: ثق في الله.

قال: أنت تدري ما أصاب أمثاله من دمار مادي وأدبي. فقلت له مرة أخرى وأنا كسير النفس: دعه مستمسكاً بدينه ﴿فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾.

ورجعت بي الذاكرة إلى أيام قلائل قضيتها في سجن انفرادي بطرة، لقد كنت أخف أهل البلاء بلاءً، أما الثمانية عشر ألفاً من الشبان الذين احتوتهم سجون أخرى فقد مَرَّت بهم أهوال تشيب لها النواصي...

وقلت: ليكن في جماعة الإخوان أو الشبان أو الفتيان من يستحق العقوبات القاسية فليعاقبه بالقتل أو ما دونه قضاء عادل.

لو كان في الإخوان ناسٌ مجرمون فلنكن نحن مسلمين في محاسبتهم ومؤاخذتهم.

أما أن يؤخذَ الجارُ بالجار، والقريب بالقريب، والبعيد بالبعيد، فهذا ما تنكره الأرض والسماء، اللهم إلا إذا كان هناك قصد آخر من وراء هذا الاستقصاء والاستئصال...

إن القاضيين الشرعيين اللذين اتهما بالزنا ثبت فيما بعد أنهما مصابان بشلل جنسي يجعل وقوع هذا المنكر منهما متعذراً!! ومع ذلك فإنَّ الصحافة وصفت الحادث بإسهاب، ثم أُبعد الموضوع كله عن القضاء العادي ليدان القاضيان بأسلوب آخر، ثم صدر القرار بإلغاء المحاكم الشرعية كلها.

ما ذنب القضاء الشرعي أجمع؟ ولِمَ تلوَّث سمعة الأبرياء بهذا الإجراء العام؟.

كان المقصود هو الإتيان على بقية من الشارات المتشبثة بحياتنا تربطنا بالإسلام وقوانينه فكانت هذه المأساة الكالحة.

والفتنة التي استهلكت جماعة الإخوان تشبه أن تكون امتداداً للمذابح التي أصابت أتباع الأديان الثلاثة على التراب المصري.

المذبحة الأولى: أصابت اليهودية على عهد فرعون، والثانية: أصابت النصرانية على عهد الرومان، والثالثة: أصابت الإسلام في السنوات الأخيرة.

ويجب أن يُسَجَّل في التاريخ العام أنَّ المصريين الذين اعتنقوا الإسلام مخلصين وناصروه على امتداد القرون قد تحمَّلوا في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر[1] آلاماً فوق طاقة البشر.

وأنهم قدَّموا نماذج للبطولات الماجدة أهيل عليها التراب في صمت، وينبغي أن نشق حجاب هذا الصمت ونستخرج الدفائن المتوارية تحت طباقه لتكون عبرةً ولتكون مفخرة.

وظاهر أنَّ أعداء الإسلام ــ من صليبيين وشيوعيين ويهود ــ قد أحكموا التآمر على بلادنا وجماهيرنا.

لقد قرروا إنشاءَ إسرائيل منذ سبعين سنة، وقرروا أن يشطروا بها العالم الإسلامي شطرين، وقرروا أن ينفردوا بكل شطر ليقسموه دولاً وقوميات، وقرروا أن يمنعوا بحسم أي محاولة للتجمع على الإسلام أو التذكير بشريعته أو التغنّي بأمجاده...

(١) نحن نؤثر تسجيل الأحداث بالتاريخ الهجري.

وتنفيذاً لهذه المقررات أُخرس كل صوت جادٍ يحدو المسلمين إلى كتابهم، وعولج بالسيف والنار كل من يذكر أنَّ الإسلام دين ودولة.

واستغل لهذا الغرض كل مريض بداءِ السلطة، وكلُّ ملتاثٍ بجنون العظمة.

ومن الرجال قوم يحبون الحكم كما تحب المومسات الخنا.

وفي سبيله يأتون على الأخضر واليابس ويذلون من أعزَّ الله، ويعزّون من أذل الله:

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾. [البقرة: ٢٧].

وقد تمت محاكمات الإخوان بغير قانون وضعي أو شرعي، وقعد في منصة القضاء أشخاص موتورون، أو خدم للموتورين يقف أمامهم متَّهم مسكين تهمته أنه تصدَّق على امرأة معتقل لتصون نفسَها وتربي ولدَها في غياب زوجها.

فيحكم عليه بقضاء خمس سنين في السجن إن كان تصدّق بخمسة قروش وعشر سنين إن كان تصدَّق بعشرة قروش هذا هو القضاء بالعدل.

كيف نفعل هذا؟ إننا نريد أن تبتذل المرأة، وتفتضح، وأن يرى أولادها كما وصف الواصف:

صفر الوجوه عليهمو خلع المذلة بادية

ويصف المتصدق بأنه عضو في جهاز لإعادة الجماعة المنحلة، وهناك ناس لم تستطع المطاردة إثبات شيء ما عليهم. إذن يعتقلون دون محاكمة حقيقية أو صورية حتى يتوفاهم الموت أو يجعل الله لهم سبيلاً.

وداخل السجون والمعتقلات كان عباقرة التعذيب قد استفادوا من الوسائل التي اتبعتها محاكم التفتيش في العصور الوسطى، كما استفادوا من الوسائل التي اتبعها «النازي» في استئصال اليهود، أو التي اتَّبعها الشيوعيون في محق خصومهم..

إننا متخلفون في مجالات صناعية وعلمية كثيرة، أما في هذا المجال القذر فلدينا خبراء مهرة نُسِجَت أعصابهم من الحقد والشذوذ يتلذذون بالآلام، ويسرهم أن يسمعوا الأنين المتصاعد والدماء ــ ولا أقول العَبَرات ــ المراقة.

استيقنت أنَّ ضربَ هؤلاء الضحايا لم يكن لأخطاء ارتكبوها. . إنَّ الضرب كان للإسلام نفسه.

كان كل ما في العالم من ضغن على عقيدة التوحيد يتحرَّك وراء هذه الوحشية المعربدة.

وشاء الله وحده ألا تبيد هذه الجموع الحبيسة وأن تبعث من قبورها أو من جحورها لتعود إلى مدنها وقراها بعد ما كساها ذل الاحتلال الإسرائيلي.

لقد هلك عشرات في جحيم الذل والاستباحة والضياع، لا تسأل عن الهالك كيف هلك؟ ولكن اسأل عن الناجي كيف نجا.

* * *

صفحات من مذكرات معتقل

ولننقل هنا ما سجله عالم أزهري قضت الأقدار أن يدخل هذا الجحيم ويصف بعض ما وقع فيه. . .

كتب يقول:

كيف اعتقلت؟

. . . كانت الساعة الثالثة صباحاً وأهل البيت نائمون فإذا الباب يدق دقاً عنيفاً بلا انقطاع حتى كُسِرَ الجزء الزجاجي منه وَفَزِع الجميع ليفتحوا الباب ويستطلعوا الخبرَ فإذا عدد من الرجال المسلحين يندفعون بسرعة إلى الداخل وسألناهم: ما الخبر؟ فكان الجواب: اسكت يا ابن «الكلب» أنت وهو ما تتكلمش.

وأمرهم الضابط أن ينتشروا في الحجر ليفتشوا كل شيء، وكان التفتيش تخريباً: شقوا الوسائد والفراش بالسكاكين، وكسروا الأواني، وحطموا الخزانات وبعض الأسِرَّة، وهدموا جداراً من البيت بحجة البحث عن سلاح. . .

. . . وتركوا البيت وليس فيه شيء يصلح للاستعمال بعد أن اقتادوني معهم إلى مركز الشرطة وسط سَيل من الضربات، هذا يرفس برجل ويركل بأخرى وذاك يلكم بيد ويلطم بأخرى على مرأى من أهل بيتي وزوجتي.

وبالطبع لم آخذ معي شيئاً ولم يسمح لي بأكثر من جلباب النوم الذي ارتديه،

إلّا أن زوجتي أعطتني عشرة جنيهات فلما فتشت في مركز الشرطة أخذوها كـ «أمانة» ثم لم أعلم عنها شيئاً حتى الآن.

وسئلت عن أشياء لم يكن لي بها علم فقال الضابط النوبتجي: أسْقِه شاياً حتى يأتي الضابط المختص.

فإذا الشاي علقة ساخنة نحو خمسين كرباجاً، وزجّوا بي داخل زنزانة حالكة السواد...

ومن قبل، ما دخلت سجناً ولا اعتقلت فَخُيِّل إليَّ أنَّ هذا أسوأ مكان في الدنيا... ولم أمهل حتى تسترسل أفكاري فقد صاح واحد من العساكر: اقفز من هذا المكان فرأيت جداراً يرتفع متراً ونصف متر تقريباً، فلما قفزت وجدتني وسط بركة من الماء القذر عرفت أنه سائل من خزان المراحيض، وشعرت بأنفاس في هذا المكان أو على الأصح في هذا «المرحاض الكبير» حيث كانت مجموعة من البؤساء أمثالي بعضهم اعتقل من يوم والآخر من يومين أو ثلاثة.

ورأيت لوناً من التعاون، فأربعة أشخاص يركعون، وشخص خامس ينام على ظهورهم، ثم يتبادلون ذلك لتعذّر النوم في البول والماء.

كلُّ ذلك في ليل الشتاء القارس وما أدراك ما ليل الشتاء القارس.

شراب الكرابيج:

... مَرَّت على هذا الحال ساعات جفَّ فيها ريقي فهتفت بالحارس: شربة ماء.. فحذَّرني زملائي إلَّا أنَّ الحارس نادى: تشرب بيبسي كولا أو كوكا كولا. قلت: ماء أبلُّ به حلقي. قال: تعال وسحبني بصعوبة وأنا مبلل الثياب كريه الرائحة فإذا أمامي أربعة أشخاص: اثنان معهما عصي والآخران: كرابيج وسألوني: تريد أن تشرب. فقلت: نعم. قالوا: اشرب وانهالوا عليَّ ضرباً. فقلت: لا أريد أن أشرب.

وكنت قد شربت علقةً ساخنةً بالعصي والكرابيج وقفزت في «المرحاض الكبير» مرة أخرى وأنا في حالة يرثىٰ لها.

في التحقيق:

كان الوقت يمرُّ حتى صرنا لا نعرف ليلَه من نهاره، وتعلمنا كيف ينام الإنسان

في مرحاض سائل، لقد كانت تخوننا الأقدام فتهوى أجسامنا في الماء البارد النتن.

شعرنا يوماً بصوت القفل الكبير لباب الحجز وهو يفتح، وتوالى فتح الزنازين ثم اقتادونا فعلمنا أنه «التحقيق».

ساروا بنا في اتجاه مكتب المحقق ومعنا ما يقرب من عشرين شرطياً وضابطين ونحن مكبلون في أيدينا بالسلاسل من الخلف.

وكان المحقق في الدور الثالث، وقفنا بالباب طويلاً حتى استدعاني وقال: الحمد لله على السلامة. قلت: الله يسلمك. قال: أنت مبسوط. قلت: والله مشعارف إيه الحكاية وإيه اللي جابني هنا، قال: ستعرف كل شيء. قلت: أنا من (٢٤) ساعة ما أكلت ولا شربت. قال: علشان تستريح خذ هذه الورقة واجلس في الخارج واكتب كل ما تعرفه عن حياتك، وقرابتك، وأموالك، وكل من تعرف من الناس، وكيف عرفتهم، واتصالك بالجمعيات والأحزاب ودراستك وميولك وهوايتك وكل شيء..

كتبت المطلوب وأعطيتها له فلما قرأها قال: أنت «ابن كلب» أنا باعاملك كـ «إنسان» لكن يجب أن تُعامل أحط من «الحيوان» أنا أخليك تكتب وتتكلم. وفي هذه اللحظة انهال الشرطيان اللذان كانا خلفي عليَّ بالضرب ـ ولا أقول المبرح ـ بل المميت.

وبعد فترة من الضرب قال المحقق: حا تتكلم؟... قلت: أنا قلت كل حاجة، قال: طيب. وجاء عسكريان آخران فأشار لهما، فوجدت نفسي منطرحاً على الأرض بينما وضعت قدماي بقوة في «الفلكة»، وجلس اثنان على صدري الضعيف بينما انهال زملاؤهم على قدمي حتى رحت في غيبوبة.

فلما أفقت قال: هيه حا تتكلم. قلت: أنا با أموت.. أنا عاوز...

أنت عاوز إيه يا ابن الكلب، أنت لازم تموت علشان تتكلم خذوه فربط حبل في قدمي ورفعني الشرطيان إلى سور صغير أمام حجرة المحقق يطل على الدور الأرضي وقالا: أنت حا تتكلم والا نرميك من ثالث دور.

فلم أرد فإذا بهما يقذفاني من أعلى فتمتمت بالشهادة، وأنا أستقبل الموت لكن الملاعين، كانوا قد ثبتوا طرف الحبلَ في قدمي والطرف الآخر بأعلى بحيث لا يصل

إلى الأرض، بل يظل المرء بعد الرمية مُعلَّقاً بين السماء والأرض. . .

صرختُ حين استقر بي الحبل، فوجدت ألسنةً من اللهب تتأجج من تحتي، فرفع الحبل وتكرر ذلك مرات ثلاثاً كنت أودع الدنيا ولم أدر بعدها كيف بقيت حياً. . . لكن حي كالميت الذي فقد الإحساس في هذه اللحظات بكل شيء.

فلما يئسوا مني أمروا بإعادتي إلى الزنزانة.

إلى الزنزانة:

أفقت فإذا أنا أمام الزنزانة ويد تَرْبتُ عليَّ وشخص يسألني: مَنْ أنت؟ فقلت: كتبت كل شيء، لا أعلم شيئاً. فقال في لهجة لم أصادفها: عايز حاجة؟ قلت: أشرب. فعاد بعد قليل بطعام وشراب، ثم قال: هذا لك ولزملائك ولا تخبر أحداً أبداً. والآن ادخل زنزانتك لأنني إنما تركتك لتستريح.

دخلت فارتاب بعضهم في أمري إذ لم يتبيَّنوا وجهي، وألقيت إليهم الطعام في سربة فرفض البعض إذ حسبه سماً، وَمَنْ غَالبهُ الجوع أكل وهو يردد:

من لم يمُتْ بالسيفِ ماتَ بغيره تعدَّدَتِ الأسبابُ والموتُ واحد

ولكثرة العدد في الزنزانة صار الماء القذر الراكد فيها دافئاً فحمدنا الله، على أنَّ الباب لم يلبث أن فُتِحَ وألقى شرطيان لوحين من الثلج ليبقى جو الغرفة زمهريراً مرعشاً.

السجن الحربي:

وقف شرطي ينادي من ورقة على بعض الأسماء التي ستُرحَّل من «الحجز» وكنت من المرحَّلين. . . كَبَّلونا بالحديد وربطوا يدي اليمنى في يد شرطي، واليسرى بيد آخر، وأخذتنا سيارة جيب فيها عساكر مسلحون، وما هي إلَّا لحظات حتى وصلنا إلى «المباحث العامة» بوزارة الداخلية في وسط القاهرة فلقينا في الدور الثاني ضابط فظ اسمه الصاغ أو الرائد «أحمد صالح» يصيح: يا ولاد الكلب أنتم مش عاوزين تتكلموا، أنا حاوريكم وأمر بإخراجنا، فجاء الشرطي يدعو الواقفين حتى انتهوا إلى سيارة كأنها زنزانة صغيرة.

سارت إلى مبنى كبير ضخم من حوله سور له باب، والسور مرتفع يعلوه سلك شائك،

وحول السور زجاج مهشم تنبح حوله كلاب مفترسات.

حوصرنا بلفيف من الجنود المسلحين الذين ساقونا إلى باب ضخم يسع سيارتين متوازيتين..

جاء ضابط وأمر بفك الحديد وقال: اطمئنوا.. هدأت الأعصاب وقلنا وصلنا إلى الأمان، وما هي إلَّا لحظات حتى فُتِحَ بابٌ صغير في جسم المبنى وقيل: ادخلوا فدخلنا، وكانت المفاجأة التي خلعت القلوب، إنها خدعة القراصنة.

ما أن دخلنا حتى انهالت عِصي وكرابيج مع طوفان من السبِّ المقذع وجؤار: اجرِ على المكاتب يا ابن «العرص» أنت وهو، قلنا: فِين المكاتب؟ قالوا: مش عارف المكاتب يا ابن «الوسخ»، وظللنا نجري وهم وراءنا، فكلما وصلنا إلى مكان قلنا: هو ده المكاتب؟ فيقال: يا جاهل يا ابن الجاهل مُشْ عارف المكاتب.

حتى انتهينا بعد دهر طويل إلى جناح برز علينا منه ضابط له نظارة سوداء وفي يده سيجارة وزجاجة كوكا كولا ليستلمنا من مندوب الداخلية.

أقسام السجن الحربي:

والمكاتب جناح فيه الإدارة العامة للضباط وصف الضباط وهي حافلة بالأجهزة والمرافق المترفة أما مبنى السجن فينقسم إلى:

- السجن رقم (١) وهو صغير نسبياً، تتوسطه دورة مياه ومغسلة وحوالي (١٦٠) زنزانة بالإضافة إلى غرف التعذيب.
- وكذا السجن رقم (٢) ورقم (٣).
- أما السجن الكبير فهو مكوَّن من ثلاثة طوابق وبه قريب من (٤٠٠) زنزانة ويوضع به من هم على ذمة التحقيق غالباً.

أما الشفخانة ــ ومدلولها عند المصريين: أنها مكان لعلاج الدواب المريضة في القرى ــ فهي حظيرة مظلمة قذرة ليس فيها أيُّ نوع من العلاج الجدّي، بل تستعمل أحياناً للتعذيب فيصب الماء المغلي على الجروح وغيره...

الطعام في الحربي:

استيقظت من غفوة على صوت العسكري: «يمك» يا ولاد الشرموطة، وجاء دوري، ففتحت زنزانتي وعلمت أن «اليمك» هو طعام السجن.

ورأيت إناءً يحمله اثنان من المعتقلين ومعهم ثالث يحمل فوق رأسه خبزاً. أما الشرطي فيداه: واحدة فيها كرباج والأخرى فيها مغرفة، بينما يحوم حوله كلب كبير سألني: هل معك طبق؟ قلت: لا. فضربني كرباج، وقال: قل: لا يا فندم.

وأعطوني طبقاً من النحاس فيه مغرفة عدس فإذا بالصدأ ــ وهو من السميات ــ يغطي جدرانه الداخلية فصحت بالشرطي: أعطني طبقاً أنظف من فضلك، فتظاهر بالاستجابة وقال: أرني فلما أخذه ضرب به في وجهي وقال: روح هات طبق من عند أمك يا ابن «الوسخة».

الحلاقة:

جاء دوري في الحلاقة، والعسكري «الحلاق» ليست له أدنى فكرة عن الحلاقة. نادى عليَّ: تعال يا حمار وبدأ يحرك ماكينته التالفة في رأسي وهي تنتف الشعر بقوة، وحين أتألم يقول: أنت ما عاجبك حلاقتي يا ابن الكلب، وينهال عليَّ ضرباً، ويستأنف بطريقة أبشع.

على كل حال لم أعرف فضل هذه الحلاقة إلا لمَّا نُتفت رموشي ولحيتي وشعر إبطي وسوأتي بعد ذلك.

الرياضة الجهنمية:

ينادي جاويش السجن: كل الناس برة الزنازين، ويقول: إحنا حاننزل علشان تشمُّوا هَوَا. انزل بسرعة يا ابن الكلب، وما هي إلَّا لحظات حتى يتدفق المعتقلون إلى فناء واسع كبير وهم صفوة أبناء مصر: فيهم الوزير، ووكيل الوزارة، والطبيب، والمهندس، والمحامي، والتاجر، والمزارع، والصانع، والطالب، والمدرِّس، والقاضي، والفرَّاش، والضابط.

ثم ينتظم الجميع في عدة طوابير، والطابور عدة صفوف يحيط بها عساكر مسلحون بالمدافع الخفيفة، وفي أيديهم الكرابيج، ويسير الطابور تحت الضرب العنيف مع الجري الشديد وكلما ازدادت سرعة الطابور ازداد عدد الضحايا الساقطين من على الجانبين من الإعياء والإغماء.

الطوابير:

بعد هذا كله يأتي الضابط ورئيس السجن ليبدأوا شيئاً يرفِّه عنهم، لكن مجيئهم وسط قوات أكبر وتسليح أعتى وأضخم.

ويبدأ رئيس السجن في استدعاء رؤساء الإخوان ليشيروا إلى الواقفين بالرقص بعد أن كانوا يرشدونهم إلى الله تعالى.

وكانت إدارة السجن تحضر نوعاً من الحصى الرفيع وتنثره في مساحة حوالي نصف كيلو متر مربع وتأمر المعتقلين بخلع جميع ملابسهم وأن يسيروا على ركبهم.

ويسمى طابور «السير على الركب» وما أقساه وما ألعنه، لأنَّ الحصى يمزق اللحم حول الركبة ولا ينتهي الطابور قبل ساعات ينظف بعدها الحصى تماماً.

... أما الذين لا يحسنون الحركة لعجزهم أو مرضهم فكانوا يكلفون بنزح خزانات المجاري بواسطة «قصارى» ويفرغونها في فناء السجن.

خدعة «حربية»:

جاء رئيس السجن يوماً والطابور على قدم وساق ونادى: المريض منكم يخرج إلى خارج الطابور حتى يلقى الطبيب فخرج نفر من المطحونين.

... وكانت نكتة ـ على حد تعبيره قاتله الله ـ فإن العساكر أشبعوا كل مريض ضرباً (١٠٠) كرباج حتى يذهب المرض وسط قهقهات الضباط والجنود وتقليبهم كفاً بكف..

ووقف رئيس السجن ليختم هذا المشهد: هنا تعذيب فقط لا علاج، لا نوم، لا أكل، لا شرب، لا راحة، لا ضمير، لا إلـه...

فاهمين يا بهايم يا ولاد الكلب... يا ولاد المعرص.

النظافة:

أما غسل الثياب والأجسام فهذا كان حلماً، أما الوضوء فكان يتم أحياناً إذا فُتِحَت الزنزانة، وخلسةً بعيداً عن أعين الحرَّاس.

وطبعاً لا تقام صلاة الجمع في السجن مطلقاً، ومن يضبط في صلاة جماعة فإنَّ السجن كله يؤدب...

وأذكر أنني لم أستحم إلاَّ مرةً واحدة. . لأنني نزلت أخدم مع طلبة السجن.

ولكن بعض الزملاء اخترع طريقة للغسل بأقل قدر من الماء يأتي بكوب ويبخ به على جسم زميله، ويمرر الصابون أحياناً على رذاذ الماء.

النَّوم:

كان النوم نوعاً من التعذيب، وفي الأيام الأولى كان متعذراً لأنَّ الشخص الذي ينادى على اسمه ولا يرد يجلد (٥٠) كرباجاً.

ومساحة الزنزانة (٢ × ٣) متر، وبها ثمانية أشخاص مع ما يملكون من أمتعة إلى جانب قصرية البول والبراز، ولا منفس إلاَّ خرم صغير بأعلى الزنزانة.

العروسة:

هل رأيت العروسة؟؟

إنها تمثال من الخشب كالصليب الكبير على شكل إنسان فاتحاً ذراعيه ورجليه على شكل (٨)، يعلوها صندوق معدني يحيط بالرأس، وفيها مقابض تمسك الأطراف والوسط حتى إذا ما اقتيد إليها معتقل لم تفلته.

«شهادة» فوق العروسة:

كان المعذَّبون فريقين: فريق عُذِّب، وفريق ينتظر العذاب، وهذا الأخير يقف مواجهاً للعروسة يتعذَّب برؤية العذاب حتى يأتيه الدور.

ولا أنسى ذلك المنظر: إنسان ناحل، عار، مصلوب على العروسة والمحقق إلى جواره يلبس نظارة سوداء وفي فمه سيجار يسأل: تكلم فيأتي الرد على مرأى من الجميع: لا أعرف شيئاً، فيأمر بضربه خمسين كرباجاً، ومع وقع السياط ارتفع صوت صاحبنا بالتهليل: لا إلَه إلاَّ الله، فَنُهِرَ فلم ينتهر فزيد: خمسين وخمسين وصوته يعلو ويعلو. . . ثم يكل ويخفت حتى يتلاشى. . .

ويهزه الجلَّاد ويلمزه لكن هيهات.

لقد فاضت روحه. . .

وإذا سألت ماذا يُصنع بجسده؟ إنه يكوَّم. . . يلفُّ في خيشة ويدفن بلا صلاة ولا تغسيل إلى جانب «السجن الحربي».

ويدوِّن في كشوف الهاربين..!!

أنواع الجلادين:

لقينا صنفاً من جهلة الجنود، تصوروا أنَّ المعتقلين مجرمون لكثرة المحاضرات التي تلقى عليهم فأخذوا يعاملون المعتقلين بكل قسوة وإن كان يلاحظ في تصرفاتهم الرحمة أحياناً.

وصنف ثانٍ لا يمتُّ إلى الإنسانية بصلة، لا ضمير، لا قيم، لا أخلاق، ولا رحمة..

فالإجرام ومنتهى التعذيب مغروس في طبيعتهم.

ومن هذا الصنف «قائد السجن الحربي[1] المصري» الذي كان يقول: فين ربكم علشان أدخله الزنزانة وأعذبه.

وأخذ بقية الجنود يقلِّدونه في بعض العبارات التي تعتبر حكايتها شركاً والعياذ بالله...

وصنف ثالث لم تحتمل أعصابهم فمنهم من أُودع صفوف المعتقلين، ومنهم من أُودع مستشفى المجانين نكايةً فيه ونكالاً به لرحمته وإنسانيته، ومنهم من فُصِلَ أو انهار..

ومن هذا الصنف الثالث كانت تنزل رحمة الله في شكل كسرة خبز. قارورة دواء، لحظة راحة، ضربة خفيفة أحياناً.

طاقية الجنون:

والطاقية عبارة عن جهاز على هيئة غطاء الرأس في حافته طوق من حديد يمكن بواسطة مسامير لولبية تضيُّقه وتوسُّعه حسب حجم الرأس الداخل فيه واستعماله كما يلي:

---

(١) هو المجرم حمزة البسيوني، وقد قتل هذا الشقي في حادث تصادم على طريق مصر ـ إسكندرية الزراعي وقتل معه بعض أسرته، ورفض الأهالي نقل جثثهم من مصارعها لما علموا: من هو؟ ومن هم؟.

ـ يحلق رأس المعتقل.

ـ ويؤتى بأنواع من الحشرات اللادغة مثل النحل والزنابير الحمراء والصفراء.

ـ يوضـع رأس المعتقل داخل الطاقية (المصنوعـة من نحاس) وفيهـا الحشرات التي تبدأ في اللدغ المتتابـع المؤلم.

وفي هذا الجو يطلب إلى «المعتقل» أن يدليَ بأقواله أمام محقق عابث.

فإذا لم يتكلم تطوَّع «مارد» من المردة ليضيق الطوق الحديـد حول الـرأس، فإن ارتفـع صوت باستغاثة أو تكبيـر أو تسبيـح أمعن في تضييق الطوق فـربما كُسِـرَت عظام الجمجمة، وانتهى صاحبنا إلى الجنون أو الموت.

التعليقة الجهنمية:

تربط رجلا «المعـذَّب» ويداه بـرباط من حـديد، ثم يثبت قيـد رجليه في طـرف حبل يتدلى من السقف وسط بكرة معدنيـة، ثم يبدأ العسـاكر في سحب الـطرف الآخر من الحبـل فينشد الـطرف المربـوط في رجـل المعـذب مـع دوران البكـرة في السقف وسرعان ما يتأرجـح في سماء الحجرة ليستجوب على هذه الكيفية أيضاً.

عملية الخلـع:

ولون آخر من ألـوان التعذيب «الخلـع»: والخلـع عبـارة عن فصل أي جـزء من أجزاء الجسم عنه مثل الشعر والأظافر أو بعض أطراف الجسم.

وتبدأ العملية بتقييد الإنسان المعـذَّب على العروسـة وأثناء الاستجـواب يستنطق بشد الرموش ونتف اللحية والسوأة وشد فروة الرأس بكماشة حديدية.

أما خلـع الأظافر فهي عملية بشعة حقاً.

يأتي العسكري بما يشبه «الـزردية»، وهي آلـة لها فكّـان: الأسفل مـدبَّب يغرزه تحت الظفر، والآخر منبسط ليزداد الإحكام، ثم يبدأ في شدِّ الظفر رويداً رويـداً ليذيق «الضحية» أشد العذاب.

الحرق بالنار:

ربمـا لا يصدِّق إنسـان ونحن نحكي منظر الأسيـاخ المحمَّرة من الاشتعـال وهي توضـع على مواطن الكرابيـج على الأبدان فتسمـع صوت الدم وهو يطفىء لهيبها.

وقد لا يصدِّق إنسان ونحن نحكي منظر الولاعة تمتد بها الأيدي الآثمة إلى الأماكن «الحساسة» لتشعل فيها النار.

وربما طُلِيَ الجسم بمادةٍ سريعةِ الاشتعال مثل «البنزين» أو «الكحول»، ثم توقد النار حتى يشتعل بينما يصوب جندي خرطوماً من الماء أو «طفاية غازية» لتستبقي حياة المعتقل... فقط حتى يأتي دور تعذيب آخر..

النفخ:

وهذه الطريقة لا تقل عن أخواتها بشاعة وتنكيلاً يؤتىٰ بـ «المُعَذَّب» فيُصلب على العروسة ويحضر جهاز من أجهزة ضخ الهواء التي تستعمل في نفخ الإطارت ويوضع في فتحة الدبر فلا ينزع حتى يصير المعَذَّب في حجم «المنطاد» ساعات وساعات.

التعذيب بالفحشاء:

والكلام هنا مخجل لمجرد ذكره، فكيف بالإجبار عليه والتنكيل به.

كان المعتقلون يجبرون على إتيان اللواط بعضهم في بعض، ولم يكن هذا مطاقاً ولا ممكناً، فكانت الملابس تُجرَّد ويلصق الجنود أدبار المعتقلين في قبل البعض أو يطرح البعض على وجهه ويلقي الآخر فوقه.

كل ذلك وسط قرقعة الكرابيج ولهيب السياط وماذا يملك الضعاف العجاف المروعون كي يفعلوا ما يطلب منهم.

أما الزنا فما أسهل أن يقيد المعتقل إلى العروسة ويؤتى ببنته البكر أو زوجته أو أمه ليعبث بها الجنود وربما صدرت الأوامر إلى بعضهم بهتكها وصاحبنا مكبَّل في أحضان العروس الخشبية الجهنمية.

إنَّ بعض القوانين الأرضية تعاقب على «هتك العرض» بالأشغال الشاقة المؤبَّدة.

فما العقوبة في حالتنا هذه؟ وعلى من تقع؟ على الجندي الذي فَجَر؟ أم الضابط الذي أمر؟ أم الرئيس الذي قضى وقدر؟...

* * *

كان ذلك كله سنة (١٩٥٤م) وظل أتونه ملتهباً بضع سنين، قُتِل فيها من قُتِلَ،

وسُجِنَ فيها من سُجِن، وخرج إلى المجتمع معطوباً مشوَّهاً من قدرت له حياة على نحوٍ ما..

ويظهر أنَّ روح التجمُّع الإسلامي لم تذهب بها هذه الأحداث السود فتقرر ـ من موسكو ـ ضرب جماعة الإخوان مرةً أخرى.

وأعيد العذاب هذه المرة أوسع دائرة وأشد فتكاً وأشنع بطشاً.

فسيق في ليلة واحدة ثمانية عشر ألف شاب ليذوقوا الآلام التي وصفنا وفوق التي وصفنا.

وكان المسوقون خليطاً من طوائف الأمة الذليلة يجمع بين مهندسي الذرة والبترول وطلاب الجامعات والمدارس المتوسطة وجماهير العمال والفلاحين.

وأستطيع القول أنَّ عشراتٍ منهم قُتلوا في صمت ووُوريت جُثَثُهم في التراب لا يحسّها من أحد.

وظلت رعود الردى تعصف فوق رؤوس هؤلاء المنكودين حتى كانت محنة (١٩٦٧م) وضياع القدس والجولان وسيناء، ومن قبل ذلك ضياع الشرف العربي محلياً وعالمياً.

وأخذ الضغط يخف لأن أذرعة الجلَّادين خارت، وأخذت أشباح المعتقلين تخرج إلى المجتمع قليلاً قليلاً.

ثم مات جمال عبد الناصر وجاء الرئيس محمد أنور السادات، ووقعت ثورة التصحيح، وأغلقت المعتقلات، وأُطلق سراح البقية التي كانت سجينة داخلها.

وبديهي أن تبقى فلول الإخوان مبعثرة فإنَّ ما حلَّ بها يستعصي على العلاج.

إنَّ المخطط العالمي لضرب الإسلام أصاب حظاً كبيراً من النجاح بدون ريب، ولكن هل وصل إلى أهدافه؟ والجواب: لا.

فمن بين الخرائب والأنقاض، ومن بين الأشلاء والدماء نبت بغتة جيل مؤمن غيور يتشبَّث بدينه ويرفض الإلحاد والمعصية، ويطلب العودة الكاملة لتعاليم الإسلام.

ومن بين ضجيج الأقلام الماجنة، والتيارات الماكرة، والمؤامرات الذكية على

عقائد الإسلام وشرائعه وشعائره نبت بغتة جيل يحترم الحقيقة ويمقت البدعة والخرافة ويغالي بتراثه الثقافي والتاريخي ويرفض الزمرة العميلة التي تريد تضليله وبيعه لعدو الله وعدوه.

بيد أني أريد الانتفاع من المحن المنقضية، والاعتبار بما كان من مآسي ومصائب.

لست أطلب القصاص والانتقام من أشخاص ذهبوا أو بقوا، فإنَّ ذلك فوق مستوى أمتنا الآن. كل ما أريد أن نعرف قيمة الحرية والعدالة وأن نصون بهما مستقبلنا إذا حُرِمَ منها ماضينا القريب..

وأريد أن أُعلِّمَ أمتي احتقارَ الجبابرة، وألَّا تترك زمامها بين أيديهم القذرة، فلن يقودوها إلَّا إلى العار والنار.

وأطلب على عجل وبصوت جهير أن تُتْرَك حرية التجمع على الإسلام لمن يريد التجمُّع عليه، فإنَّ الجهد الفردي قليل الجدوى في مواجهة التكتل الذي ظهر يناوش الإسلام ويضنُّ عليه بحق الحياة.

إنَّ ذكريات الذبح والاستباحة تطوف برؤوس كثيرة عندما تفكر في خدمة دينها ولذلك ما يتجمع الآن على خدمة الإسلام إلَّا مخاطرون نبلاء قرروا السَّير مهما كانت الأرزاء والآلام.

ولم هذا كله.

إنَّ الضلال يتحرك بحرية وحفاوة فلم يخشَ المؤمنون؟ ولماذا تخامرهم مشاعر القلق والبأساء.

من أيام مات الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني لجماعة الإخوان[1].

وبلغتني وصيته لقد أوصى أن يدفن خِفْية، لا إعلان ولا مواكب، وطلب أن يُوارى جثمانُه في مقابر الصدقة.

وعقدت لساني دهشة وأنا أسمع العبارة الأخيرة في مقابر الصدقة.

---

(١) توفي ـــ رحمه الله ـــ في عام ١٣٩٣هـ الموافق لعام ١٩٧٣م.

إنني أعـرف حسن الهضيبـي، وقد أصلحت مـا بيني وبينه قبـل أن يموت بنحـو عامين.

في نفس هذا الرجـل ترفُّـع وأنفـة لا يتكلفها، وهـو إذا اعتقد شيئـاً استمات فيـه دون لفٍّ أو مكر.

قلت: لم مقابـر الصدقة.؟.

ولم يغب عني الجواب، لقد كان مستشاراً راسـخ المكانة رفيـعَ الهامة.

لو اشتغل بمهاجمة الشريعة الإسـلامية لنـال جائـزةَ الدولـة التشجيعية التي نـالها غيره.

ولو خدم الغزوَ الثقافي لعاش في شيخوخته موفورَ الراحة مكفولَ الرزق.

ولكنه خدم الإسلام فتجرَّع الصابَ والعلقم. طُعِنَ مـع الدين الجـريـح، وأهين مـع الدين المهان، فأراد أن تصحبه هذه المكانة في منقلبه إلى الله...!!!

فليدفن في مقابر الصدقة مـع النكرات التي لا يباليها المجتمـع.

فليـدفن مـع ناس أسلمـوا أرواحهم في غرفـات السجن الحـربـي وهم رازحـون تحت وطأة عذاب تنوء به الجبال!

الحق يقال: إنَّ الأمة المصرية خاصة والأمةَ الإسلاميـة جمعاء يجب أن تـراجـع نفسها طويلاً قبل يوم الحساب.

وسـواء صَحَا الضميـر الراقـد أم بقي غافيـاً فـإنَّ أعـداء الإسـلام لم يتغيَّـروا في مواقفهم منه، لقد تحركوا مستغلِّين الضربات التي أطارت رشده ومَزَّقت شمله، فطمـع البعض في تهويده والبعض في تكفيره كفراً يقطـع علاقته بتة بالله والمرسلين أجمعين.

وتلك نتـائـج لم يكن منهـا بـدٌ للسيـاسـة التي سلكهـا الـرئيس الـراحـل جمـال عبد الناصر.

وما أَلَّفنا هذا الكتاب إلاَّ بعد ما رأينا أنَّ ارتداد مصـر عن الإسلام، خـطة يتحرك بها كثيرون يعالنون بها ولا يستسرون..!!

وظاهر أن جمال عبد الناصر كـان أداةً رائعةً في يـد القوى العـالمية الحـاقدة

على الله وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله لورد كرومر.

ما تكون «دنشواي» بجانب مجازر طرة والحربي وغيرهما من سجون؟

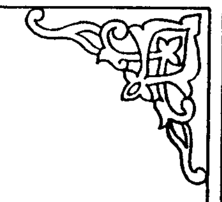
ومعلوم أنَّ مصر، والعرب كلهم، والمسلمين في القارات الخمس مكلَّفون بالتفريط في عقيدتهم وأرضهم، وأنَّ مأساة فلسطين نموذج لمآسي أخرى عديدة.

ومعلوم أنَّ الحرب المعلنة علينا تعتمد على جماح ديني عند اليهود، والنصارى، أعني المستعمرين منهم، وأنَّ الدفاع لن يتماسك أو يتم أو ينجح إلاَّ بعاطفة دينية مقابلة تردّ الجماح المعتدي.

لقد كانت رسالة الزعيم المصري أن يميت العاطفة الدينية عند المسلمين، وأن يطارد كل أثارة من إسلام حي. أي كان يمهِّد للتعصب الزاحف ويدع الطريق أمامه مفتوحاً:

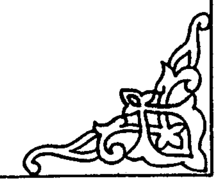
﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

* * *

الفصل الخامس

- شبهات من كل مكان.
- غلطة فلكية!
- الكسوف والخسوف.
- غلطة جغرافية!
- الشهاب الراصد.
- خزان المياه!!
- فهم عجيب!
- حد السرقة.
- نبيٌّ مرعب!
- كذب على رسول الله.
- نماذج لتحريف الكلم.
- المداد القرآني.
- حديث الذباب.
- أساطير العهد القديم.



الفصل الخامس

شبهات مـن كـل مكان

أتانا وافد من «أسيوط» بوريقات تضمَّنت عشـرات المطاعن ضـد الإسلام كتبهـا شخص يدعى «كميل جرجس» وجمـع عليها بعض طلاب الجامعة!

وتصفَّحت على عَجَل مختلف الموضوعات التي تعـرَّض لها الكـاتب ورأيت أنها تحتاج إلى ردٍ وبيان، وسيعرف القرّاء قيمتها عندما نذكرها.

وقد أسافر إلى أسيوط لأحسم العلة من جذورها، ويكفي هنا أن أسوق أمثلةً لمـا يشاع عن ديننا ويجد طريقه ممهوداً إلى أدمغة القاصرين!!

* * *

غلطـة فلكيـة

كذَّبَ الكاتب قوله تعالى:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾. [يس: ٣٨].

وزعم أنَّ ذلك يخالف العلم.

أي عـلـم؟!

إنَّ جـريان الشمس مـع أسـرتها المعـروفة في فضـاء الله الواسـع مقـرَّر فلكيـاً. لم ينكـره أحد قط، ولكن «عبقـري أسيوط» يـريد تكـذيب القرآن فحكى دورة الأرض حـول محورهـا، ودورتها حـول أمها الشمس، ثم قـال: «من هـذا يتضـح أنَّ الشمس لا تجري ولا تذهب لتسجدَ تحت العرش، وأنها لا تغرب في عينٍ حَمِئة..».

والاستنتاج مضحك فقـد فهم العبقري أنَّ دوران الأرض حـول الشمس يعني أنَّ الشمس ثـابتة، وفهم من قـوله تعـالى: ﴿وجدهـا تغـرب في عين حمئـة﴾ أنَّ الشمس تغطس في الماء يومياً ثم تخرج!!

ولم يدرك ما يعرفه الأطفال عندنا أنَّ اختفاءَ قرصِ الشمس في الماء إنما هو في عين الرائي لا في حقيقة الأمر!!

أما أنَّ الشمس تسجد لربها فإن الجمادَ والنباتَ والحيوانَ والكائناتِ جمعاء خاضعةٌ لله تسبِّح بحمده وتهتف بمجده وتلبِّي أمره وهي طوع مشيئته..

ويوم لا يأذن للشمس في الشروق، وينهي أمر الدنيا، ويفتح يوم الحساب فمن الذي يعصيه؟

ويظهر أن المسكين فهم من سجود الشمس أنها تصلي ركعتين كسائر البشر!!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾. [الحج: ١٨].

* * *

الكسوف والخسوف

قال الكاتب: جاء في سورة الروم:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾. [الروم: ٢٤].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري قال: خَسفت الشمس فقام النبيُّ فزعاً يخشى أن تقوم الساعة فأتى المسجد فصلَّى بأطول قيام وركوع وسجود، ما رأيته قط يفعله، وقال: «هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوِّف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره»[١].

وبعد أن ذكر الكاتب التفسير العلمي للبرق، والكسوف، والخسوف كما هو مقرَّر في الكتب المدرسية قال: «إذن فالواضح أنه ليس الهدف من البرق أن يخوِّف الله

---

(١) رواه البخاري.

البشر، أو الهدف من الكسوف ما ظنه البعض بجهالة أنه لموت إبراهيم (ابن النبي)، أو خشية قيام الساعة، بل الأمرد مجرَّد ظواهر طبيعية عادية، وهذا هو فضل العلم الحديث على البشرية جمعاء، ولكنهم لم يكونوا يدركون ذلك بعد، وكان تفسيرهم لتلك الظواهر نابعاً من استنتاجات محدودة».

ونقول: هذه الظواهر الطبيعية العادية كما يسميها الكاتب، هي آيات الله في منطق المؤمنين به. فحياة الأرض بعد نزول الماء آية، وإنْ سمَّاها ظاهرة طبيعية، والتفريغ الكهربي الناشىء من تلاقي السحب آية سواء أحدث صوت الرعد أم ضوء البرق.

ورجاء الناس في أن تهمي هذه السحب طمع في محله لا يستغرب، وخوفهم أن يكون البرق وليد سحاب جهام لا خير فيه خوف في محله لا يستنكر. ولو خشوا أن يتحول التيار الكهربائي إلى صواعق مهلكة فخشيتهم طبيعية لا نكير عليها..

أما تصور الكاتب أن الناس تخاف البرق لأن عفريتاً يصنعه فهذا تصور أطفال، والآية التي أوردها عن البرق والمطر واحدة من ثماني آيات متتابعة تصف ما يسميه ظواهر طبيعية وصفاً جليلاً رائعاً يحييه العلماء من قلوبهم.

أما قصة الكسوف فلا ندري مقدار العمى الذي صحب الكاتب وهو يذكرها، لقد وهل الناس أنَّ الشمس كسفت لموت إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام، فقام النبي ينفي ذلك بشدة مؤكِّداً أنَّ الكسوف والخسوف آيات إلّهية، أو بالتعبير الحديث ظواهر طبيعية.

وزهد صاحب الرسالة في المجد الذي أتاحته الظروف!! وكان في وسعه أن يسكت تاركاً هذا الظن يستقر، ولكنه أبى، وأمر أتباعه بالصلاة تحية لرب الأرض والسماء وانحناءً أمام عظمة مسيِّر الكواكب في الفضاء.

أهذا مسلك يعاب؟! شاهت الوجوه..

ومعروف في سيرة النبيِّ الكريم أنه كان شديدَ الرقابة لله، شديدَ الخشية منه، وربما تعصف الريح فيقلق خشية أن تكون ريحاً مدمِّرة يعذِّبُ الله بها المتمرِّدين عليه، فهل قالوا: إنَّ هبوب الريح من علامات الساعة؟

وهل خوف النبـي من أن يكون الكسوف إيذاناً بـاقتراب السـاعة يـدل على شيء أكثر من شعوره الحي بقرب لقاء الله.

ولنترك ما حكاه «أبو موسى الأشعري» في ذلك ولنتدبر ماذا قال الرسول نفسه عن الكسوف والخسوف؟ قال عنهما: آيتان من آيات الله.. وحسب..

فأي اعتراض علمي على هذا؟

ويقـول الكاتب: «يحـدد لنـا العلم أن الكسـوف للشمس، والخسـوف للقمـر»، وليس كما جاء في الحديث: «خسفت الشمس».

الجواب: ليس هذا تحديداً علمياً، وإنما هي اصـطلاحات تـواضـع عليها بعض النـاس لا تؤثر في طبيعـة اللغة العـربيـة التي تسمـح بـاستعمـال الكسـوف والخسـوف للشمس على سواء.

إن كلمـة «التبشير» شـاعت فيما يفـرح، ولكنها لغـة تستعمل فيمـا يسـر، وفيمـا يسوء.

وكلمة «أصاب» أو «مصيبـة» تستعمل في الآلام والمتـاعب، ولكنها لغـة تستعمل كذلك في الأفراح:

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٩].

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾. [يوسف: ٥٦].

ولكن عبقـري أسيوط الـذي لا يعرف من لغـة العرب إلَّا نَـزْراً يـريـد أن يتصيَّـد أخطاء لغوية لرجال البلاغة العربية.

* * *

غلطـة جغرافيـة!

وننقل هذه «النكتة» ليتفكه بها القرَّاء:

روى البخـاري بسنده أن النبـي ﷺ ذكـر مواقيت الحـج: قـرناً لأهـل نجد، وذا الحليفة لأهل المدينة، والجحفة لأهل الشام، ويلملم لأهل اليمن «وذكر العراق فقال: لم يكن يومئذ عراق..».

وليس يعنينا: من سأل ولا من أجاب وبديهي أن معنى «لم يكن يومئذٍ عـراق» أنه

لم يكن حجيج وافدون من العراق . .

لكن أخصائي الشُّبه قال: «ولكن الواقع العلمي يثبت ويؤكد أنه كان يومئذٍ عراق، ولكن القوم لم يكونوا قد ذهبوا إليه!! أو سمعوا عنه!! . . »

العرب في الجزيرة والشام لم يكونوا يعرفون أنَّ هناك قطراً مجاوراً لهم اسمه العراق.

لقد كان سكان العراق عرباً، وكانت علاقاتهم بسكان الجزيرة قائمة، وكان العرب إذا ذهبوا إلى فارس أو الهند مروا طبعاً بالعراق.

ولقد وصف النبي قصور «الحيرة» كبرى مدن العراق يومئذ للمسلمين وهم محصورون وراء الخندق، وبشَّرهم بأنهم سيفتتحونها، فكيف يقول أبله: إن العرب كانوا يجهلون وجود العراق لأنَّ «علم الجغرافيا» لم يكن تأسس بعد!!

* * *

الشهاب الراصد

ويتحدث الكاتب عن الشهب الساقطة فيكذب ما ورد في القرآن من أنها رجوم للشياطين.

جاء في سورة الجن:

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾. [الجن: ٨ ــ ٩].

. . . ونقول: أجمع علماء الكون على رحابته، واتساع آفاقه والسؤال الذي نورده: هل أبناء آدم وحدهم هم العقلاء الذين يحيون فيه؟!. أيبني رجل قصراً من سبعين ألف طبقة ثم يسكنُ غرفة منه ويدع الباقي تصفر فيه الريح؟ فلمَ بناه بهذه الضخامة؟

الواقع أنَّ هناك غيرنا يسكن هذا الكون، ومن هؤلاء «الجن» الذين تحدثت عنهم الأديان، فإذا حاول أحدهم التمرد، وإفساد الهِداية النازلة لأهل الأرض، فما المانع من إرسال شهاب وراءه يحرق كيانه؟

ولم يقل القرآن الكريم أنَّ «كلَّ» شهاب يلمع فهو وراء شيطان سارق! لم يرد هذا القصر في القرآن قط، فقد تتساقط الشهب لأمور أخرى لا ندريها، ولم يعرف العلم المعاصر عنها شيئاً.

ومن هنا فإنَّ القول بأنَّ القرآن «أصبح يتناقض مع العلم في قصة الشهب» لغو لا أصل له.

* * *

خزان المياه!

ويكذِّب الكاتب النابغ قوله تعالى:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾. [الحجر: ٢٢].

فيقول:

أصبحنا بعد إقامة السد العالي من أكبر الخازنين لمياه الأمطار.

وبذلك تكون الآية كاذبة!!

فإن خزن المياه في «الأزيار» أو في «الصهاريج» أو وراء السدود لم يكن معروفاً في الدنيا حتى بني سد أسوان.

أرأيت هذا العمى؟؟

إنَّ خزن مياه الأمطار على هذا النحو معروف للأولين والآخرين.

والآية تشير إلى معنى رائع فإن الزروع تحتاج إلى الماء لتنمو، والناس والدواب تحتاج إلى الماء لتحيا، وقد تكفَّل الله بإعداد المقادير من الماء الصالح لسدِّ هذه الحاجات كلها، ورتَّب لذلك عمليات البخر وتكوّن السحب وسقوط الأمطار، وتفجّر الينابيع أو جريان الأنهار..

وستذوي أعواد النبات وتفنى أجساد البشر، ويعود ما في هذه وتلك وغيرهما من ماء، ليأخذ دورة البخر والسحب والأمطار.. إلخ، وهكذا دواليك[1].

---

(١) أكدت هذا المعنى آية أخرى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنّاه في الأرض، وإنا على ذهاب به لقادرون﴾.

وتوفير العذوبة للمـاء، وحفظ القدر الـذي تحتاج الـدنيا لـه هما معنى الاختـزان الوارد في الآية.

ومـا فَهِم ذكيّ ولا غبـي أن النـاس عـاجـزون عن خـزن الميـاه لأنفسهم في قُلَّة أو زير أو مستودع صغير أو كبير. . !!

* * *

فـهم عـجيب!

وتصفحت الكـراسة التي بين يـدي، وهي مليئةٌ بلغـو مُمِل لأتبيَّن حـدودَ الهجوم على القرآن الكريم فوجدت الكاتبَ يتحدث عن ابنَيْ آدمَ اللذين قتل أحدُهما أخاه.

والقصة معروفة: أخ صالـح تقـرَّب إلى الله بقربـان فقبله منه، وأخ شـرير تقـرَّب كذلك فرفض الله قربانه، فتوعَّد الشـريرُ أخـاه بالقتـل، ولكنَّ الأخ الطيب نصـح أخـاه الفاشل قـائلاً: ﴿إنَّمـا يتقبَّل اللَّهُ من المتَّقين﴾، أي اتَّق اللَّهَ ليقبـل منك عملك، كمـا قبل مني ولـم تجدِ النصيحة، وافترس الشرير أخاه.

وقد تناول عبقري أسيوط هذه القصة، وذكر أنها واردة في التوراة.

لماذا؟ يقول هذه القصة لو تمَّت على هذه الصورة لكان القـاتل بـريئاً إذ تعـرَّض بسبب رفض قربانه لحالة نفسيةٍ قاسيةٍ نتيجة شعوره بعدالة مـا كان يـرنو إليـه من قبول، ثم يقول: «إنَّ القصة تشير بأصابـع الاتهام إلى المحرِّض على القتل، وهو الذي رفض قبول القربان».

ثم يقول المغفل عن الله: «إنه لو كان قبل القربان ما تمَّت الجريمة».

ووقعت عينـاي على هذه العبـارات في أثناء هجـوم الكاتب على «حـد السرقـة» يقول: «أما عن تحريم الأديان للسـرقة فقـد كان الغـرض منه تـرضية الأغنيـاء وتأمينهم على مالهم وضمان تأييدهم، إذ المفروض بداهة ألا يسرق إلَّا الفقير»!!

ويقول: «التأميم هـو اغتصاب شـرعي لما سبق أن اغتصب ظلمـاً من الجماهيـر الكادحة فهو تصحيـح للأوضاع وإزالة للظلم التاريخي المتأصل».

وقد يلومني بعض القرَّاء لاهتمامي بذكر هذه السخافات والـرد عليها، ولـو علموا ما تَرَكَته من آثار بين طلَّاب الجامعة في أسيوط لعذروني.

إنَّ هؤلاء الطلاب لم يعرفوا عن الإسلام شيئاً، والخطة الموضوعة «لتخريجهم» باعدت بينهم وبين الثقافة الإسلامية الناضجة، والسليقة الأدبية العالية، حتى إذا تركوا الجامعة بعد نيل «إجازاتها» خدموا كل شيء إلاَّ دينهم، وأصبحوا فريسةً سهلة لمبشرين محتالين، أو أفَّاكين من النوع الذي قرأت هنا شبهاته ضد القرآن الكريم..

وما وقع في «أسيوط» وقع قريب منه في «الإسكندرية» ونتج عنه ارتداد بعض الفتية والفتيان

إنهم مساكين غير محصَّنين بشيء ضد الإلحاد أو الشرك.

ولما كانت كتب السنَّة قد تضمَّنت أشياء تحتاج إلى بيان وتمحيص وكشف فلا بد من الوقوف قليلاً أمام ما أثاره هؤلاء الفتَّانون.

* * *

نبيٌّ مرعب!

قال لي طالب جامعي بالإسكندرية: لقد أروني كتاب البخاري، وقرءوا لي منه حديث «نصرت بالرعب» وتضاحكوا وهم يقولون: «نبي مرعب» ينشر دينه بالإرهاب، والاعتراف سيد الأدلة!!

وقلت للطالب: إنَّ البخاري وغيره رووا هذا الحديث، وأريد أن أشرح لك المعنى الوحيد له مستعرضاً مواضع هذه الكلمة لا في السنة الشريفة، بل في القرآن الكريم، لتعلم أنها أتت في سياق حرب «دفاعية» عن الحق، «هجومية» على الباطل، لا عدوان فيها ولا إرهاب..

بعد هزيمة المسلمين في أُحد نزلت هذه الآية:

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾. [آل عمران:١٥١].

وهزيمة أُحُد كانت في أعقاب خروج المشركين من مكَّة، وشنِّهم الهجوم على الإسلام وأمته في المدينة.

وقد استطاع المشركون إيقاع خسائرَ جسيمة بالمدافعين عن الدين وموطنه

الجديد مما ترك آثاراً سيئة في النفوس..

فأراد الله أن يواسي جراحهم، وأن يشعرهم أنَّ القتال القادم سيكون لمصلحتهم، وأنه سيقذف الرعب في قلوب المعتدين عندما يكرِّرون هجومهم. فماذا في ذلك من عيب؟

وجاءت هذه الكلمة عندما خانَ يهود بني النضير عهدهم، وحاولوا قتل النبي ﷺ، فجرَّد عليهم حملة ليؤدبهم، ولكن القوم دون قتال حلَّ بهم الفزع وقرروا الجلاء عن المدينة:

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴿٢﴾﴾. [الحشر: ٢].

وأخيراً ذُكرت هذه الكلمة عندما انضمَّ يهود بني قريظة إلى الأحزاب التي أحاطت بالمدينة تبغي دكَّها على من فيها، وأعلنت حصاراً رهيباً عليها.

وكان بنو قريظة قد أعطوا العهدَ من قبل على أن يعيشوا مع المسلمين في سلام شريف، واعترف رئيسهم بأنه لم يجد من النبي إلَّا خيراً، ومع ذلك فقد انتهز الفرصة التي سنحت، وأعلن الحرب الغادرة وظنَّ أنه سيقاسم المشركين الغنائِم بعد الإجهاز على محمد وصحابته. ولكن قَدَرُ الله كان أغلب، لقد فَضَّ الله جموعَ المحاصرين:

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾. [الأحزاب: ٢٦].

أإذا وقعت حرب الآن بيننا وبين إسرائيل، حربٌ جَادَّة يستعلن فيها الإسلام وتتَّحد الكلمة ويتقدم ليوث محمد يطلبون إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، وفزع اليهود لهذا الزحف الجديد، الواثق العنيد، أإذا حدث ذلك وسرَى الرعب في قلوب أعدائنا قيل عنا أننا إرهابيون؟

* * *

نماذج لتحريف الكلم!

إن تحريف الكلم عن موضعه شيء مألوف عند أعداء الإسلام.

لقد نصر الله نبيه محمداً بالرعب كما قال، فهلا قيل نصره في أي قتال؟

إنَّ أشرف قتال وقع على ظهر الأرض هو القتال الذي خاضه محمد وأصحابه.

ولقد شعرت بشيء غير قليل من الضيق وأنا أقرأ قول الكاتب الأسيوطي «توفي محمد عن ثلاث وستين سنة بعدما رفرفت راية التوحيد وطهرت الأرض من الوثنية في أعقاب غزوات ضارية، متعددة بلغت تسع عشرة غزوة ـ كما يقول البخاري ـ هي على التوالي: العشيرة، بدر، أُحد، الرجيع، رعل وذكوان، الخندق، بنو قريظة، ذات الرقاع، بنو المصطلق، الحديبية، خيبر، مؤتة، تبوك، الفتح، حنين، الطائف، ذات السلاسل، سيف البحر».

وبغضّ النظر عن الترتيب التاريخي، ما رأي القارىء إذا قلت له: إنَّ عشراً منها على الأقل لم يقتل فيها أكثر من عشرة أشخاص هم مجموع خسائر المشركين!!!

وإن جملة الوثنيين في شتىٰ المعارك الكبرى تتجاوز المائتين قليلاً. وإنَّ خسائر اليهود في صراعهم مع الإسلام عِدَّة مئات من القتلى.. هذه هي الغزوات الضارية المتعددة التي نشرت الإسلام كما يزعم الأفَّاكون!: خسائرها الحربية عشر، بل نصف عشر الفتنة التي وقعت بين الكاثوليك والبروتستانت في عيد «سان بارثلميو».

... خسائرها قطرة دم أريقت لمنع العدوان، نعم قطرة بالنسبة لحمَّامات الدم التي صحبت تطبيق الشيوعية، وتوطيد سلطانها.

قطرة بالنسبة للألوف المؤلَّفة الذين ذبحوا في صمت أو في ضجَّة لدعم الحكم الفردي المطلق.

وبعد أن أحرقت رُفات الضحايا سمعت أغرب صيحة في العالم: إنَّ الشيوعية تدعو للسلام!

والشيوعية في هذا النفاق الفاخر تقلِّد الصهيونية والصليبية.. المتهم المسكين هو ديننا وحده!!!

* * *

كذب على رسول الله؟!

ونعود إلى ذكر الأحاديث التي هاجمها المستشرقون والمبشّرون وسماسرتهم.

روى الكاتب الأسيوطي أنَّ رسول الله قال: «إذا غضب الله على قوم أمطرهم صيفاً»(١).

وبني على هذا الحديث جهل قائله بالحقائق الجغرافية.. ونقول ما رواه الكاتب كذب، والحديث باطل موضوع.

وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه حَرَّم الثوم تحريماً قاطعاً مع ما فيه من فوائد غذائية وطبية.

ونقول: هذا كذب فأكل الثوم والبصل والفجل جائز، وهذه المواد مباحة كلها، ولكن على آكلها ألا يؤذي المجتمع برائحة فمه، ويستطيع أن يبتعد عن غيره ويقوم بأي عمل انفرادي، وتسقط عنه صلاة الجماعة، بل إن الأبخر تسقط عنه صلاة الجماعة، رحمة بالآخرين..

وروى الكاتب حديث «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» وكذبه قائلاً: الحمى ليست من فيح جهنم، بل هي من فيح الأرض، وما فيها من قاذورات تساعد على تولّد الجراثيم..

والكاتب كاذب والحديث صحيح(٢) وما قاله ليس رداً، فإنَّ الحمى مهما كان سببها ترفع درجة الحرارة، وتكاد تصدّع الرأس بآلامها فإذا شبهها النبي بعذاب جهنم، وأوصى أن تخفض درجة الحرارة بالمبردات، فهو محق.

وذكر الكاتب الحديث القدسي: «إذا ابتليت عبدي بحبيبيه فصبر عوضته عنهما الجنة»(٣)، (يريد عينيه). ثم علّق عليه بهذه الكلمات الحمقاء:

---

(١) لم أجده حتى في كتب الموضوعات المشهورة!!.

(٢) الحديث رواه البخاري، والترمذي، وابن ماجه: كلهم في: الطب؛ ورواه مسلم في «السلام»، والدارمي في الرقاق، ومالك وأحمد.

(٣) رواه أحمد: ٣/١٤٤ ط الحلبي؛ والبخاري في كتاب المرضى، والدارمي في الرقاق؛ والترمذي في الزهد.

الرأي متروك لأطباء العيون ليقرروا هل فقد البصر ابتلاء من الله أم هو ناتج عن أمراض معينة؟

ثم قال بعد لغو طويل: «إذن المسألة ليست الصبر أو التعويض عن فقد العينين بالجنة!! المسألة كلها نقص في المستوى العلمي آنذاك!!»

والمرء يتحيَّر في هذا الغباء، هل يقال لمن أصيب بانفصال في الشبكية مثلاً: انتحِر فقد فقدت نورَ الحياة، أم يقال له اصبر واحتسب؟!

وهل الوصية بالصبر تعني عدم التماس العلاج إن وجد إليه سبيل؟

لقد أمرنا رسول الله ﷺ بالتداوي والتماس العافية من أيِّ سبيلٍ ميسور.

لكن ما العمل إذا لم ينفع الدواء؟ أيقول الأنبياء للمرضى: موتوا بغيظكم. أم اصبروا على قضاء ربكم، يأجركم يوم اللقاء بما يطيب خاطركم.

وذكر الكاتب حديثَ رسول الله في الطاعون ثم أخذ يتخبَّط في التعليق عليه، وتعليمات النبي ﷺ في ذلك تحصر الوباء في أضيق نطاق ممكن لأنه يقول: إذا سمعتم بالطاعون في بلد فلا تسافروا إليها ولا تخرجوا منها..

ولا شكّ أنَّ الباقي في بلد تحدِّثه نفسه بالفرار نجاةً بحياته، بَيْد أن النبي الكريم يوصيه بالبقاء ـ منعاً للعدوى ـ كما أسلفنا ويجعل لمن مات مصاباً أجر شهيد، وهي مواساة كريمة، ووعد مصدوق..

وبديهي أن يكون هذا الأجر الأخروي لمن يؤمن بالآخرة وحده، إذ ماذا ينتظر من الله منكر لوجوده، أو مفترٍ الكذب عليه؟!

لكن هذا الأسيوطي المسكين يسوق حديث البخاري في هذا الموضوع على هذا النحو:

روت عائشة قالت: «سألت رسول الله عن الطاعون فأخبرني أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمةً للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون في بلده فيمكث صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلَّا ما كتب الله إلَّا كان له أجر شهيد»[1].

---

(١) رواه البخاري وأحمد.

ثم يتساءل: «والآن لا نقول ما رأي الطب في هـذا القول»؟ بـل ما رأي المثقف العـادي؟ وبعد ثـرثرة فـارغة يقـول: «أرجو كبـار الأطبّاء أن ينـظروا في مراجعهم حتى يشرحوا نوع الشهادة التي رأىٰ محمد أن يخصَّ بها المسلمين فقط. .»

وما نجد شيئاً نعقب به على هذا الغباء. .

ومعروف من تعاليم الإسـلام أنه شـديد الاهتمـام بنظافـة البدن، وتنقيتـه من كل درن، ومـا دام الإنسان يـأكـل الـطعـام فهـو محتـاج إلى إرشـادات مهمـة لاستقبـالـه، والخلاص من فضلاته.

ولم يُؤثـر عن أحـدٍ أنـه أمـر بتـطهيـر الفم كمـا أُثِـرَ ذلـك عن محمـد عليـه الصلاة والسلام.

ولم يُؤثر عن أحدٍ أنه أمر بالتطهر التام من آثار الفضلات الأدبية كما أُثر ذلك عن الإنسان الطهـور الوضيء مـحمـد بن عبـد الله، فقد أوصى بـاستخدام المـاء، بعد أن أوصى بإزالة القذى دون ملامسـة اليد لـه، ولا بأس في بيئـة صحراويـة من الاستعانـة ببعض الحصى في ذلك تنزيهاً لليد عن مباشرة النجس!! ومـع ذلك كله فقد أمر بدلك اليد بالتراب، أو بأي مزيل للروائـح الكريهة! ماذا يفعل أكثـر من ذلك لتكـريم الجسد الإنساني؟

وفي الجنـابة إذا كـانت هناك آثـار للسائـل المنـوي تغسـل، ويُنقَّى منهـا البـدن والثوب، مـع أنَّ السائل المنوي طاهر عند فريق من الفقهاء.

غير أنَّ عبقري أسيوط دخل في هذه القضية بفكر متعصِّب قَذِرٍ فذكر عن ميمـونة ــ زوج النبـي ــ أنـه اغتسل من الجنـابة فغسَـل فرجـه بيده ثم دلَّـك بها الحـائط، ثم غَسَلها، ثم توضَّأ وضوءه للصلاة، فلما فرغ من غسله غسل رجليه»[1].

قال الكاتب: «في هذا الحديث نقف عنـد جملة معيَّنة هي: «فغسـل فرجـه بيده ثم دلَّك بها الحائط»، أي مسـح يده بالحائط، أليس هذا التصرف ناقلاً للعدوى لو أنَّـا تابعناه. . إنَّ الطب يؤكد أنَّ أمراضاً كثيرة مثل الديدان المعوية والبلهـارسيا تنتقـل بهذا

---

(١) رواه البخـاري؛ ومسلم؛ والإسمـاعيلي في مستخـرجـه؛ وابن حبـان. راجع التلخيص الحبير ١/١٤٣.

التصرف من المريض إلى السليم..»، وهذا كذب في كذب، من قال: إن أي زوج ينقي جسمه من آثار المباشرة الجنسية ينقل البلهارسيا وديدان الأمعاء؟!

والكاتب الذي يمدُّ عينه إلى هذه الشؤون كيف ينسى ما عنده من تعاليم تجعل ما يخرج من جسمه ـ أيّاً كان ـ ليس نجساً.. أي الفريقين أطهر وأشرف؟ هل نذكر له ما ورد في الأناجيل من ذلك؟[1]

إنَّ التوجيهات المحمدية في ذلك بلغت القمة، أما ما ينقل عن غيره فيثير الغثيان.

وإذا لم يكن الكاتب نصرانياً وكان شيوعياً فهل يدلنا كيف كان ماركس يتطهر؟ إنَّ إبقاء الغطاء على هذا الموضوع أحفظ للمروءة وأصون للذوق العام.

ويتهكم الكاتب بالطهارة الرمزية المعروفة في الإسلام باسم التيمم. ونحن نقول له: إذا كنت تضيق أن يمسَّ الترابُ بعضَ أعضاء الإنسان، فما رأيك إذا كان الكتاب المقدس يأمر بابتلاع هذا التراب نفسه[2].

وينكر الكاتب وجودَ السماء قائلاً: إنَّ الفكر البشري أيام جهالته أخطأ في فهم الزرقة التي تحيط بنا، فوصفها بأنها سقف الأرض وسمَّاها سماء، ثم جاءت الأديان فأكَّدت ذلك، وزادت بأنْ حَدَّدت عدد طبقاتها، وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى أبطله العلم.

ونقول: تطلق السماء لغة على كل ما علا. وقد أطلق القرآن الكريم السماء على السَّحاب. قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴿٢٧﴾ ﴾. [فاطر: ٢٧].

وفي آية أخرى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾. [النور: ٤٣].

---

(١) يراجع كتابنا «دفاع عن العقيدة والشريعة».

(١) سنسوق النص بعد قليل عند الحديث عن الاعتراف.

ـ أي المطر ـ.

ومن الآيتين معاً نعلم أنَّ السماء هي السحاب.

وأطلق القرآن السماءَ على السقف العادي، وكل ما ارتفع:

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾. [الحج: ١٥].

وتطلق السماوات السبع على طباق فوقنا لا نعرف: ما هي، ولا ما أبعادها، ولم يتحدث الدين عن مادتها، ولا عن طريقة بنائها، فماذا في العلم يخالف ما أسلفنا بيانه؟

يقول هذا الكاتب: وراء النجوم فراغ لا نهائي، لا محدود..

ونقول هذا كذب، فالكون محدود، والوصف بالمطلق هو لله وحده، ولم يقل علماء الفلك أنهم استيقنوا من أن كوننا هذا لا نهائي..

ثم يجيء الكاتب إلى قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

فيزعم أن هذا الرأي يناقض جميع النظريات العلمية، كما يعرف ذلك طلاب المدارس..

لقد فهم الأحمق من الآية أنَّ الأرض كانت ملزوقة في الزرقة الفضائية قبل أن تنفصل وحدها.. وهذا ما لم يقله أحد.

سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال: فَتَقَ السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات..

وهناك رأيٌ علمي بأنَّ المجموعة الشمسية كانت سديماً، ثم انفصلت عن الشمس وتوابعها على نحو ما نرى.

ونحن لا نصدِّق ولا نكذِّب رأياً علمياً لم يستقر في وضعه الأخير.. والمهم أنَّ القرآن يستحيل أن يكون به ما يناقض حقيقة علمية مقررة.

* * *

المداد القرآني!!

ومن سخافات المسكين أن يقول إن القرآن كله تتم كتابته بقطرات من محبرة، فكيف يجيء به:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴿١٠٩﴾ ﴾.

[الكهف: ١٠٩].

إن كلمات الله تكثر كثرة ما يعلم، وقد وسع كل شيء علماً، إنها الكلمات المتصلة بتدبير الوجود كله، والقيام على أمره، إنها تتصل بحياة كل ذرة في الأرض والسماء.

وليست بداهة ألفاظ القرآن، ولكن الجنون فنون..

ولا أريد أن أطيل السَّرد، والأخذ والرد مع شخص يهزل ويرى أنه يجد!!

* * *

حديث الذباب!!

أريد أن أقرر حقيقة إسلامية ربما جهلها البعض: هل رفض حديث آحاد لملحظ ما يعدُّ صدعاً في بناء الإسلام؟

كلا، فإن سنن الآحاد عندنا تفيد الظنَّ العلمي، إنها قرينة تستفاد منها الأحكام الفرعية في ديننا، فإذا وجد الفقيه أو المحدّث أن هناك قرينة أرجح منها، تركها إلى الدليل الأقوى دون غضاضة.

ومن شروط الحديث الصحيح: «ألَّا تكون فيه علة قادحة»، فإذا بدت علة في «سنده» أو «متنه» تلاشت صحته، ولا حرج.

وأئمة الفقه الإسلامي بنوا اجتهادهم على هذا النظر الصائب.

● فأبو حنيفة مثلاً رفض أن يترك المسلم إذا قتل كافراً دون قصاص وتجاوز حديث البخاري في ذلك: «لا يُقتل مسلم في كافر»، واعتمد في مذهبه على آية ﴿النفس بالنفس﴾.

● ومالك كره أن يتنفل المصلي قبل فريضة المغرب، ولم يلتفت لما رواه

البخاري في ذلك من استحباب صلاة ركعتين لمن شاء، ورأيه هذا يرجع إلى عمل أهل المدينة أدل على السنَّة من حديث آحاد، وهم لا يتنفلون قبل المغرب فاتباعهم أولى من رواية البخاري.

وأبو حنيفة ومالك جميعاً يكرهون أن يصلي المرء تحية المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة، ويردون ما رواه البخاري في ذلك بردود شتى.

وأغلب الأئمة يرفض ما رُوي.. في الصحيح من أن رضاعة الكبار تثبت حرمة المصاهرة، ويرون أنَّ الرضاعة المثبتة للحرمة ما كان في فترة الطفولة، أي ما أنبتَ اللحمَ وشدَّ العظمَ.

ولا نريد أن ننتقل إلى مباحث فقهية مفصلة، وإنما نريد أن نقول: هَبْ أنَّ رجلاً قال: لا أستطيع قبول رواية «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإنَّ في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء» أيكون من الكافرين؟ كلا!! فلم يقل أحد أنَّ أركان الإسلام تضم الإيمان بالله واليوم الآخر وغمس الذباب في الشراب إذا سقط فيه[1].

وليس بقادح هذا في ديني ولا يقيني.

وقد روى «البخاري» أحاديثَ صحيحة السند لكن أئمة الفقه عملوا بغيرها لأدلة أقوى عندهم منها.. وأنا شخصياً متوقف في هذا الحديث، لم أنته فيه إلى حكم حاسم، وعلى أية حال فهو لا يتعلَّق بسلوك خاص أو عام..

إنَّ قواعد الدين وعبادته وفضائله وقيمه ترتكز أولاً على القرآن الكريم ثم ما يشرحه من سنن استراح النقاد الأخصائيون لها..

ومنهج المحدثين في تلقي التراث النبوي لا غبار عليه، بل إن هذا المنهج هو ما تحتاج إليه الديانات الأخرى لتكون موضع ثقة وقبول.

---

(١) وحديث الآحاد ليس مصدر عقيدة شرعية أو حكم قاطع بيد أني من باب استكمال البحث العلمي فقط أسأل: هل الحديث مردود؟ إن بعض علماء الحشرات قَرَّر أن هذه الحشرة تفرز الشيء والشيء المضاد له، فإن استقرَّ هذا الرأي الفني فالحديث صحيح، وإن ثبتَ قطعاً أنَّ الذباب مؤذ في جميع الأحوال التي تعرض له ومن بينها الحالة المروية في الحديث رددته دون غضاضة.

أساطير العهد القديم

وما دام هناك من يضرب رأسه بالجبل ليثبت أن في الإسلام متناقضات فلنلق نحن نظرة خاطفة على تراث القوم ليرى القراء أين تقع التناقضات الحقيقية:

إننا في الفصل الأول من هذا الكتاب فضحنا الأسلوب الطفولي الماجن الذي تحدث به العهد القديم عن الألوهية فلنسمع هذه الأخبار عن عدد بني إسرائيل حين دخلوا مصر وحين خرجوا منها، يقول الأستاذ عصام الدين حفني ناصف كاشفاً عن التزوير الذي اقترفه كتَّاب التوراة:

«من ذلك ما زعموه أنَّ يعقوب وأسرته وفدوا على مصر بدعوة من يوسف، وكانت عدتهم ٧٠ شخصاً فما انصرمت ٢١٥ عاماً حتى كان عددهم قد ناهز ٣٠٠٠,٠٠٠ (أي ٣ مليون)، فلما نزحوا عن ديارنا كان بينهم «نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد» ــ هكذا سجّل سفر الخروج ــ [١٢ : ٣٧].

وقد أحصوا أبكارهم فكان جميع الأبكار الذكور بعدد الأسماء من ابن شهر فصاعداً، المعدودين منهم اثنين وعشرين ألفاً ومائتين وثلاثة وسبعين [عدد ٣ : ٤٣].

فإذا ضاعفنا هذا الرقم كان جميع الأبكار من الجنسين نحو ٤٥٠٠٠ وبقسمة عدد الجماعة على عدد الأبكار نخلص إلى أنَّ المرأة الإسرائيلية كانت تلد زهاء ٦٥ وليداً!!»

هذه هي مقررات الكتاب المقدس، دون تعليق.

وظاهر أن اليهود كذبوا في ذكر عددهم كذباً صارخاً، وأنهم أودعوا كذبهم هذا في تضاعيف التوراة، وعلينا أن نصدِّق!!!

يقول «عصام ناصف»: «إنَّ هذه الملايين الثلاثة المزعومة من اليهود الآبقين من مصر لو أنها سارت في صفوف عرضية متراصة يضم كل صف منها عشرين يهودياً، ويشغل الصف بين سابقه ولاحقه متراً واحداً لاستطال هذا القطار البشري «الطابور» مسافة ١٥٠ كيلو متراً ــ أبعد من المسافة بين القاهرة وخليج السويس ــ ولتعذر على قائدهم موسى أن يبلغهم أوامره»!

وعن كهنة الأديان السابقة وإغراقهم في المتاع المادي يقول: «إنَّ المال والجاه

وإن كانا في حقيقة أمرهما غرضاً يبتغىٰ لذاته، هما كذلك وقبل ذلك وسيلة لغرض لا تكتمل المتعة إلَّا به، وهو قضاء الوطر من الناحية الجنسية، ومن ثم خوَّلوا أنفسهم حقَّ الاستماع إلى اعترافات النساء، فيما يتصل بأوثق علاقاتهن بالرجال.

وقد اشترعوا لهذا الغرض ما أسموه «شريعة الغيرة». فإذا استراب رجل بامرأته، وهجس في صدره أنها خانته مع آخر «يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن ويأتي بقربانها معها، فيقعدها الكاهن ويوقفها أمام الرب، ويأخذ الكاهن ماءً مقدساً في إناء خزف، ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعله في الماء» [عدد: ١٥ ــ ١٧].

ويخلو الكاهن بالمرأة ويشرع في تلاوة بعض الألفاظ، ويستحلف المرأة أن تقر بما كان منها، ثم يجرِّعها الماء المشوب بالغبار.

ومتى سقاها الماء فإن كانت قد تنجست وخانت رَجُلَها يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيَرِم ــ يتورم ــ بطنها وتسقط فخذها (!) فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجَّست بل كانت طاهرةً تتبرأ وتحبل بزرع»[1] [عدد: ١٥ ــ ١٧].

ومن المعلوم أن الماء لا يدخل المرارة، وأنَّ وظائف الأعضاء لا تمت إلى المسلك الخلقي بسبب وثيق، ولكنها إجراءات خادعة تتخذ لتعزيز سلطان الكاهن على المرأة، فهو ينفرد بها في خلوة ثم يخرج راضياً أو ساخطاً، وينطق بالقول الفصل فيدينها بالموت مجللة بالعار، أو يدعها تنعم بالحياة مرفوعة الرأس ناصعة الجبين».

هذه توجيهات الكتاب المقدس، ومبدأ الاعتراف على هذا النحو أو على أي نحو آخر لا معنى له ولا أثر، اللهم إلَّا إفساد الدين والخلق..

ماذا على من أخطأ أن يتَّصل بربه لفوره في دعاء النادم، ورجاء الخاشع، والله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويبسطُ يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وبابه يستقبل كل شخص رجلاً كان أو امرأة، شيخاً أو شاباً، عالماً أو جاهلاً؟؟

هذه توجيهات الإسلام، وهي نابعة من مبدئه العتيد: ﴿كل امرىء بما كسب

(١) نقدم هذا النص لمن لم يرقهم «التيمم» بالغبار، ها هو ذا الغبار يشرب عندهم.

رهين﴾، أما انفراد المرأة بكاهن ــ أو غير كاهن ــ في خلوة فأمر لا تحمد عقباه، خصوصاً إذا كانت هذه الخلوة مع محروم من الزواج معلوف بأطايب الطعام!!

هل الله جلَّ شأنه مصدر هذه التعليمات؟ كلا..

إنَّ من المقطوع به أنَّ عدداً من المؤلفين لا مؤلفاً واحداً أشرف على وضع الكتاب المقدس كله، ولا نزعم أنه خال من الوحي الإلَهي من أوله إلى آخره، لا، بل نقرر أنَّ خليطاً معقداً من أهواء الناس وهدايات الله... تمَّ التنسيق بينهما على النحو الذي نرى.

بيد أنَّ من المضحك أنَّ الذي قام بتأليف التوراة نسي نفسه وهو يكتب، وذهل كل الذهول أنه سوف ينسب ما يكتب إلى موسى!!

فأورد في تضاعيف التوراة ــ النازلة على موسى فرضاً ــ هذه العبارات: «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات. ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته، فبكى بنو إسرائيل في عربات موآب ثلاثين يوماً فكملت أيام بكاء مناحة موسى..».

ما هذا؟ موسى الذي أنزلت عليه التوراة تتحدَّث عنه التوراة بهذا النعي والعزاء والمناحة؟؟

ما يستطيع عاقل إلاَّ الإقرار بأنَّ كاتب التوراة بعد موسى نسي نفسه ونسي الدور التمثيلي الذي يقوم به، وغلبت عليه صفة المؤرخ لا المؤلف فقال ما قال ليعرف المستغفلون ماذا يقرؤون!!

ونقرن هذا النص بخبر آخر نشرته جريدة الأهرام في ٣ مايو سنة ١٩٧٢م (١٩ من ربيع الأول سنة ١٣٩٢) تحت عنوان: «وثائق دينية تاريخية تسلمها هولندا إلى الأردن»:

«عمان: ــ سَلَّم اليوم الدكتور «هانك بانكير» بالنيابة عن الحكومة الهولندية إلى الدكتور غالب بركات وزير السياحة الأردني وثائق تاريخية تتضمن النصوص القديمة التي قال المؤرخون أنها تطلَّبت إعادة تقييم الإنجيل. وكانت بعثة أثرية هولندية قد

اكتشفت هذه الوثائق في عام ١٩٦٧م، وهي وثـائق كتبت بالآرامية في القرن السـابـع قبـل الميلاد، وعثـرت عليها البعثـة في وادي الأردن، وكـانت البعثـة قـد حملت تلك الوثائق إلى هولندا لدراستها وحل رموزها بقصد حفـظها. وقـال الدكتـور «هـ. فراكين» الذي رأس تلك البعثة: إنَّ هـذه الوثـائق فريـدة من نوعهـا، وقال: إنَّ كـل المعلومات التي وردت في الإنجيـل حولَ فلسـطين والأردن في نهايـة العصر البـرونـزي، وبـدايـة العصر الحديث، غيرُ موثوق بها لأنها كانت محاولة قام بها قسـاوسة من القـدس لجعل التاريـخ يتناسب مـع الآراء الدينية للقرن السابـع للميلاد».

هـذا الخبر الصغيـر نقطة في بحـر من الأوهـام والتُّـرُّهـات التي تغص بهـا هـذه الصحائف.

ومـا نعلم كتابـاً حفَّته العنـاية العـظمى، وصانتـه أجـلّ صيـانـة من هـذا القـرآن الكريم.

إن القاراتِ الخمس ليس فيها ما يوصف بأنه وحي السماء إلاَّ هذا الكتاب الفذ.

فهل يؤدي المسلمون حقه؟!

تحقير التدين ومطاردة المتدينين لأدنى ملابسة خـطوة إلى الارتداد الـذي لا ريب فيـه، وهو في الـظروف التي تواجههـا أمتنا نـوع من الخيانـة العـظمى أو هـو الخيـانـة العظمى نفسها.

وقد أفهم أن تشتبك السلطات الحاكمة مـع أفراد أو جماعات ينازعـونها السيـادة لغرض سيِّـىء أو حسن! لكن هل يقال إنَّ التاريـخ الإسلامي يعين على تكوين جماعة الإخـوان فليمسـح هذا التـاريـخ، أو إنَّ البيئات المتـدينة مستـودع يستمد منـه الإخوان فلتحارب هذه البيئات؟؟

إنَّ هذا القول يعني بداهة نقل الخصومة من ميدان إلى ميدان آخر، وإن الإسلام ذاته قد أصبـح عرضةً للعدوان.

وقد هززت رأسي أسفاً وأنا أسمـع شـاباً يتبـرأ من الانتساب إلى الإخـوان فيقول لقضاته: أنا عمري ما ركعتها، ويعلم صحبـي أني أشرب الخمر، وأفعل كذا وكذا!!.

وقد استمـع الناس إلى أحد «نجوم الفكاهة» في مصر يذكر أن امرأة اقتيد زوجها

إلى السجن فسئلت: أهو من الإخوان؟ فقالت: «فشر! زوجي حرامي قد الدنيا».

وهكذا أصبحت اللصوصية شرفاً! أو نسبة لا حرج فيها على الأقل!

والواقع أنه مرت ببلدنا أيام كالحة الوجه، مشؤومة العقبى كان التدين فيها تهمة تخرب البيوت، وكان عدد من الشبان المؤمنين يختفي بصلاته وتقواه، وقلَّ تردده على المساجد لأنه أشيع أن نفراً من الذين صلوا الفجر في مسجد كذا قد اعتقلوا.

وامتداداً لهذه السياسة ـ سياسة سوء الظن بكل ذي نزعة متدينة ـ وضعت المؤسسات الإسلامية الكبرى تحت رياسة عسكرية لها الكلمة العليا مثل «الجمعية الشرعية»، و «الشبان المسلمين»، و «المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية»، و «مدينة البعوث الإسلامية»...

وذلك لضمان حصر عاطفة التدين داخل إطار معين:

- فلا يسمع أي كلام عن تطبيق الشريعة الإسلامية.
- ولا يقبل أي اتجاه للعودة بالأمة إلى الاصطباغ بدينها في ظاهر أمرها وباطنه.

ومن الإنصاف أن نذكر أنَّ من بين هؤلاء العسكريين من ترك الشعور الإسلامي ينمو دون حرج، خصوصاً بعد أن تغيَّرت الظروف التي أملت بالتقرير المثبت في هذا الكتاب(١).

على أن الشيوعيين والصليبيين قد انتهزوا فرصة هذه المطاردة المثيرة فأعلنوا حرباً على الشارات الإسلامية في المجتمع ونجحوا في تحقيرها وتأليب قوى شتى ضدها.

وعن طريق المسرح وحده أمكن عرض روايات هازلة وجادة غرضها انتزاع كل مهابة لشيوخ الإسلام والمتحدثين باسمه.

كما أن سماسرة الغزو الثقافي في بلادنا استماتوا في صرف الشباب عن الدين، وأغرَوه بفنون الشهوات لينسىٰ ربَه ودينَه ونبيَّه.

---

(١) راجع تقرير اللجنة التي شُكِّلت من: زكريا محي الدين، صلاح نصر، وشمس بدران، لدراسة الظاهرة الإخوانية.

فلما تغلّبت الفطرة الأصيلة، وأخذ الشباب يعود إلى دينه في صمت، وظهرت ملابس الحشمة بين الطالبات الجامعيات جُنَّ جنون السماسرة من صحافيين وصحافيات وانطلقوا يفترون الكذب على العفيفات المحصنات، ووصفت امرأةٌ ماجنة ملابسَ الفضيلة بأنّها «أكفان موتى!» وأخذت مع غيرها ينهشن بضراوةٍ أعراض الطيبات الطاهرات.

وقد تصفحت المجلة التي نشرت هذا اللغو فوجدت بها دعوة إلى الزنا والرضا به، والتحريض عليه، في عدة مواضع..!

ولا عجب فرئيسة تحرير المجلة هي التي ناقشت العقيد «القذافي» بسماجة نادرة، وسوَّغت أمامه انتشار الخنا في شارع الهرم عندما نصح الرجل النساءَ بالتزام أحكام الإسلام.

«الخيانة الزوجية» تعبير مخفف عن جريمة الزنا عندما يرتكبها رجل مغافلاً امرأته أو ترتكبها امرأة مخادعة زوجها.

وأظن هذا التعبير مترجماً عن اللغات الأوروبية حيث يعتبر اقتراف ذلك الإثم تفريطاً في حق إنساني عادي، أما نحن المسلمين، بل معشر المتدينين إجمالاً، فنرى الزنا تفريطاً في حق الله قبل أن يكون تفريطاً في حق عباده، وهو من الشخص المحصن أغلظ وأشنع ممن لم يسبق له زواج.

لكن الأستاذة المعلمة «أمينة السعيد» لها وجهة نظر أخرى في هذه القضية: لماذا يُنظر إلى الزنا هذه النظرة السيئة؟ بل لماذا تستبشع الخيانة الزوجية على هذا النحو الشائع بين الناس؟ فنشرت في صفحة ٤٧ من مجلة حواء(١) هذا الكلام تحت عنوان: «أراحت نفسها»:

«سألوها (وهي زوجة فرنسية): هل تغارين؟ أجابت: أعاني من الشعور بالوحدة عندما يبتعد عني زوجي، لكني لا أغار وأعتقد أن الغَيْرة شيء لا معنى له، ولذلك ينبغي ألا نستسلم له!!

لكن سائلها لم تقنعه هذه الإجابة، فقال لها: اشرحي لي! قالت: إنني أقول لنفسي افرضي أنه الآن مع واحدة أخرى، هل من حقي أن أعترض؟ إنني لم أتزوج

---

(١) العدد ٨٤٣، الصادر بتاريخ ١٨/١١/١٩٧٢م.

قرداً أو نكرة وإنما تزوَّجت رجلاً «ملء ثوبه»، أحببته لهذا، ولا بد أن يعجب غيري من النساء! إنني لا أحمل له عاطفة الحب وحدها ولكن أيضاً الاحترام والتقدير!. قاطعها السائل: لا أهمية عندك إذن للإخلاص والوفاء؟ قالت وهي تأخذ رشفة من فنجان القهوة: «اسمع أنا الآن أشرب هذه القهوة، شعرت بحاجة إليها، وها أنذا أستمتع بها، هل يمانع أحد؟.. هل من حق زوجي إذا دخل الآن أن يلومني قائلاً: لماذا شربت القهوة دون إذن مني؟ أقصد أنَّ الخيانة العابرة ليست أكثر من فنجان قهوة بالنسبة لي. لماذا أجعل لها من الأهمية أكثر مما تستحق؟ أليس من الجائز أن يستمتع هو في غيابي أيضاً بقطعة موسيقى، باستلقاءة في الشمس، بنكتة يسمعها من أحد زملائه؟ هل يوجد فرق كبير حقاً بين الاثنين؟ أقصد أن النزوات، الغلطات العابرة ينبغي أن نتسامح فيها، فإذا تغيَّر شعوره نحوي تماماً ونفض يده مني فهذا شيء آخر، شيء يستحق حزني، لكن حتى في هذه الحالة لن تفيدني الغيرة شيئاً!»

والآن (ما زال الكلام للمجلة) هل أثارت دهشتك ردود هذه السيدة؟! إنها زوجة فرنسية.. ولا أعتقد أن كل الزوجات الفرنسيات يعتنقن هذا الرأي الجريء والذي عبرَّت عنه في حديث أجرته صحيفة «ماري كلير» مع بعض الزوجات.. لكن الذي لا شك فيه أن في كلامها حكمة تفتح نافذة على نوع من راحة البال يحتاج إليه كثير من المتزوجين».

وفي الصفحة رقم (٥) من هذا العدد علاج مماثل لقضية الزنا أو الخيانة الزوجية كما شاع على الألسنة، وهذه الكلمة المكتوبة تعليق على رواية للصحافي المشهور «توفيق الحكيم».. فإن هذا «التوفيق حكيم» منح الرجل حقَّ الزنا أو حق خيانة زوجته، وضنَّ على المرأة بهذا الحق!! فجاءت مجلة «حواء» لترفع راية المساواة بين الجنسين، ولتطلب من الفنان الخليع أن يعيد النظر فيما كتب لأنه يعالج موضوعاً «يتعرض للكثير من التغير بين جيل وجيل».

يقول المعلق الخسيس: «فأنا لا أقصد أنَّ كل ما جاء في الرواية في حاجة لمراجعة، ولكن يكفي أنَّ بعضها محتاج إلى ذلك، لكي يحمل رجل الاجتماع الذي يسكن في أعماق الفنان أن يقول كلمة التطور والتغير اللذين أصابا المجتمع وبدَّلا من أوضاعه وأفكاره».

ما الرأي فيما قالته الزوجة في تساؤلها: وإذا خان الزوج، أليس لها الحق أن تخونه؟ وكان جواب «راهب الفكر»: لا، وكان تبريره لذلك أن الرجل هو الذي يعرق والمرأة هي التي تنفق، ثم يمضي قائلاً: «اكدحي كما يكدح زوجك، اعرقي كما يعرق، فإذا تساويتما في التضحيات تساويتما في الحقوق، فالرجل إذا خان خان من ماله، لكن الزوجة تخون من مال زوجها، لن تكون هناك مساواة مطلقة بينكن وبين الرجال في هذا الإثم إلاَّ إذا تطور الزمن تطوراً آخر، فرأينا الزوجة تناضل في الحياة وتكسب بالقدر الذي يربحه الزوج! أليس هذا المنطق بحاجة لمراجعة بعد أن تطور الزمن إلى ما نراه الآن؟

إنَّ ريح التغير قد أصابت بعض ما جاء في هذه الرواية من أفكار، لكنها مع ذلك تظل قطعة فنية تحمل طابع زمنها وتتضوَّع بالأريج الذي يفوح دائماً من قلم فناننا الكبير المبدع».

هكذا تعالج مجلة حواء جريمة الزنا وتطلب إعادة النظر في جعلها حكراً على الزوج وحده كما يرى راهب الفكر، هذه هي رهبانية الفكر في عالم الدواب.

هل يستغرب من مجلة حواء التي تتمرغ في هذا الحضيض أن تنشر مقالاً للسيدة محررتها تحمل فيه حملة شعواء على ملابس الفضيلة التي تستر بدن المرأة كله عدا الوجه والكفين؟

إن «المعلمة» التي تقود نشاطاً نسوياً في بلادنا تشبه هذه الملابس الشرعية السابغة بـ «الكفن!».

وقد لعب التصوير دوره في هذه المأساة، ففي الصفحة الخامسة من العدد صورة امرأة مضطجعة على وسادتها تحلم بالحب.. إن هذا أمر سائغ لا يعاب، وفي الصفحة الحادية عشرة صورة طالبة جميلة الملابس، مشوَّهة الوجه، بادية الحشمة، كئيبة الطلعة!!

لم هذا التحامل؟ ولحساب من؟ الجواب معروف!.

وتبلغ الوقاحة قرارها السحيق عندما تصف رئيسة التحرير نفسها ـ وقد نقلنا نماذج من أخلاق مجلتها ـ فتقول إنها «من الوقورات المحتشمات المؤمنات بدينهن المتّقيات لله، الفاعلات للخير... إلخ».

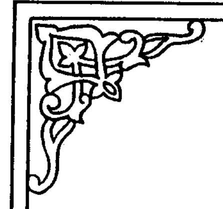
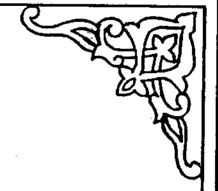
وهذا أسلوب جديد في الحرب المعلنة على الإسلام، يقول لك مستبيح الخمر والزنا والانحلال والاعوجاج: هل أنت بدعوتك إلى الصلاة والاستقامة مسلم؟

لا، نحن أولى بالإسلام منك، إنك لا تعرف الإسلام، الإسلام تطور ومدنية، وليس المظاهر التي تتمسكون بها، نحن الصالحات الراقيات.

ونذكر قول الشاعر:

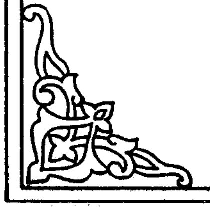
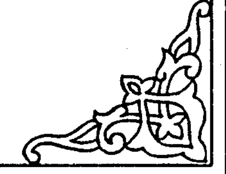
«فيا له من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل!!»

* * *

الفصل السادس

- الدعوة الإسلامية وسياسة بعض الحكام.
- الـذئب الأغبـر.
- أندونيسيا المسلمة.
- سماسرة الفاتيكان.
- الإسلام في كوريا.
- قبـرص.
- العقيد الناصري.



الفصل السادس

الدعوة الإسلامية وسياسة بعض الحكّام

المسلمون مكلّفون بنشر دينهم في القارات الخمس. ويجب أن تكون لديهم أجهزة متخصصة تعرِّف العالم كله: مَنْ محمد؟ ورسالته؟ ما الذي ينشده للناس كي يسعدوا في معاشهم ومعادهم؟

يجب أن تكون تعاليم الإسلام تحت أبصار الناس قاطبة، فمن شاء قبلها، ومن شاء رَدَّها، المهم أن يعرفها على حقيقتها، وأن يزول الجهل بها، وألَّا يكون الدخان الذي أطلقه أعداؤها حائلاً دون هذا الإدراك الواعي السليم..

وقد كانت «الخلافة» الكبرى مسؤولة عن ذلك، إذ كانت رمزاً للإسلام، وشاخصاً عالمياً يلفت الأنظار إليه، ويذود الأعداء عنه.

ومع أنَّ «الخلافة» عندما تولاها الجنس التركي قد أصبحت شبحاً عليلاً، ومع أنَّ الخلفاء الأتراك كانوا أقرب إلى السلاطين الجبابرة منهم إلى أمراء المؤمنين وحرّاس اليقين ودعاة الحق وهداة الخلق!! مع ذلك كله فإن وجود الخلافة فيهم كان له أثره في وحدة المسلمين وتقليل الخسائر النازلة بهم من هنا وهناك.

وحسبنا أن نشير إلى موقف السلطان «عبد الحميد» من فلسطين، فقد ساق إليه اليهود قناطير الذهب ليسمح بوجود يهودي فيها فأبىٰ الرجل إباءً قطع كل محاولات الإغراء وأحبط جميع المؤامرات لشطر العالم الإسلامي بهذا العنصر الغريب.

* * *

الذئب الأغبر

ولمّا كان لوجود «الخلافة» من آثار مادية وأدبية بعيدة المدى فقد كان همّ العالم الصليبي أن يُجْهِزَ عليها، وقد استطاع أن يبلغ غرضه بعد الحرب العالمية الأولى

مستغلاً أطماع القائد التركي «مصطفى كمال» الذي باع الإسلامَ والمسلمين من أجل البقاء رئيساً للدولة التركية الجديدة!!

إنَّ الشروط الأربعة التي عرضها «الحلفاء» المنتصرون عليه هي أن يقطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي وبالعرب خاصة، وأن يلغي نظام الخلافة، وأن يحكم الشعب بدستور تقدمي مبتوت الصلة بالدين.

وفي سبيل الزعامة رضي القائد الخائن بهذه الشروط، وألبسته أوروبا حُلَل المجد، ولو أنه بقي على دينه وبقيت الأمة على دينها لتقلَّص الاحتلال الصليبي في الأناضول قبل أن يتقلَّص في مصر والشامَ والجزائر والمغرب!! فقد كانت مقاومة الأتراك له أشدّ وأقسى.

ولكي تعرف من هو «مصطفى كمال» الحقيقي إليك بهذه الفذلكة الموجزة عنه: قال عنه «أرمسترونج» في كتابه «الذئب الأغبر»:

● إنه كان بفطرته ثائراً لا يحترم ديناً أو إنساناً أو وضعاً من الأوضاع ولا يقدِّس شيئاً على الإطلاق.

● وقال عنه أيضاً: إنَّ الغازي لن يقود تركيا إلى حماقة من تلك الحماقات أو ينصب نفسه بطلاً للشرق معادياً للغرب، وللإسلام ضد المسيحية، أو للأجناس المضطهدة ضد مضطهديها، ولكنه لن يكون إلَّا كما حَدَّد برنامجه بقوله: «ليس لنا إلَّا مبدأً واحد: هو أن ننظر إلى جميع المشكلات بالعين التركية ونصون مصالح تركيا».

● ونقل عنه قوله لممثل حكومة فرنسا: «تستطيعون أن تنالوا سوريا وبلاد العرب ولكن كفُّوا أيديكم عن تركيا، نحن نطالب بحق كل شعب في الحرية داخل حدود بلادنا الطبيعية، ولا نبغي شبراً واحداً أكثر من ذلك ولا أقل.

● ونقل عنه قوله في الجمعية الوطنية التركية: «أنا لستُ مؤمناً بعصبة من جميع الدول الإسلامية، ولا حتى بعصبة من الشعوب التركية».

● وقال عنه أيضاً إنه طالما أوضح لأصدقائه أنه يرى وجوب اقتلاع الدين من تركيا!!

الإسلام في كوريا

لندع هذه الذكريات الحزينة ولنخلص إلى ما نريد، أن الدعوة إلى الإسلام قد سقط لواؤها العالمي، وكانت شعوب كثيرة يمكن أن تدخل فيه، ولكن من لها بالدعاة؟ ومن الذي يهتم بذلك؟

نشرت جريدة الأخبار تحت عنوان: «مسؤول كوري يشرح لماذا لم ينتشر الإسلام في كوريا؟» قالت:

«المسلم الذي يزور كوريا الجنوبية يلاحظ مدى اهتمام حكومتها بتشجيع الأديان، فليس هناك أي قيد على أي مواطن يريد أن يعتنق ديناً آمن به أو يتبع مذهباً ارتضاه».

هناك نشاط كاثوليكي كبير إذ توجد ٣٥٠ كنيسة، كما أنه توجد مستشفيات، وملاعب رياضية، وجامعات مسيحية في أنحاء كوريا الجنوبية التي يدين معظم سكانها بالبوذية.

أما النشاط الإسلامي فقد اقتصر حتى الآن على ٤٠٠٠ مواطن فقط ــ ليس لهم ما يجمع شتاتهم ــ فما سِرُّ هذه الظاهرة؟

يجيب مسؤول حكومي أنَّ الفرصة سانحة لانتشار الإسلام في كوريا الجنوبية لأسباب كثيرة.

منها أن الرئيس الحالي «بارك سنج هي» ينادي بالحرية الدينية، وعلى من يهمهم نشر الإسلام أن يتحركوا بسرعة منتهزين سماحة هذا الرئيس، فقد يتغير ويجيء بعده رئيس جديد للجمهورية تكون له وجهة نظر أخرى فتضيع الفرصة على المسلمين.

ثم إنَّ الكوريين الجنوبيين يؤمنون منذ القدم «بهنانيم»، وهي كلمة معناها؛ الإلّه الواحد الذي لا شريك له، ومن ثم فإنَّ الدعاة إلى الإسلام لن يجدوا أية صعوبة في نشر عقيدتهم بين الكوريين.

والكوري الجنوبي لا يميل إلى الإلحاد، وهو يَمْقُتُ الشيوعية، ويرفض النزعات المادية المجردة، إنه يؤمن بالروح والعقل، بالدين الصحيح، والإسلامُ يملأ

العقلَ بمبادئه، ويتفق مع الفكر والزمان والتطور ـ هكذا يقول المسؤول الكوري ـ وتسأل المسلمين في كوريا عن أسباب عدم انتشار الإسلام في أرض فتحت قلبها لكل الأديان؟

فتسمع من يقول: ليست لدينا إمكانات مادية كافية، نريد مسجداً كبيراً في العاصمة «سيول»، والأرض غالية الثمن!!

لكن رئيس الجمهورية حلَّ هذه المشكلة، فأهدى إلى المسلمين قطعة أرض يَبْنون عليها مسجدهم، وإلى الآن لم يجتمع لدى المسلمين المال الذي يبنون عليه مسجدهم الكبير!!

والمنح الدراسية التي تصل إلى كوريا من الدول الإسلامية قليلة جداً. ويكفي أن تعلم أن عدد الكوريين الذين أرسلوا إلى الدول الإسلامية خلال عشر سنوات ٢٩ طالباً. . !»

هذه بيئة كاملة الصلاحية لازدهار الإسلام.

لو وجدت دعاة مدربين لدخل أهلوها في دين الله أفواجاً.

لكن الإسلام دين يتيم! من يهتم به على الصعيد العالمي.

إنَّ المنتسبين إليه يخضعون لحكومات تضيق به، أو تأبى الانتساب إليه، أو تعجز عن إسداء خدمة له، وهم أولى الناس بما قال الله في بني إسرائيل:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴿١٦٨﴾ ﴾. [الأعراف: ١٦٨].

في المجال الإنساني الرحب ليست للإسلام راية تحتشد حولها الجهود وتهوي إليها الأفئدة.

ومن هنا فنحن نقول آسفين: إن الدعاية الإسلامية العالمية صفر. .

فلنتواضع ولنرجع إلى داخل العالم الإسلامي لنرى ما هنالك. .

إنَّ الغازي الهمام «مصطفى كمال» ليس أول حاكم ارتد عن الإسلام جرياً وراء الحكم، ففي أثناء الحروب الصليبية الأولى كفر حكام ليبقوا ملوكاً أو رؤساء، كفروا وتعاونوا مع الغزاة في ضرب الإسلام وأمته.

قال الأستاذ «علال الفاسي»: «بعد ضياع الأندلس تطلع الإسبان المسيحيون لاحتلال المغرب، وانتهز ملك قشتالة «فرديناند» الثالث أن «إدريس أبو العلا المأمون» طلب مساعدته على استعادة ملكه في المغرب، فأمده بجيش من اثني عشر ألف جندي مسيحي، وذلك مقابل الشروط الآتية التي التزم بها المأمون:

١ ــ أن يعطي المأمون لفرديناند قواعد يختارها ملك قشتالة.

٢ ــ إذا فتح المأمون مدينة مراكش وجب عليه بناء كنيسة للمسيحيين.

٣ ــ للجنود الإسبان حق المجاهرة بشعائر دينهم، وأن يضربوا النواقيس لمناداة المصلين معهم.

٤ ــ (إذا) أراد بعض المسيحيين أن يسلم لا يسمح له بذلك ويتم تسليمه إلى النصارى كي يطبقوا عليه أحكامهم.

٥ ــ وإذا أراد بعض المسلمين أن يتنصَّر لم يتعرَّض له أحد!!

هذه الحادثة التاريخية تبيّن كيف أنَّ تهافت بعض الرؤساء على السلطة جعلهم يقبلون مثل هذه الشروط..

على أن هذا «المأمون» قضي عليه آخر الأمر، وأمكن طرد الجنود النصارى الذين استجلبهم، فلم ير في المغرب بعد ذلك مسيحي.

وما لنا ننبش الماضي البعيد لتفوح منه هذه الروائح العفنة؟

فلننظر إلى حاضرنا وما يحفُّه من أخطار جسام.

إنَّ الثقافة الإسلامية تنكمش والثقافات الدخيلة تمتد.

والأنماط الإسلامية في الحياة تتزعزع وتتلاشى، والأنماط الأجنبية تفرض نفسها وتستقر.

والدعوة الإسلامية قد تعني نصح منحرف من سواد الناس أو توصيته بالصلاة والزكاة فإذا تطلّعت إلى ما هو أبعد من ذلك لقيت العنت والتجهم!

وقد أمر بعض الكبراء بنزع مكبرات الصوت في المساجد المجاورة له حتى لا يسمع الأذان وقت الفجر!

وواضح أنَّ سائر الملل والنحل اتّفقت على تكوين جبهة معادية للإسلام، فالكنائس الغربية، والحكومات المسيحية ساندت إسرائيل ضد العرب المسلمين، والشيوعية والوثنية الهندوكية تعاونتا على سحق باكستان المسلمة، بينما وقفت الولايات المتحدة حليفتها السياسية ترمق المنظر متسلية.

وفي مصر، قلب العالم الإسلامي، تتسابق النشرات الشيوعية والصليبية على خداع القراء وسرقة عقائدهم.

وليت الأمر صراع كتابات، وحوار مجالس، إذن لخرج الإسلام من هذه الساحات كلها منتصراً.

إنَّ الحرية هي الصديق الأول لديننا، وعندما ينهض الحكم في بلادنا على أساس الرضا الشعبي والتجاوب مع إرادة الجماهير، فلن يكون إلحاد ولا انحراف، سيكون الحكم إسلامياً حتماً، فتلك رغبة الكثرة الساحقة من أفراد الأمة.

أتظنُّ أنَّ الغازي «مصطفى كمال» مثلاً لو عرض نفسه على الشعب التركي كان يظفر بـ (١ ٪) من أصوات الناخبين؟ إنه سوف يخرج من أي انتخابات حرَّة يجرُّ أذيال الفشل.. إنَّ الحكم الفردي المستبد هو وحده الذي يقهر الإسلام ويذل أمته، وقد عرفت أمريكا وروسيا ذلك فقررتا إحداث انقلابات عسكرية في أرجاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف.

وعن هذا الطريق لا غير يمكن لَي عنان الجماهير، وتجريعها الصاب والعلقم.

والمضحك المبكي أنَّ ذلك سيتم باسم الشعب نفسه، وقد سُمي مصطفى كمال «أتاتورك» أي أبا الشعب، وهو في خبيئته وعلانيته عدو الترك، وكذلك أشباههم من الحاكمين المستبدين.

* * *

أندونيسيا المسلمة

ولنضرب مثلاً من «أندونيسيا» المسلمة الحائرة التي بلغ سكانها الآن نحو «١٢٠» مليوناً تسعة أعشارهم مسلمون، إنها في ظل الاستعمار الهولندي تَعرَّضت لحركة تنصير واسعة النطاق، إذ عُزلت عن العالم الإسلامي، ومنعت الكتب الإسلامية

إلاَّ ما كان تافهاً قليل الغناء، بل إنَّ الشعب الأندونيسي عُزِلَ بعضه عن بعض حتى يستطيع المبشرون افتراس كل جزء على حدة.

وقاوم المسلمون ببسالة هذا البلاء المبين، وأمكنهم أن يظفروا آخر الشوط بحريتهم فاستقلّت أندونيسيا سياسياً، وقام فيها نظام نيابي ظفر فيه حزب «ماشومي» المسلم بكثرة الأصوات، وتألّفت حكومة إسلامية يرأسها السيد «محمد ناصر».

هل يترك الاستعمار العالمي مستقبل أندونيسيا المسلمة يتقرَّر على هذا النحو؟

كلا، لقد بحث عن شخص يستطيع تقليب الأمور، وتعكير الصفو، ووجد ضالته المنشودة في «سوكارنو»، وهو رجل معروف بانحراف العقيدة، وسيطرة الغرائز البهيمية على حياته، وقد بدأ «سوكارنو» يعمل.

قال الأستاذ «علال الفاسي»: «إنَّ دسائس الهند وهولندا زوّدت سوكارنو وأنصاره بأموال ضخمة في الانتخابات الثانية، فأصبح الحزب الوطني الذي يرأسه صاحب الأغلبية، وانكشف سلوك سوكارنو مما حمل المسلمين المخلصين والاشتراكيين على الثورة والمناداة بحكم إسلامي سليم، وللتغلب على حزب «ماشومي» الإسلامي، قام سوكارنو بعقد اتفاق مع حكومة الصين الشعبية يقضي بأن يتجنَّس الصينيون المقيمون بأندونيسيا ــ وهم عدة ملايين ــ بالجنسية الأندونيسية، وأن يشدوا أزر الحزب الشيوعي في البلاد، فأصبح بذلك القوة السياسية الثالثة بعد الحزبين الوطني والإسلامي!

وهكذا تحالف سوكارنو مع الشيوعيين، ثم شرع يضيق الخناق على النشاط الإسلامي باسم المحافظة على الأمن وإقرار النظام..»

ولعب الإغراء بعقول الشيوعيين، وأملى لهم سوكارنو الذي صرَّح أحياناً بأنه ماركسي، فحاولوا الانفراد بالحكم إثر مذبحة أوقعوها بالفئات الإسلامية ذهب ضحاياها عشرات الألوف.

بيد أن الجيش تَدَخَّل مؤيداً الطلاب المكافحين والمجاهدين المسلمين فَدَحَر الشيوعيين وقضى عليهم قضاءً مبرماً.

قال الأستاذ عَلَّال: «وكان الواجب يقضي بِرَدِّ الأمر إلى الشعب ليختار حكومته ونوابه».

لكن ذلك لم يحدث فقد تولّى الجنرال «سوهارتو» السلطة وحكم البلاد بطريقة ترضي أمريكا، فولّت الشيوعية الأدبار لتحلّ محلها الصليبية الزاحفة.

ويقول تقرير وصل إلى «رابطة العالم الإسلامي»: إنَّ حملة التنصير اليوم أشد وأقوى في أندونيسيا مما كانت عليه أيام الحكم الهولندي، والتنافس شديد بين البروتستانت والكاثوليك على تحقيق هذا الهدف، وقد شرحنا في كتابنا «دفاع عن العقيدة والشريعة» الخطة الزمانية الموضوعة لذلك والتي أرصد لها «بابا روما» وحده «كاردينالاً» وواحداً وعشرين أسقفاً وجيشاً كثيفاً من القساوسة.

كل ذلك يعمل في ظل حكم عسكري قاهر يجور على المسلمين ويجبن أمام الغزاة والمستعمرين.

والطريف أنَّ «سوكارنو» قدم إلى مصر فاستُقْبِل أعظم استقبال، وطلب الرئيس جمال عبد الناصر من الأزهر الشريف منحَه أعلى شهاداته العلمية، فمُنِحَ «العالمية» الفخرية في العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين!!!

ولا أدري لماذا لم يمنح العالمية في تفسير القرآن وشرح السنة تمشياً مع القول النبوي الكريم: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»؟!

إنَّ سوكارنو كان من ألدِّ أعداء الإسلام، وكانت انحرافاته الجنسية الطافحة موضع القيل والقال، ولا ريب أنَّ إعطاءَه أيَّ وسامٍ من الأزهر كان تحقيراً للأزهر نفسه!!

والحق أني حائر في فهم جمال عبد الناصر، لقد كنت كما يعلم الناس من جماعة الإخوان المسلمين، وأقرر أنَّ جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين بايعا في ليلة واحدة على نصرة الإسلام ورفع لوائه، وقد كنت قريباً من مشهد مثير وقف فيه جمال عبد الناصر أمام قبر حسن البنا يقول:

نحن على العهد وسنستأنف المسيرة.

كان ذلك عقب قيام الثورة بأشهر قلائل.

وقد وضع كتّاب مسلمون كبار مقدمات للرسائل التي كانت تصدر تحت عنوان: «اخترنا لك» أمضاها جمال عبد الناصر وفيها أشرف ما يؤكده زعيم مسلم نحو أمته ودينه.

لا أدري ما حدث بعد ذلك. .

إنه تغيّرٌ رهيبٌ في فكر الرجل وسيرته جعله في كل نزاع بين الإسلام وطرف آخر ينضم إلى الطرف الآخر:

● انضمَّ إلى الهند في خصومتها المُرَّة ضد باكستان المسلمة.

● انضم إلى الحبشة في عدوانها الصارخ على أرتريا.

● انضمَّ إلى تنجانيقا وأغضى عن المذبحة الشنعاء التي أوقعتها بشعب زنجبار المسلم، ورحَّب أحرَّ ترحيب بنيريري الذي يتظاهر بالاشتراكية، وهو قسيس كاثوليكي!!

● انضمَّ إلى القبارصة اليونان في نزاعهم مع القبارصة المسلمين، وجعل الأزهر يستقبل «مكاريوس» عدو الكيان الإسلامي للأتراك.

● كان أسداً هصوراً في قتال اليمن، وحملاً وديعاً في قتال اليهود حتى جعل اليهود ــ وهم أحقر مقاتلين في العالم ــ يزعمون أنهم لا يقهرون في حرب!!

«سريع إلى ابن العم يلطم خدَّه وليس إلى داعي الندىٰ بسريع!»

● ولقد ساند «البعث العربي» الحاقد على الإسلام، ورفض مساندة أي تجمع إسلامي، واخترع حكايةَ القوميةِ العربيةِ لتكونَ بديلاً عن العقيدة الإسلامية. . !!

ومن الإنصاف أن نقول أنَّ عدداً من رجال الثورة لم يكونوا راضين عن هذا الاتجاه الخاطىء.

لكن استنقاذ مصر مما ألمَّ بها في الماضي يحتاج إلى جهود مضاعفة خصوصاً بعد أن تحرَّكت تيارات عديدة مناوئة للإسلام وظفرت بمكاسب ذات بال.

* * *

سماسرة الفاتيكان

لقد أكَّدنا في مواطن شتى أنَّ مصرَ الإسلامية لا تتعصب لدين، ولا تتعصب ضد دين، وأنا أعلن أنَّ الأمة الإسلامية تستطيع استيعاب يهود العالم أجمعين بين ظهرانيها كافلة لهم حرية مطلقة في البقاء على عقائدهم وأداء شعائرهم، على أن يكونوا بداهة مواطنين مسالمين ينفعون ولا يضرون، فهل يقبل اليهود ذلك؟

لا ، إنهم وثبوا على فلسطين ولهم غرض هائل، استقوه من تعاليم دينية محرَّفة، يعبر عنه «مناحم بيجن» السفَّاح الشهير بقوله:

«مهمتنا سحقُ الحضارة الإسلامية، وإحلال الحضارة العبرية محلها، والمهمة شاقة».

في أثناء هذا الهجوم المطالب بدمنا وديننا نُباغَت بموقف شاذ خائن للكنائس الغربية، تعلن فيه صلحاً جذرياً مع اليهود، يقوم على تبرئتهم من صلب المسيح، برغم ما تقرره الأناجيل التي بأيدي القوم.

ونحن نعلم أنَّ المسيحَ لم يصلبه يهودي ولا وثني، ولكن إذا كانت الكنيسة تشهد بغير ذلك وتنسب إلى اليهود ــ حسب روايات أناجيلها ــ أنهم متَّهمون خبثاء، وقتلة لؤماء، فما سرُّ هذا الصلح المباغت؟

إنه اتفاق علينا، وشدٌ لأزر القتلة وهم يخربون ديارنا ويمحون تاريخنا، وما نستطيع تجاهل هذا الاتفاق، ولا الإغضاء عن آثاره ونتائجه في أكثر من ميدان، إنه جهد من سلسلة جهود متصلة للإساءة إلى الإسلام وإهانة أمته.

يقول الأستاذ «عَلَّال الفاسي»: وقف البابا دائماً من الاستعمار موقف المؤيد، وقد كانت بعض حكومات المغرب قد أمَّلت خيراً في بعض البابوات عساهم يؤثّرون على الدول الخاضعة لنفوذهم الروحي فيخففون من حملاتهم العدائية، وهيهات.

قال: وأنا أحكي قصتين وقعتا لي ونحن في أشدِّ المواقف، أيام جهادنا لتحرير البلاد من الاستعمار الفرنسي..

الأولى: توجهنا باسم حزب الاستقلال أنا وصديقي المجاهد «عبد الرحمن أنجامي» إلى أمريكا الجنوبية لنتصل بشعوبها وحكوماتها شارحين قضيتنا، راجين أن تصوِّت هذه الدول لمصلحتنا في المحافل الدولية، فكان يتبعنا حيث اتجهنا ــ تارة يسبقنا وتارة يلحقنا ــ الوزير الفرنسي «بول رينو» مبعوثاً من قبل حكومته، كما كان يتبعنا قسيس لبناني مبعوثاً من طرف الكنيسة!

وعلمنا أنَّ إرساله تَمَّ بطلب من فرنسا وموافقة من البابا، وقد قاما بجهود كبيرة ضدنا، ومع ذلك فقد انتصرت دعوتنا والحمد لله، وحصلنا على تأييد إخواننا العرب، وَصَوَّتَت معنا كل الدول التي زرناها كالبرازيل والأرجنتين والشيلي.. وغيرها.

الثانية: دخلت سنة ١٩٥٢م مستشفى «الأميرة فريال» لإجراء جراحة بالكلية اليسرى، وكنت أشكو من وجود أحجار بها، وبلغني وأنا في انتظار العملية نبأ اعتقال الفرنسيين للشيخ «عبد الواحد بن عبد الله» من علماء «الرباط»، وكان يدعو في دروسه إلى تقدير التضحية والاستبسال في نصرة الحق وتساءل: لماذا يضيق الفرنسيون بكفاحنا لتحرير بلادنا، ويعدون ذلك جرماً وهم يقدسون السيدة «جان دارك» لأنها بَذَلت وسعها في سبيل وطنها؟ أليست لديهم مثالاً يحتذى؟

ولم يعجب هذا الكلام إدارة الحماية الفرنسية فقررت اعتقاله، ووافق الاعتقال أنَّ بعض الناس كان يدعو للتقارب بين المسيحية والإسلام، فكتبت رسالة للبابا بيوس الثاني عشر منبهاً إلى ما حدث، ومذكّراً بأنَّ عالِماً مسلماً لديه هذا التفتح الفكري لا يسوغ أن يَلقى هذا المسلك، وأنه لن يعقب هذا إلَّا توسيع شقة الخلاف بين مسلمي المغرب والنصارى المقيمين فيه!

وزارني بعد تحرير الرسالة الأستاذ «ماسينيون» المعروف بتديّنه وإخلاصه الشديد لمسيحيته، فأنعم النظر فيها، ثم قال لي: هل أنت مخلص فيما تبديه من رغبة التقريب بين المسلمين والمسيحيين، على أساس القيم الأخلاقية المشتركة بين الدينين؟

قلت: نعم أيها السيد الجليل، ولو لم أكن مخلصاً ما كتبت هذه الرسالة في وقت أتهيأ فيه لجراحة خطيرة قد ألقى فيها ربي، وأنا أتطلع إلى عفوه. قال: ثق أنَّ البابا لن يستجيب لك ولا لغيرك لأنه يأخذ المال من الصهاينة، ولما رآني استغربت قوله، قال لي: يا سيد علَّال لا تستغرب، وما يفعله البابا لا يجعلني أتخلى عن مسيحيتي، كما أنَّ قولي هذا لا يخرجني عن ديني الذي تعلم مقدار تمسكي به.

وقد صدق «ماسينيون» فإنَّ البابا لم يكلف نفسه عناء الرد على رسالتي. . «وماسينيون» مستشرق كبير، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية، وكان فيما أعلم مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية، وهو شديد التعصب للنصرانية.

والبابا الذي تحدث عنه «ماسينيون» غير البابا الذي أصدر الوثيقة الشهيرة بتبرئة اليهود.

ترى كم أخذ الأخير؟

المهم أنَّ النصرانية في الغرب اتفقت مع اليهودية على ضرب الإسلام، وأنها تحاول جَرَّ النصرانية في الشرق إلىٰ موقفٍ مُشَابهٍ فهل ستجد لها عوناً على هذا الغرض الخسيس؟؟

ما الذي دفع القسيس اللبناني إلى عرقلة تحرير المغرب، والجري في ركاب المستعمرين والسفر إلى الدول الأمريكية الجنوبية لإقناعها بالتصويت ضد استقلال بلدٍ عربي مظلوم؟

- نحن نطلب من النصارى الذين يحيون في ربوع العالم الإسلامي أن تقرَّ أعينهم بالحرية الدينية المتاحة لهم دون مَنٍّ ولا أذى.
- ونطلب منهم أن يرعوا حقوق المواطنة وحرمات الجوار وقرابة الجنس واللغة وأعباء المشاركة الكريمة في بناء حضارةٍ لا حقد فيها ولا دس، ولا تربّص فيها ولا شماتة.
- ونطلب منهم أن يصمُّوا آذانهم عن نداءاتِ الغدر والتشفّي إذا ما أَلَمَّت بالمسلمين ملمة.

إنهم إن بطروا معيشتهم لم يفلتوا من عدالة السماء:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾. [القصص: ٥٨].

- أما أن يروا مسجداً يبنى فيحاولوا أن تكون أبراج الكنايس أعلى من مئذنته!! فهذه محاولة منكورة.
- أما أن تكفيهم لأداء العبادة كنيسة واحدة، فيبنوا مثنى وثلاث ورباع فذلك ما لا مساغ له..
- أما أن يروا التبشير الأجنبي قد تعاون مع الاستعمار العالمي على تضليل المسلمين وإزاغة قلوبهم، فيشاركوا هم أيضاً في حرب المنشورات وفتنة السذج فتلكم خيانة ربما كانت تمهيداً لمثل ما فعله المعلم «يعقوب حنا» الذي خان مصر وانضم إلى الغزاة الفرنسيين!!

لقد انتهز الفاتيكان فرصة هزيمة سنة ١٩٦٧م فأرسل سماسرته ليشتروا الأرض من العرب المحرجين في مدينة القدس، وهذا تصرف محقور.

ونحن نعلم أنَّ شوارع بأسرها تكاد تشترى في مدن مصر وقراها لينكمش الإسلام فوق تربتها، ويتحوَّل المسلمون عليها غرباء، فلم ذلك ولحساب من؟

* * *

قبرص

إنَّ حرب شراء الأراضي واحتكار المباني بدأت فعلاً، ولكي نُبَصِّر المسلمين بنتائجها نذكر لهم قصة «قبرص» كما ذكرنا في كتابنا «مع الله» وقصة «سنغافورة» التي كانت فيما مضى(!) مسلمة السكان والحكم، وأمست الآن لا صلة لها بالإسلام!!

فتحت قبرص في المد الإسلامي الأول على عهد الخلافة الراشدة، فتحها معاوية بن أبي سفيان حين كان واليًا على الشام، وكانت شؤونها الإدارية تتبع إحدى المحافظات السورية لموقعها شرقي البحر المتوسط.

ومذ دخلها العرب ونشأ فيها الإسلام لم تتغير أوضاعها المعنوية ولا الإدارية فقد أصبحت بلداً مسلماً منذ أربعة عشر قرناً.

وبعد انتهاء الخلافة العربية وَرِثت الخلافة التركية قبرص فيما ورثت من ديار الإسلام الشاسعة، إلَّا أنَّ الترك في القرن التاسع عشر كانوا يترنَّحون تحت الفساد السياسي الذي نَخَر كيانهم، والضغط الصليبيي الذي قَطَّع أوصالهم فوثبت إنجلترا ــ أمّ الخبائث في ميدان الاستعمار ــ على قبرص، وجعلتها قاعدةً عسكريةً لها بعدما أبرمت اتفاقاً مع العثمانيين بردّها إليهم عندما تستغني عنها(!)

وبدأ الإنجليز يستقدمون العمال اليونانيين بكثرة ليخدموا في القاعدة العسكرية ثم بدأوا يغرونهم بالتوطن في الجزيرة.

فما هي إلَّا سنوات حتى كثر عددهم، وزاحموا المسلمين مزاحمة شديدة سواء كانوا تركاً أو عرباً فأخذ الميزان السكاني يتذبذب، ثم أصبح ربع السكان من المسلمين الأتراك، والثلاثة أرباع من اليونانيين المسيحيين..

وما إن شعر المسيحيون بتفوقهم العددي حتى طلبوا الاستقلال تمهيداً للانضمام

إلى اليونان، ولم تكن الجزيرة يوماً ما تابعة لليونان.

وكان جَزَعُ المسلمين شديداً لأنَّ هناك مسلمين يونانيين في إقليم «قوله» وما جاوره ذوَّبهم الاضطهاد والإذلال، وأخذوا في الانقراض دون ضجة! ومن هنا طلب المسلمون أن تقسَّم الجزيرة بينهم وبين اليونانيين الوافدين، ولكن يرضى القتيل وليس يرضى القاتل. فإن السيد مكاريوس يريد فرض نفسه بوصفه صاحب الجزيرة.

والمهم أنَّ جمال عبد الناصر أيَّده كما أشرنا آنفاً، وأوعز إلى شيوخ الأزهر أن يقدموا له التحيات المباركات.

ولا أدري كيف يقع هذا، ولكن الذي أدريه أن زعيم القومية العربية استبعد من علماء الأزهر أن يقولوا: لا.

وجعل على قمة المعهد اليائس من تعفَّنت ضمائرهم من طول البلى.

وهكذا يموت الإسلام، وتنهزم قضاياه.

* * *

العقيد الناصري

قلت لأحد قدامى الإخوان: ما رأيك في العقيد القذافي[1]؟ قال: نتمنى له التوفيق في خدمته للإسلام، لقد جمع من خبراء الفقه والقانون من يعاونون على إعادة الشريعة الإسلامية إلى الحياة، وهذا سعيٌ مشكور، وقد حسبته أولَ ما قدم بثورته من جماعة الإخوان، لأنَّه تبنَّى أفكارهم ومبادئهم، ما انتقصَ منها ولا زاد عليها، ولما تناول الإخوان بالسوء قلت: لعلها تقيَّة حتى يتركه الخصوم ـ خصوم الإسلام ـ يمضي في طريقه دون اتهام ولا تعويق؛ فرددت على هذا الأخ القديم: وهل لا زلت على رأيك الأول؟ وهو يتَّهم جماعتكم بالتعاون مع الاستعمار، ويعتقل في أنحاء ليبيا من يظن بهم الانتماء إلى الجماعة؟

قال: إنني في حَيْرة، وما أحسبني كنت واهماً عندما عددته من الجماعة، إنه ليس فقيهاً إسلامياً، ولا مفكراً إنسانياً يمكن وصفه بأنه أتىٰ من عند نفسه بما أتى به.

---

(١) نؤثر أن يعرفه القراء بـ «العقيد الناصري».

إنه يردد كل ما كتبه الإخوان من نظرات اقتصادية وحماسية للشريعة الإسلامية.

وأنت خبير بأنَّ ما نشر في أرجاء العالم الإسلامي والعربي من هذه الكتابات هو لمؤلفي الإخوان أو لأصدقائهم العاملين معهم في هذا الحقل، والمتعرضين معهم للاضطهاد والبلاء.

لقد تبنّاه العقيد القذافي بما فيه من خطأ أو صواب!!

قلت: أيُّ خطأ؟ قال: إنك أصدرت في أوائل الأربعينات عدة كتب في هذا الموضوع، ثم نشر الأستاذ «سيد قطب» رحمه الله في أواخر الأربعينات كتاب «العدالة الاجتماعية»، ثم نشر الأستاذ «مصطفى السباعي» رحمه الله كتابه «اشتراكية الإسلام» في أوائل الستينات، وفي هذه الغضون تمت ترجمة رسائل الأستاذ «أبي الأعلى المودودي»، وقد خلطتم الإسلام بالاشتراكية على نحو لا يرضي أعداداً من المسلمين!!

قلت: إننا أرينا الأجيال الناشئة من ديننا ما يغني عن استيراد الفلسفات الأجنبية الشاردة، وأنا شخصياً قد أكون تجوَّزت في بعض العبارات، لكن جوهر الموضوع إنصافٌ رائع لديننا الحنيف.

قال: علىٰ أية حال، فعن هذه الكتابات كلها نقل «القذافي» ما أسماه بالنظرية الثالثة، وهي تسمية نرفضها، ولو سلَّمنا بها فإن السؤال المحير هو: لماذا يستمد من الإخوان ثم يهاجمهم؟

واستأنف محدِّثي الكلام: إنَّ الإخوان حاربوا ألوانَ الاستعمار جميعاً من قبل أن يولد الزعيم الشاب.. حاربوا اليهود سنة ١٩٤٨م وردُّوهم على أعقابهم بعدما وصلوا العريش، وكادوا يحتلون أجزاء من مصر.

حاربوا الإنجليز على شواطىء القناة، وزلزلوا أقدامهم ونسفوا معسكراتهم، وأرغموهم على التفكير الجاد في الجلاء نجاة بأنفسهم.

حاربوا الماركسية والإلحاد بعدما غمر الجامعات، واستحدثوا تياراً من الإيمان والاستعفاف جدَّد القيم في المجتمع المصري، وألقى الرعبَ في صفوف أعداء الحق.

ثم قال صاحبي في حماس: إنَّ اصطياد التهم للجماعة على هذا النحو الشائن لا يمكن أن يكون إلاَّ لحساب الاستعمار، حتى لا يتكوَّن جيل من المؤمنين الأحرار يقاوم الصهيونية، ويحمي الأمة المحروبة تيارات التخريب النفسي والخلقي.

قلت: ولعله عدم إلمام بالتاريخ القريب، أو لعل إشاعات سبقت إلى فكر الرجل من أناس خدع بهم فصدق دعواهم..!!

رأيي أنَّ العقيد القذافي يمكن أن يُتفاهم معه، وأن يراجع نفسه في بعض الأحكام.

لقد استمعت إلى المحاضرة التي ألقاها في مقر «اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي» بالقاهرة، والتي خَلصَ منها إلى أنَّ المسيحي رجل يعبد الله على طريقة عيسى بن مريم، فهو بذلك مسلم لأنَّ أتباع عيسى مسلمون بنص القرآن الكريم.

أمَّا أن أصحاب مسلمون، عبدوا الله الواحد، وصدقوا برسوله عيسى فهذا ما أجمع المسلمون عليه.

وأمَّا الزعم بأنَّ الذين عبدوا عيسى نفسه مسلمون فهذا ما لم يقله أحد! فإنَّ الخصومة بيننا وبين النصارى أنهم لا يتبعون عيسى، عبد الله ونبيه إلى بني إسرائيل، لا يتبعون الإنسان الذي قال: ﴿إنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

إنهم يتبعون شيئاً اسمه ابن الله الوحيد، الذي ضحَّى به على الصليب قرباناً لتكفير الخطايا، وهو الربُّ يسوع المسيح، فهل هذا إسلام؟

لقد وصف الإسلام هذا القول بالكفر:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾. [الزخرف:١٥]

وليس يعطي كلام العقيد القذافي أيةَ وجاهةٍ أنَّ مجلس قيادة الثورة أقرَّه وتبناه!!

أخشى أن يطرد القياس ويقال: إنَّ اليهودي إنسانٌ مسلم يعبد الله على طريقة موسى الكليم، وبذلك تنحلّ المشكلات القائمة بين العرب واليهود.

فالكل حسب هذا المنطق مسلمون، ينبغي أن يتفسَّحوا في المجالس والأوطان، وأن يسع بعضهم بعضاً دون شحناء ولا بغضاء.

إنَّ العقيد يظلم نفسه إذ يخوض في هذه البحوث ويقرر هذه النتائج.

ثم يبقى بعد ذلك كله أمر مهم، هل للعدالة مكانها في سلوك الحكام المسلمين أم لا؟

إنَّ الله عز وجل يقول في كتابه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴿٨﴾ ﴾. [المائدة: ٨].

ومعنى ذلك أن يحكم العقل والإنصاف مشاعر الحقد والغضب.

مهما كرهت فرداً أو جماعة فلا يجوز إذا كنت تقياً أن أسترسل مع هواي في سجن خصومي أو تعذيبهم أو تهديد حاضرهم ومستقبلهم..

والمألوف في أرض الله كلها ـ عدا الغابات وما إليها ـ أن يحقَّق مع المتهم، وأن يمنح حق الدفاع عن نفسه، وأن يمحِّص القاضي ما نُسِبَ إليه في نزاهة، ثم يصدر الحكم في أناة وتبصُّر بالإدانة أو التبرئة..

أما القذف بالناس في السجون لأنَّ الحاكم رأى ذلك فشيءٌ منكر جعله القرآن الكريم قرينَ سفك الدم الحرام، وعابه على اليهود في قوله:

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴿٨٥﴾ ﴾. [البقرة: ٨٥].

لماذا يشرَّد الطالب عن داره فلا يتم تعليمه، أو ربُّ الأسرة عن بيته فتتعرض زوجته وأولاده للمآسي والمعاصي؟؟

إنَّ الحاكمَ الذي ينتسب إلى الإسلام يستحيل أن يتدلَّى إلى هذه المسالك.

إنني أحد الذين اعتقلوا يوم كنت منتسباً إلى جماعة الإخوان، وحتى بعد فصلي من الجماعة اعتقلت لأني لم أتخلَّ عن العمل الديني.

إنني ما سئلت عن شيء قبل أو بعد الاعتقال، لأنه لم يكن هناك ما أُسأل عنه غير أنَّ التجارب التي ذقتها والمشاهد التي رأيتها جعلتني أزداد رسوخاً فيما كنت أقوله

باستمرار: إنَّ الحرية نعمةٌ جليلة رائعة، وإنَّ العدوان عليها سيئة مضاعفة الوزر شديدة العقاب.

إنَّ طراز الحكم في العالم العربي إن لم يضبط داخل الإطار الإسلامي فسيكون مَعَرَّةً للإسلام تُنفِّر منه بل تثير السخرية به!!

والذي ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ هو الله الواحد الذي لا معقِّب على حكمه، ومع ذلك الاقتدار للكبير المتعال فهو يقول: «يا عبادي إني حَرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظّالموا»(1).

فهل ذلك ما يبيح لحكّامنا أن يستغلوا سلطانهم الموقوت في ضرب الناس وسجنهم دون ما سبب؟

وَمَنِ الذين يُهانون؟ متَّهمون بالدعوة إلى الإسلام؟!

﴿يا حسرةً على العباد﴾...!!!

إنَّ قلبي يتفطَّر عندما أرى الدمَ الإسلاميَ أرخص دمٍ على الأرض.. لقد استباحه المجوس واليهود والنصارى والوثنية والملحدون.. وحكّام مسلمون!!

ولا ريب أنَّ المدافعين عن الإسلام تكتنفهم ظروفٌ صعبة معقدة، غير أنه بين الحين والحين ينبجس من رَوْح الله ندىً يواسي الجراح ويهوِّن الكفاح ويبشر بالصَّبَاح..

ومهما كانت الأوضاع محرجة فلا بد من بقاء الدعوة الإسلامية مرفوعةَ الراية واضحة الهداية، تعلن الحق وتبسطُ براهينه، وتلقف الشبه وتوهي إسنادها..

إنَّ محمداً ليس وقفاً على عصر أو جنس، إنَّ رسالته للقارات الخمس ما بقي الزمان وعلينا أن ننهض بهذا العبء.

وحتى تعود «الخلافة الإسلامية ــ وإعادتها فرض عين ــ لتتولى هذه المهام يجدر بنا أن نتبع ما يأتي:

● إعادة النظر في مناهج تعليم الإسلام في شتىٰ مراحل الدراسة العامة..

---

(1) رواه أحمد ٥/١٦٠؛ ومسلم في كتاب البر، وغيرهما.

وإعادة النظر في مناهج التعليم الديني نفسه لتخريج فئات أوسع درايةً وأحدّ بصراً.

- اختيار الدعاة وفق مواصفات أدق وأرقى مما يتبع الآن، وتوسيع آفاق الدعوة الإسلامية أو الإعلام الإسلامي بحيث تستوعب ميادين النشاط الإنساني جميعاً.
- إقامة حلقات اتصال بين الجامعات الإسلامية الموجودة الآن في عواصم الإسلام كلها لتبادل الخبرة والمشورة العلمية والعملية.
- عقد مؤتمرات دورية متصلة لبحث مشكلات الدعوة ورصد الهجمات المنظمة ضد الإسلام، ووضع الخطط المناسبة لخدمة الرسالة الإسلامية.
- بسط الرعاية الدينية على المسلمين المهاجرين إلى الخارج والإفادة من مواضعهم الاجتماعية والثقافية حتى يكونوا معابرَ لرسالتنا العظيمة، بدل أن يذوب هؤلاء في دوامة الحياة الغربية..
- التقاط الفارِّين من وجه الحكومات المعادية للإسلام في إفريقيا وغيرها، وتيسير التحاقهم بالمدارس والمعاهد العربية ليعودوا أقدر على قيادة أممهم ورد الفتن عنهم.
- دراسة المؤتمرات التبشيرية المحلية والعالمية واستكشاف المؤامرات المبيّتة ضدنا.
- وبديهي أنَّ ذلك كله لن يتحقق كلًّا أو جزءاً إلَّا في ظل حكومات تحترم الإسلام، وترى نفسها مسؤولة أمام الله عن القيام بحقوقه.
- وليست كل الحكومات العربية كذلك، فهناك من يكره الإسلام والحديث عنه وهناك من يقبله عبادات لا معاملات، وعقيدة لا شريعة ويرفض الدعوة إلى تطبيقه كله.
- وهناك من يمهِّد لاستقبال الشيوعية ومن يمهِّد لاستقبال العلمانية.
- ولا تعليق على هذا الارتداد السافر أو المحجَّب إلَّا أن نقول:

على الشعوب أن تتحرَّك وإلَّا تَعرَّضت للفناء، عقوبةً من ربِّ السماء!!

* * *

التواضع لله من دلائل الرشد وأمارات الإيمان، بل هو من علامات الصحة العقلية والنفسية، فإن المعجبَ بنفسه المتكبر على غيره إنسانٌ لم يعرف حقيقته، ولم يتصرف في نطاق هذه الحقيقة فهو مصدر تعب وقلق حيث كان.

ومبلغ علمي أن أصحاب المواهب النفسية متواضعون، وأنَّ الذي رزقهم النبوغ لم يشنهم بهذا اللون من الجهالة، فهم يضعون تفوقهم الشخصي في خدمة الآخرين، وبقدر ما في معادنهم من صلابة يبتذلون أنفسهم لأمتهم ومبادئهم، دونَ قلقٍ على مكانة موهومة أو منزلةٍ مزعومة!

أما الذين يَسْتَخْفونَ وراء أسوار من المراسم والشارات فأغلبهم هشّ المعدن، قريب العطب.

وأغلب من عرفت من المتكبرين أقوامٌ صغار المواهب، يسترون علاتهم بافتعال مظاهر لا أصل لها!!

ولو أنَّ امرءاً ما استكبر بعلم حقيقي، أو بطولة رائعة، أو مال ممدود، أو قيادة حكيمة، أو غير ذلك من أسباب الرفعة لكان مخطئاً أفدح الخطأ، لماذا؟ لأنَّ واهب النعمة والخير والبروز هو الله جلَّ شأنه.

والإنسان جسر يعبر عليه الفضل الأعلى، ومجلًى لهذه العارية الطارئة عليه من غيره لا من ذاته، فَلِمَ الكبرياء على الله؟

ما أحسن قول الرجل المؤمن لأخيه المغتر بثرائه:

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴿٣٩﴾ ﴾. [الكهف: ٣٩].

إنَّ المُدِلَّ بجماله لم يصنع شيئاً من ملامحه الوسيمة، وذوو المواهب العليا رزقهم التفوق مَنْ خَلَقهم ومهَّد لهم واختبرهم بما أتى، فلماذا الغرور بالنفس؟

ولنترك هذا الكِبْر الذي لا يعتمد على سناد، أي سناد في تفكير أصحابه.

ولننظر إلى قوم آخرين يستكبرون بالهباء أو بما لا يزن شيئاً طائلاً.

وقد كثر هذا النوع في بلادنا وتوزَّع على مناصب شتىٰ هنا وهناك ومسخت دعاواهم كل شيء.

ترى الواحد منهم فقيراً في معرفته، ضئيلاً في إنتاجه، ومع ذلك يرمق الحياةَ والأحياء بالنظر الشَّزْر، ويعامل الناس معاملة العملاق للأقزام، والفيلسوف للعوام.

في غير ميدان قابلت هؤلاء يتكلمون، أو يعملون، أو يحكمون، فرأيتهم حراصاً على الظهور في شارات الناس الكبار على حين تضعهم أقدارهم وثمارهم في المستوى الهابط والمكانة النازلة!!

قلت في نفسي: الناس يستكبرون بالعلم وهؤلاء يستكبرون بالجهل. الناس قد تأخذهم العزة بالطاعة، وهؤلاء تأخذهم العزة بالإثم. ما أشقى بلادنا بهؤلاء..

لو أدرك هؤلاء ما في كفايتهم من نقصٍ لاستكملوه! لكن الحجاب المُسْدَل على بصائرهم خَيَّل إليهم أنهم عباقرة، فعاشوا ينكبون الناس بقصورهم وغرورهم.

وربما اغترَّ الأعور بنصف بصره بين لفيف العميان.

أما أن يغترَّ بعاهةٍ بين أصحاب البصر الحديد فهذه النكبة الجائحة..!!

والعالم الآن مشحون بأصحاب المواهب المعجبة، والخبرات الجيدة والتجارب المصقولة، والثروات الأدبية والمادية الهائلة.

فإذا سِرْنا نحن في الموكب العالمي بهذه الحفنة من الأدعياء الفارغين فماذا يكون تقديرنا وماذا يكون مصيرنا؟؟

والشخص التافه يفلسف الأوضاع حوله بما يشبع كِبْرَه، ويصدق وهمه، أي أنه بدلاً من أن يستيقظ على الحقائق اللاذعة ينظر إليها من جانب يرضيه ويطغيه.

وقد روت كتب الأدب القديم قصةً هي على ما فيها من هَزْل صورة صادقة لكثير من ذوي المناصب المرموقة في الأمة العربية الآن:

كان «أبو حيَّة» النميري جباناً بخيلاً كذاباً! قال ابن قتيبة:

وكان له سيف يسميه «لعاب المنية» ليس بينه وبين الخشبة فرق وكان أجبن الناس، دخل ليلة إلى بيته فسمع صوتاً لا عهد له به فانتضى سيفه، ووقف في وسط الدار، وأخذ يقول:

«أيها المغتر بنا، المجترىء علينا، بئس ــ واللَّهِ ــ ما اخترت لنفسك: خير قليل

وسيف صقيل «لعاب المنية» الذي سمعتَ به، مشهورة ضربته، لا تخاف نَبْوته.

اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك!

إني والله إن أدع قيساً إليك لا تقم لها..!

وما قيس؟ تملأ ــ والله ــ الفضاء خيلاً ورجلاً. سبحان الله ما أكثرها..!!

وبينا هو كذلك إذ خرج كلب من الدار، فقال:

«الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفانا حرباً!!!».

لست أبعد إذا قلت: إنني رأيت صوراً لهذا الجبان المسْتأسد في بعض الساسة الذين كتبوا تاريخ الشرق العربي في العصر الحديث.

- العجز الحريص على الصدارة.
- الدعوى الفارضة نفسها على الواقع.
- الهوى الذي يطوي الأشخاص والأشياء والأحداث في تَيَّاره ويضفي عليها صبغته الجادة أو الهازلة.

ذكر الجنرال «ايزنهاور» قائد الحرب العالمية الثانية التي انتصرت فيها أمريكا وحلفاؤها، إنَّ أمريكا لم تعط رجلها لقبَ «ماريشال» مع أنه خاض حرباً تَمَّ له فيها النصر بعد أن دُمِّرت مئات المدن والقرى وقُتِلَ فيها وجُرِحَ سبعون ألفَ ألفِ شخص.

لكن ناساً في الشَرقَين الأوسط والأقصى حصلوا على هذا اللقب دون أن يخوضوا حرباً أو يعانوا ضرباً.

في البلاد المحترمة يصعد الأفراد من السفوح إلى القمم والعَرَق يتصبَّبُ من جبينهم، والإرهاق والتفكير يلاحقهم بين آن وآخر.

وعلى هذا السنن البائس تجري أمور العرب.

أما في البلاد المتخلفة فإن ناساً يصلون إلى الذرى دون جهد يذكر اللهم إلَّا جهد الملق لملاك السلطة والاستعداد لخدمة الأهواء!!

وقديماً نظر البحتري إلى واحد من هؤلاء جعله «الخليفة» قائداً، وهو لا يصلح لقيادة ولا ريادة فقال:

ويكاد من شبه العذارى فيهِ أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقِد خصره سيفاً ومنطقة تؤوده
جعلوه قائدَ عسكرٍ ضَلَّ الرعيل ومن يقوده

فهل هذا اللون من الخلائق ترشحه مواهبه لهدف كبير؟

وهل هؤلاء القادة «بالتعيين» لا بالخصائص «النفسية والعقلية» هم الذين يقودون العرب في معركة البقاء!!

ألا ما أكثر الألقاب التي تمنح في البلاد العربية.

وعرفت مديراً أجنبياً لمصنع كبير، قيل لي في وصف إدارته:

«تراه جَوَّالاً بين الآلات والمكاتب مغبرَ الجبين بتراب العمل وعرقه، ملوث الثياب بالزيوت والشحوم التي تسقط عليه وهو تحت آلة يعالجها، أو في طريق وعرة إلى مهمة ثقيلة!!».

فتذكرت شكوى أحد المربين وهو يصف لي بعض الشباب في بلادنا العربية، قال: إنهم يبغون مكتباً أنيقاً يجلسون إليه، و «تليفوناً» يثرثرون فيه، ونمطاً من العيش لا يضني ولا يقلق.

قلت: والله هذه أخلاق الهزيمة والضياع، وأصحابها هم عللنا المقعدة، وأمَّا الرجال المعنيون بالعمل الحق، الحَمَّالون لأعبائه الثقال فهم أصل النصر والتقدم!!

إنني أغوص في بحر من الحَيْرة والأسف حين أرى عظماء العالم على جانب رائع من دماثة الخلق، ولطف المعاشرة، وسهولة الطبع وقلة التكلف، على حين ترى المتسولين من موائدهم متعجرفين متعاظمين كأنهم أتوا بالديب من «ذيله» كما يقول العوام في أمثالهم.

إنَّ بناة التاريخ من سلفنا الصالح كانوا يتميزون بخلقين:

- عظم الكفاءة.
- ونكران الذات.

ذلك ما استفادوه من إيمانهم الوثيق بالإسلام.

قدرة ملحوظة في مجالات النشاط الإنساني، وإخلاص لله يدفع أحدهم إلى الجود بما عنده:

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾. [الليل: ١٩].

والغريبُ أنَّ الخلف الطالح جاء على الضد فهو مكشوف العجز في جَنَبات الدنيا مادياً وأدبياً، وهو طالب شهرة يجري وراءها كالطفل الغرير، ويريد أن يرمقه الناس بالتجلة على غير شيء!

إنَّ خصومَنا لم يخرقوا العادات فيما يفعلون ويتركون، لقد رأيتهم منطقيين في شتىٰ أحوالهم.

أما نحن فقد هبطنا عن المستوىٰ العادي ولم نكن منطقيين في تصرفاتنا، ومن وراء هذا الخَلل الجسيم البعثيون والقوميون الذين نفثوا سمومهم في كل شيء، فقد جَرّؤوا العرب على قطع نسبهم إلىٰ الإسلام، ثم جرؤوهم على اطراح عقائده وفضائله، ثم وثبوا على الحكم عقب انقلابات مصطنعة لا تتصل بالشعوب العربية من قريب أو بعيد، ثم أخذوا يتعسَّفون السير نحو أغراضهم على حطام من الداخل، وإن كان الظاهر مزوّقاً وكانت النكبة. .

فهل تعلم العرب من هزائمهم المترادفة أن يثوبوا إلى رشدهم؟

كلا. . ولقد راقبت الانقلابات التي وقعت في أرجاء العالم الإسلامي وأزعجني أنها وقعت لمحاربة عوج، وإقرار خير، فإذا العوج بعدها يزيد والخير ينكمش.

واهتبل أعداء الإسلام الفرصة فضاعفوا أرباحهم في بلاده، وإيهانهم لقضاياه حتى لكأنَّما كانوا مع هذه الانقلابات على موعد!!

ففي إفريقيا حيث حيكت مؤامرات ماكرة لسحق الإسلام وطيِّ أعلامه، رأينا ديننا الجريح يدوخ تحت ضربات موجعة يفقد بعدها الكثير من تراثه وسلطانه وكرامته. .

ونشأ عن ذلك ــ في أقرب البقاع علينا ــ أن ضاع السودان الجنوبي بجرَّةِ قلم وتحقق حلم الصليبية العالمية التي تسعى وراءه من خمسين سنة، فكسبت «٢٥٠ ألف ميل مربع» من الأرض.

وتـاحت الفرصـة غريبـة لعشر السكـان المسيحي أن يتحكَّم في البقية الضـائعـة ويمحو منه الإسلام.

وسنرى كم ستكسب «إسرائيل» من هذا التصرف.

إنَّ أغلب الانقـلابات التي حـدثت رتَّبت وظائف الـدولة العليـا والـوسـطى على أساس أُهدرت فيه الكفايات إهداراً مزعجاً..

وتصوَّر معيداً في كلية يصبـح عميدها، أو كاتباً في محكمة يصبـح رئيسها، لكن هكذا تجري الأمور في غيبة الدين والدنيا معاً.

لقد أبـي المتنبـي الذهاب إلى الأندلس، لأنه أدرك تفاهـة حكّامهـا من ضخامـة الألقاب التي يحملونها، وكأنَّ الرجل يصف أحوال العرب في عصرنا هذا لا في عصره هو عندما قال:

فـي كـل أرض وطئـتـهـا أمـم يـقـودهـا عـبـد كـأنـهـا غـنـم!

إنَّ العرب الآن يخوضون معركة بقاءٍ أو فناء.

وفي غيبة الإيمان وتقاليده وشمائله عن مجتمعاتهم نَمَت أخلاق أخرى لا تصلح بها حياة ولا تضمن بها أخرى.

ومن الخير أنَّ يتحسَّسوا هـذا البلاءَ في صفـوفهم فيحسموه. إنَّ الحقـائق تفرض نفسهـا طوعـاً أو كرهـاً مهما تجـاهلناهـا، وعندمـا يكون الشعب شكـلاً لا موضـوع لـه فهو صفر.

وعندما يكون الرؤساء أوراقاً مالية ليس لها غطاء نقـدي محترم فهم عملة زائفـة، قد تروج بين المغفلين، ولكن إلى حين.

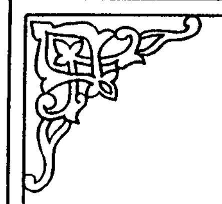
على العرب أن يعيدوا تشكيلَ نفوسهم وصفوفهم، ومتقدّميهم ومتـأخريهم، وفق القانون الإلٓهي العتيد:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾. [النساء: ١٢٤].

- ما يفعل الله للعرب إذا كان خصومهم يحترمون كلام أنبيائهم، ورؤساء العرب يستهينون بكلام نبيهم؟
- ما يفعل الله للعرب إذا كان خصومهم في كل ميدان يقودهم أقدرهم وأشجعهم، أما قادة العرب فأخلاط من الناس فرضتهم في أماكنهم حظوظٌ سيئة؟
- ما يفعل الله للعرب إذا كانوا يهزلون وخصمهم جاد؟

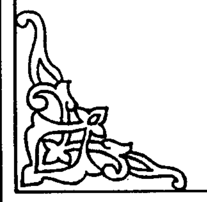
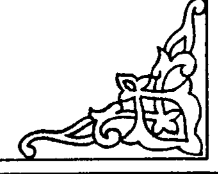
لا بد من إعادة النظر في شأننا كله، وإلَّا حقَّت علينا كلمة ربك.






الفَصل السَّابِع

- سياسة الحكم والمال في الإسلام.
- نظرة في التحرك الشيوعي.
- حوار مع مُلحد.
- الإيمان حق والإلحاد وهم.
- بين العلم والإيمان.
- العرب بدون الإسلام صفر.
- الإسلام موقظ لا يخدر الشعوب.
- المادية حركة رجعية.



الفَصْلُ السَّابِعْ

لا بد للإسلام من خطة إيجابية
يواجه الغزو الثقافي بها

سياسة الحكم والمال في الإسلام

في مواجهةِ التياراتِ الفكرية الهاجمة علينا أصدرتُ عِدَّة مؤلفات تتحدّث عن النظام الاقتصادي الإسلامي، كما تصوّرته من كتابِ الله وسنةِ رسوله، وتطبيقات الخلافة الراشدة، وكان يغلب عليَّ ــ وأنا أقَدِّم هذا التصور ــ أمران:

إطلاع المثقفين المعاصرين من خريجي المعاهد المدنية على الجوانب المضيئة من تراثنا والمغنيةِ عَمّا سواها حتى يكون تعلقهم بدينهم لا بغيره.

ثم الإزراء على الأوضاع المعوجة السائدة، ورفض السناد الديني الذي تنتحله لنفسها.

وأعترف بأني تجوَّزت في التعبير أحياناً، وَقبِلتُ بعض العناوين الشائعة «كالديمقراطية» في ميدان الحكم، «والاشتراكية» في ميدان الاقتصاد، لا لإعجابي بهذه العناوين، ولكن لأجعل منها جسراً يعبر عليه الكثيرون إلى الإسلام نفسه، أي أني أريد نقل «الديمقراطيين» و«الاشتراكيين» إلى الإسلام بعدما أوضحته وأبرزت معالمه، لا أني أريد صبغ الإسلام بصبغة أجنبية أو نقله إلى مذاهب مستوردة. . .

وقد جاء من بعدي الأستاذان «سيد قطب» و«مصطفى السباعي» ــ عليهما رحمة الله ــ فألَّف الأول «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وألَّف الأخير «اشتراكية الإسلام» وهما يقصدان ما قصدت إليه من ردِّ المفتونين بالمبادىء الجديدة إلى مواريث أسمى وأغنى.

وربما كان ما كتباه أفضل مما كتبته أنا وأكثر تنظيماً.

وعذري أنني كنت رائداً تدمى أظافري في الاكتشاف والتدوين، فإذا جاء من

بعدي ووجد حقائق ممهدة كان على تنسيقها أقدر وعلى صوغها أدق!!

ومما لا ريب فيه أنَّ الإسلام دين تنهض دعائمه الأولى على الإيمان بالله واتباع ما أوحاه إلى رسوله الخاتم محمد ﷺ، وأنَّ عقائده وعباداته ليست مجال أخذٍ ورد.

لكن «نظام الحكم والمال» فيه يعتمد على نصوصٍ محدودة، ثم على قواعد وأقيسة ومبادىء ومصالح كثيرة. . .

وقد جُمِّد «الفقه الدستوري» لدينا من أعصار بعيدة، ثم جُمِّد بعده «فقه الفروع» منذ أغلق باب الاجتهاد حتى فتحه أناس ليسوا موضع طمأنينة.

كان رجال القانون في أوروبا وأمريكا ــ منذ قرنين ــ يضعون الدساتير التي تقيّد الملوك والرؤساء، وتبرزُ سلطات الأمم في وجه الحكم الفردي المطلق.

أما نحن فكان المطلوبُ منا أن ندعو إلى الإسلام وحسب، والذين يشمئزون من كلمة «ديمقراطية» لا يفكرون في القيام بجهد عملي ينقل «الشورىٰ» الإسلامية من ميدان الفكر النظري المطلق إلى قوانين دقيقة تنصف الجماهير العانية، وتضبط سلطات الولاة على اختلاف ألقابهم.

ونحن نسمي هذا التزمّت بَلَادة، وربما اتهمنا بواعثه النفسية وإذا كان أصحابه مخلصين فهو إخلاص «الدبَّة» التي قتلت صاحبها وقد أصاب الإسلام أعظم الضرر من هؤلاء!!

تأمَّل في هذه القصة التي ذكرها الشيخ الكبير محمد رشيد رضا قال: إنَّ الخديوي إسماعيل استدعى رفاعة الطهطاوي وخاطبه:

«يا رُفاعة، أنت أزهري تعلَّمت في الأزهر وتربَّيت به، وأنت أعرف الناس بعلمائه وأقدرهم على إقناعهم بما ندبناك له، إنَّ الفرنجة قد صارت لهم حقوق ومعاملات كثيرة في هذه البلاد، وتحدث بينهم وبين الأهالي قضايا، وقد شكا الكثيرون إليَّ أنهم لا يعلمون أيحكم لهم أم عليهم في هذه القضايا؟ ولا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم، لأنَّ كتب الفقه التي يحكم بها علماؤنا معقَّدة وكثيرةُ الخلاف، فاطلب من علماء الأزهر أن يضعوا كتاباً في الأحكام المدنية الشرعية تشبه كتب القانون في تفصيل المواد واطّراح الخلاف، حتى لا تضطرب أحكام القضاة، فإنْ لم يفعلوا

وجدتني مضطراً للعمل بقانون «نابليون» الفرنسي!!»[1]

قال رفاعة الطهطاوي ـ مجيباً الخديوي ـ: يا أفندينا: إني سافرت إلى أوروبا وتعلَّمت فيها، وخدمت الحكومة وترجمت كثيراً من الكتب الفرنسية وقد شخت، وبلغت إلى هذه السن، ولم يطعن في ديني أحد، فإذا اقترحت الآن هذا الاقتراح بأمر منكم طعن علماء الأزهر في ديني وأخشى أن يقولوا إنَّ الشيخ رفاعة ارتدَّ عن الإسلام آخر عمره إذ يريد تغيير كتب الشريعة وجعلها مثل كتب القوانين الوضعية.. فأرجو أن يعفيني أفندينا من تعريض نفسي لهذا الاتهام، لئلا يقال مات كافراً.

فلما يئس الخديوي أمر بالعمل بالقوانين الفرنسية.

والقصة المحزنة تحكي فسادَ الأمراء والعلماء جميعاً، وتكشف أنَّ ما أصاب المسلمين من شتات وخزي ليس بلاء يؤجرون عليه ولكنه عقاب يستحقونه: ﴿وَمَا كان رَبُّك ليهلكَ القرى بظلمٍ وأهلُها مصلحون﴾.

ولقد كنت أسأل نفسي: نحن نكافح هذه القوانين المستوردة من الخارج وما تتضمنه من فساد وإلحاد، فكيف دخلت بلادنا، وماذا كان موقف العلماء منها يوم جاءت، ولِمَ لم يموتوا دون تحكيمها في مجتمعنا؟

ثم علمت أنَّ موتنا الأدبي هو الذي مَهَّد لقبولها واستقرارها، ومع نهضتنا الإسلامية الحالية بدأت تشريعات جنائية ومدنية تستقي من ينابيع الإسلام الأصيلة، ولا ريب أننا نملك أعظم ثروة تشريعية في القارات الخمس، غير أنها دفينة في صحائف مهجورة ومصبوبة في قوالب قديمة، ونستطيع أن نسترشد بها في إقامة صَرْح قانوني إسلامي شامخ..

ويبقى قبل ذلك وبعده أن يزدهر الفقه الدستوري عندنا ويتخلَّص من أوهام العصور المتخلِّفة ورعايا حكام الجور.

يبقى أن تتحوّل كلمة «الخلافة الراشدة» مفصلة: «إن رأيتم خيراً فأعينوني وإن

---

(١) في كتاب تاريخ المحاكم المختلطة والأهلية للأستاذ عزيز خانكي، وتسمى الآن المحاكم الوطنية، والنقل عن مجلة «المسلم».

رأيتم شراً فقوِّموني»... إلخ، إلى مواد مفصَّلة لدستور إسلامي يمنع الطغيان، وينعش الأمم، ويضع سياجاً متيناً حول كل حق خاص أو عام.

وقبل أن نحتقر كلمة «ديمقراطية» ونجبه قائليها، نقدِّم العوض الإسلامي عنها وعن آثارها القريبة والبعيدة.

وأيُّ حرجٍ في أن ننتفع بتجارب الماضي الطويل عندنا وعند غيرنا ونحن نضع الدساتير؟

وما يقال في الجانب السياسي يقال في الجانب الاقتصادي.

إنَّ ديننا يروع بما حوىٰ من تعاليم تحقق الأخوة، وتضمن الكرامة، وتحارب الجوع والذل والبطالة والضياع.. ثم أنه حَرَّم الاحتكار والاستغلال والربا والترف.

وجملة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في هذا الميدان تكوِّنُ صورةً اجتماعية زاكية راقية.

ولا نقول: تكوِّن مذهباً اجتماعياً مستقلاً، فإنَّ الآثارَ الإسلامية الموصولةَ بهذا الشأن لا تعدو أن تكون فروعاً من الشجرة الكبيرة التي تضم تعاليم الإسلام جمعاء، أو بتعبير آخر هي بعض شُعَبِ الإيمان التي تبلغ الستين أو السبعين شعبة.

والجهد الإسلامي الواجب: إذا كان الإنسان يوفِّر الكرامة للإنسان فما هي العناصر التي يستجمعها لإنشاء بيئةٍ تنبت العِزَّ ولمنعِ البيئة التي تنبت الهوان، وكيف يصوغ هذه العناصر قوانين ضابطة لأحوال الأمم.

إذا كان الإسلام يمقت الفقرَ ويحب الاستغناءَ، فما هي العناصر التي يحشدها ليستغلَ خيراتِ الأرض في البر والبحر، وكيف يجنّد الهمم للكدح والكفاح، ثمَّ كيف يصوغ ذلك كله قوانين تحيل الجماعة الإسلامية إلى خلية ناشطة منتجة.

إنَّ المسلمين ظلوا أمداً:

- يحتفون بالأنساب أكثر مما يحتفون بالأعمال.
- ويؤخِّرون العلم ويقدمون الحظ.
- ويريقون الأوقات على مصاطب اللغو والثرثرة أكثر مما يستغلون الأوقات في الجدّ.

● وتحكمهم تقاليد ابتدعوها أكثر مما تحكمهم مواريث الدين ذاته. . .

بل جعلوا العلم بالدين وظيفة الهَمَل والمغموصين، فكان العقاب الأعلى لهذه الخيانات الباطنة والظاهرة أن سقطت الأمة الإسلامية على الصعيد العالمي هذا السقوط الذريع، وانسحب ذلك على دينها، فلم يصدق الناس أنه رحمة للعالمين. . !!

* * *

نظرة في التحرك الشيوعي

لقد بذلنا ــ أول العهد بالتأليف ــ جهداً حسناً في سبيل تقديم الإسلام متجاوباً، بل متبنياً لآمال الشعوب في الكرامة والتقدم، وأمطنا اللثام عن نصوصٍ كانت موجودةً بداهة، ولكن العيون كانت تتجاوزها.

وربما أخطأنا في الشرح والاستنتاج ــ والخطأ خليقتنا ــ لكن هذه الكتابات إذا جرّدناها من حرارة الشباب وسكبنا عليها قليلاً من برودة الشيخوخة، أمكن استخلاص المادة التي تُسَنُّ منها قوانين تشرِّف الأمة الإسلامية وترفع كفتها.

إنَّ الإنكليز في سبيل صدِّ الشيوعية وصلوا إلى تأميم الطب، وكفالة العيش لكل عاطل حتى يجد العمل.

وغيرهم ابتكر ضروباً من الاشتراكية سدَّت الباب سداً أمام اليسار المغري، فهل يغني عنا أن نقول: في الإسلام ما يكفي ويشفي دون أن نترجم تعاليمه إلى دساتير وقوانين؟

ولكي نعرف كيف يتصرَّف غيرنا ليخدم نفسه ويحقق غرضه ننقل هذه الكلمات من رسالة عن «المخطط الشيوعي» للدكتور إبراهيم دسوقي أباظة جاء فيها: «ينفرد المخططُ الشيوعي بخاصة نَفَّاذة، فهو يجمع عند الماركسي الحق بين التواء الأسلوب وصدق العقيدة، فكل ما يوصل إلى الغاية تسوّغه الغاية، وإن كان يصدم مرحلياً بجوهرها، وكل ما يحمل إلى الهدف يبرره الهدف، وإن بدا مناهضاً لمنطقه. .

● **وهكذا التحق «المراكسة» بالوطنية وهم العالميون!**

● **وانتعلوا نزعة القومية وهم اللاقوميون!**

● واعتصموا بحبل الدين وهم الملحدون»!

ويقول: «وبين دول العالم الثالث لم يعد الدين أفيون الشعب ـ لمكانة الدين في شعوب هذا العالم ـ وإنما أصبح الشعار المرفوع: الدين لله والشيوعية للجميع».

أو كما قال «قسيس أحمر»: ننظِّم حياتنا هنا كما نحب فإذا جاءت الآخرة نظرنا كيف نتصرف!!

وعلى هذا الأساس تحرَّك الحزب الشيوعي في إيطاليا وفرنسا، وفي السودان واليمن الجنوبي، ولا يزال بعضنا يدافع عن التراث الإسلامي بتفكير عصر المماليك!!

وحتى نعرف عدونا وما يصنع نقرأ هذه الكلمات: «إنَّ الإعلام الشيوعي اكتسب منذ السنوات الأولى للثورة الحمراء قدرات لم تعرف من قبل إذ أصبح قوةً مؤثِّرةً في صنع الفكر وتوجيه الحركات الثقافية في أنحاء العالم، ويكفي للتدليل على حجم هذا الإعلام ما ورد في إحصاءات الأمم المتحدة أخيراً أنَّ الاتحاد السوفيتي يحتل المركز الأول في إنتاج الكتب إذ يصدر يومياً ٣,٧٠٠,٠٠٠ كتاب، أي ما يوازي ربع إنتاج العالم، ويبلغ ما تنتجه المطابع السوفيتية في الدقيقة الواحدة ٢٠٥٠٠ نسخة، ولعل في هذه الأرقام ما يكفي، بل ما يصرح بالمراد».

ترى ماذا تنتج المطابع الإسلامية؟ لا رقم يذكر هنا، لأنه لا مجال للمقارنة، إننا نحن المؤلفين المسلمين نلتقط أنفاس الحياة بأعجوبة!

ويستطرد الدكتور أباظة فيقول: «ونجاح الاتحاد السوفيتي في إدراك هذا المستوى العالي من الإنتاج الإعلامي يعود إلى ما تقرَّر خلال الأيام الأولى لقيام الثورة فقد أصدرت الحكومة في ١٩١٧/١٢/٢٩ مرسوماً حدَّدت فيه مبادىء ونظم نشر الكتاب».

ويعتقد الشيوعيون أنَّ الصحافة والكتب من أهم وسائل الثورة الثقافية، أو بتعبير آخر من أهم وسائل الانقلاب الفكري الذي ينشدونه، ولا شك أن الكتب والرسائل المؤلفة بذكاء من أمضى الأسلحة في القضاء على الأفكار والنظرات المعارضة، وبثِّ الآراء والتصورات الماركسية.

وتقول الأرقام: «إنَّ عددَ الجرائد في الاتحاد السوفيتي ٧٩٣٧، ويبلغ مجموع

النسخ من كل طبعة ١٢٠ مليون، ويصدر منها في العام الواحد ٢٦ مليار و ٦٥٥ مليون نسخة.

أما عدد المجلات فقد بلغ ٤٧٠٤ يصدر منها في كل طبعة ١٣٢ مليون نسخة، وبديهي أنَّ هذا الإنتاج الضخم يتوزّع على روسيا وغيرها من المؤسسات الشيوعية في أرجاء العالم، وهو يطبع باللغات المحلية واللهجات الوطنية».

ذاك ما تبذله لتوضيح وجهة نظرها دولة تحتل الصفَّ الأول في التسلح العسكري، وإذا كانت الأمور قد تذكر بأضدادها فلا يأس من إيراد هذه النكتة.

كتبت يوماً كلمة أشرح فيها اعتماد الإسلام على الإقناع في نشر تعاليمه، وأنه ما يلجأ إلى السيف إلاَّ حيث يلقى السيف.

وهذه الكلمة جزء من فصل طويل في كتابي «الاستعمار أحقاد وأطماع».

وفوجئت بعد نشر هذه الكلمة بكاتب لا أعرف ما هو يتهمني بالضعف والاستسلام لآراء المستشرقين، ويقول: إنَّ الإسلام يعتمد على القوة في انطلاقه!

قلت: زعم أولاد البلد أنَّ أصمَّ وكسيحاً ومفلساً ركبوا زورقاً لينقلهم إلى الشاطىء الآخر للنهر، وبينما الزورق في وسط الأمواج قال الأصم: كأني أسمع دبيب نملة على الشاطىء، فردَّ الكسيح: صه وإلاَّ ركلتك في الماء، وأجاب المفلس: الذي تعرف ديته اقتله.

أيُّ قوة تتحدَّث عنها أيها المسكين؟ ولنفرض جدلاً أنَّ الإسلام يملك قوة تجعله المتفرِّد بالسلطان على الأرض!! هل يعني ذلك أنَّ الدعوة ليست وسيلته الفذة؟ وأن اعتماده الأعظم ليس على وسائل الإعلام؟ إنه ما يلجأ إلى القوة إلاَّ يوم تكون كسراً للعدوان، وحطماً للطغيان وكفكفةً لشرور المغرورين وناشدي العلو والفساد في الأرض.

لكن المغفّلين كثيرون، والطامَّةُ الكبيرة أن يملك هؤلاء السفهاء قدرةً على الكلام في الإسلام ومناوشةَ علمائه!!

ونعود إلى موضوعنا: إنَّ شرح الإسلام بصورة عامة، وشرح الجانب الاجتماعي والاقتصادي منه بصورة خاصة يحتاج إلى بصر بالحياة المعاصرة وقضاياها المعقّدة

ومبلـغ تغلغل الدولة في شؤون الأفراد والجماعات، بل وبصر بمـا تضمنه الإسـلام من نصوص وآثار، وما توحي به هذه النقول من دلالات قريبة وبعيدة.

ثم صوغ ذلك قيمـاً ومبادىء وقـوانينَ سهلةٍ سائغـة، على أن يسانـد هذا البـلاغ تطبيقٌ ناجـح ونموذجٌ عملي محترم!!

وبقي أن نعـرف عن الشيوعيين شيئـاً آخـر. . دعـاواهم العـريضـة عن منـطقهم العلمي وفلسفتهم الواقعية، ولا أعرف مفلساً أكثر حديثاً عن ثروته الطائلة من الشيـوعي الملحد الذي يكثر الحديث عن أسانيد كذبه ودلائل زيفه.

لا شيء هناك غير جرأة في اتهام الناس بالرجعية والجمود.

واتهام المؤمنين بأنهم مخرفون نقلة أوهام، ليس جديـداً في تاريـخ الـدنيا، إنـه ذات الاتهام الذي كان يقوله عرب الجزيرة لصاحب الرسالة من أربعة عشر قرناً:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾. [الأنعام: ٢٥].

والشيوعية نفسها في ميدان التطبيق الاقتصادي نـظام فاشـل، فإنتـاجها الـزراعي أقل من غيره، وإنتاجها الصناعي أردأ من غيره، والقول «بحتمية الحل الاشتراكي» لون من السفسطة والكذب العام.

وقـد قلنا إنهـا نظام سيـاسي نجـح في قتل المعـارضة لأنَّ أرزاق النـاس جميعـاً تجري من بين أصابـع الحاكمين.

وقد أصابنـا مسٌّ من الفكر الشيـوعي في حياتنـا الاجتماعيـة فإذا البـوم ينعق في ساحات كانت قبل عـامرة، لم تجن الجمـاهير غيـر الشؤم والفزع، والخـوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

إنَّ العقل العلمي قد ينقص كثيراً من المتدينين، أمـا أنه ينقص الـدين نفسه فـلا ثم لا. . كيف والتفكير فريضة إسلامية، والنظر الـواعي إلى الكون والنـاس ركن ركين في الإيمان.

إنَّ الجو الصحو الدافىء هو وحده الذي ينمو فيه الإسـلام ويزدهـر، فإذا تقـاصر الشعاع وانتشر الغيم شرع الإسلام يرحل!

وربما بقيت جماهير تتعلق بأذياله وهو مولٍّ ذاهب، لكن الظن لا يغني من الحق شيئاً، والأثر لا يغني عن العين نفسها.

وبعض الناس أقلقه من الشيوعية أنها تذهب بما يملك، وهو كثير كثير، وما ننظر إلى أولئك ونحن نحارب الشيوعية، وإنما ننظر في المقام الأول إلى هذا الإلحاد الحقود الأعمى المخاصم لله وأنبيائه جميعاً، المتبرِّم بالوحي الأعلى وتوجيهاته للناس.

ونحبُ بالمنطق العلمي أن يعرفَ القاصي والداني أنَّ الله حقٌ، وأنه مُشرف على العالم يدبِّر أمره ويهبُ له وجودَه، ويحسب على كل عاقل مسالكه، وما قدَّم وما أخَّر ﴿الله لا إلَـه إلَّا هو الحيُّ القيوم﴾.

* * *

حوار مع ملحد

دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل، مَلَكت فيه نفسي وأطلت صبري، حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدمغ بالحجة الساطعة ما يوردون من شبهات. .

قال: إذا كان الله قد خَلقَ العالم، فمن خلق الله؟

قلت له: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكّد أنه لا بد لكل شيء من خالق!!

قال: لا تلقني في متاهات، أجب عن سؤالي. قلت له: لا لفَّ ولا دوران، إنك ترى أنَّ العالم ليس له خالق، أي أنَّ وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأنَّ هذا العالم موجود من ذاته أزلاً، وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إنَّ الله الذي خلق العالم ليس لوجوده أول؟

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدِّق نفسك حين تقررها، وتكذب غيرك حين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلَهاً ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه. .!!

قال: إننا نعيش في هذا العالم ونحسُّ وجوده فلا نستطيع أن ننكره!

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟

إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا في طريق رهيب، فتساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيِّرها قائدٌ بصير!!

ومن ثم فإنني أعود إلىٰ سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردودٌ عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنه لا أول لها بالنسبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين.

قال: تعني أن الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قلت: إنني أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلي فليْس سواء بين المؤمنين والكافرين.

إنني ــ أنا وأنت ــ ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندساً أقامه، وترى أنت أن خشبه وحديده وحجره وطلاءه قد انتظمت في مواضعها وتهيّأت لساكنيها من تلقاء أنفسها.

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أنني وجدت قمراً صناعياً يدور في الفضاء، فقلت أنت: «انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه» وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبّر.

إنَّ الافتراض العقلي ليس سواء، إنه بالنسبة إليَّ الحق الذي لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذى لا شك فيه، وإن كان كفار عصرنا مَهَرة في شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة في الوقت الذي يصفون أنفسهم فيه بالذكاء والتقدم والعبقرية.

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنيّة، ونملك عقلاً نستطيع به البحث والحكم، وبهذا العقل ننظر ونستنتج نناقش ونعتقد.

وبهذا العقل نرفض التقليد الغبي كما نرفض الدعاوى الفارغة، وإذا كان الناس يهزؤون بالرجعيين عبيد الماضي ويتندّرون بتحجرهم الفكري، فلا عليهم أن يهزؤوا كذلك بمن يميتون العقل باسم العقل، ويدوسون منطق العلم باسم العلم، وهم للأسف جمهرة الملاحدة..!!

لكننا نحن المسلمين نبني إيماننا بالله على اليقظة العقلية والحركة الذهنية، ونستقرىء آياتِ الوجود الأعلى من جولان الفكر الإنساني في نواحي الكون كله.

في صفحة واحدة من سورة واحدة من سور القرآن الكريم، وجدت تنويهاً بوظيفة العقل اتخذ ثلاث صور متتابعة في سُلَّم الصعود هذه السورة هي سورة الزمر، وأول صورة تطالعك هي إعلاء شأن العلم والغض من أقدار الجاهلين:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾. [الزمر: ٩].

ثم تجيء الصورة الثانية لتبين أنَّ المسلم ليس عبد فكرة ثابتة أو عادة حاكمة، بل هو إنسان يزن ما يعرض عليه ويتخيّر الأوثق والأزكى:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾. [الزمر: ١٨].

ثم يطَّرد ذكر أولي الألباب للمرة الثالثة في ذات السياق على أنهم أهل النظر في ملكوت الله الذين يدرسون قصةَ الحياة في مجاليها المختلفة لينتقلوا من المخلوق إلى الخالق:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾. [الزمر: ٢١].

وظاهرٌ من الصور الثلاث في تلك الصفحة من الوحي الخاتم أنَّ الإيمان لَمبتوت الصلة بالتقليد الأعمى أو النظر القاصر أو الفكر البليد.

إنه يلحظ إبداع الخالق في الزروع والزهور والثمار، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة توزّعت على أوراق وأكمام حافلة بالرَّوح والريحان، ثم كيف يحصد ذلك كله ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف يعود الحطام والقمام مرةً أخرى زرعاً جديد الجمال والمذاق تهتز به الحقول والحدائق، مَنْ صَنَع ذلك كله؟

قال صاحبي وكأنه سكران يهذي: الأرض صنعت ذلك!!

قلت: الأرض أمرت السماءَ أن تهمي، والشمس أن تشع، وورق الشجر أن يختزن الكربون ويطرد الأوكسجين، والحبوب أن تمتلىء بالدهن والسكر والعطر والنشا؟؟

قال: أقصد الطبيعة كلها في الأرض والسماء!

قلت: إنَّ طبق الأرز في غدائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء. وما بينهما على صنع كل حبةٍ فيه، فما دور كل عنصر في هذا الخلق؟ ومن المسؤول عن جعل التفاح حلواً والفلفل حريفاً؟ أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال: لا أعرف ولا قيمة لهذه المعرفة!!

قلت: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبِّر ومشيئة تصنِّف؟

فأين ترى العقل الذي أنشأَ والإرادةَ التي نوَّعت في أكوام السباخ أو في حزم الأشعة؟؟

قال: إنَّ العالم وُجد وتطور على سُنَّةِ النشوء والارتقاء ولا نعرف الأصل ولاالتفاصيل!!

قلت له: أشرح لكم ما تقولون! تقولون: إنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء، تضطرب في أجواز الفضاء، ثم مع طول المدة وكثرة التلاقي سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية في شكلها البدائي، ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت ما نرى!! هذا هو الجهل الذي أسميتموه علماً ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به!!

أعمال حسابية معقَّدة تقولون: إنها حلت تلقائياً، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة في فرصة سنحت ولن تعود!! وذلك كله فراراً من الإيمان بالله الكبير!!

قال وهو ساخط: أفلو كان هناك إلّه كما تقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسي والآلام، ونرى ثراءً يمرح فيه الأغبياء، وضيقاً يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالاً يمرضون ويموتون، ومشوهين يحيون منغضين.

قلت: لقد صدق فيكم ظني، إنَّ إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة!!

ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون وفق ما يصيبهم من عسر ويسر:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴿١١﴾ ﴾. [الحج: ١١].

قال: لسنا أنانيين كما تصف، نغضب لأنفسنا أو نرضى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشر كافةً ثم نصدر حكمنا الذي ترفضه..

قلت: آفتكم أنكم لا تعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا، ووظيفة البشر فيها، إنها مَعْبَر مؤقَّت إلى مستقَرٍ دائم، ولكي يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه، لا بد أن يبتليَ بما يصقل معدنه ويهذب طباعَه، وهذا الابتلاء فنون شتى، وعندما ينجح المؤمنون في التغلّب على العقبات التي ملأت طريقهم وتبقي صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة ليقول لهم:

﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾. [الزخرف: ٦٨].

قال: وما ضرورة هذا الابتلاء؟

قلت: إنَّ المرء يسهر الليالي في تحصيل العلم، ويتصبَّب جبينه عرقاً ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبيرإلاَّ لمن تمرَّس بالتجارب وتعرَّض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القانون السائد في الحياة القصيرة التي نحياها على ظهر الأرض، فأيُّ غرابة أن يكون ذلك هو الجهاد الصحيح للخلود المرتَقب؟

قال ــ مستهزئاً ــ: أهذه فلسفتكم في تسويغ المآسي التي تخالط حياة الخلق وتصبير الجماهير عليها؟

قلت: سأعلمك بتفصيلٍ أوضح حقيقة ما تشكو من شرور، إنَّ هذه الآلام قسمان: قسم من قَدَر الله في هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلاَّ به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلاَّ في حَرِّه، فالأمر كما يقول الأستاذ العقاد: «تكافل بين أجزاء الوجود، فلا

معنى للشجاعة بغير الخطر، ولا معنى للكرم بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها.

وقد يطَّرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة، كما يطّرد في فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح . . »

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أنَّ الله جل شأنه يختبر كل امرىء بما يناسب جبلته، ويوائم نفسه وبيئته، وما أبعد الفروقَ بين إنسان وإنسان، وقد يَصْرَخُ إنسان بما لا يكترث به آخر ولله في خلقه شؤون، والمهم أنَّ أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلّهية التي لا ريب فيها.

إلَّا أنَّ هذه العدالة كما يقول الأستاذ العقاد: «لا تحيط بها النظرة الواحدة إلى حالة واحدة، ولا مناصَ من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العدل في تصريف الإرادة الإلّهية. إنَّ البقعةَ السوداء قد تكون في الصورة كلها لوناً من ألوانها التي لا غنى عنها، أو التي تضيف إلى جمال الصورة ولا يتحقَّق لها جمال بغيرها، ونحن في حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يعجبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته».

تلك هي النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التي يتعرض لها الخلق.

أما القسم الثاني من الشرور التي تشكو منها يا صاحبي فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال مستنكراً: أنا وأشباهي لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى! فكيف تتهمنا؟

قلت: بل أنتم مسؤولون، فإنَّ الله وضع للعالم نظاماً جيداً يكفل له سعادته، ويجعل قويه عوناً لضعيفه وغنيه براً بفقيره، وحذَّر من اتباع الأهواء واقتراف المظالم واعتداءِ الحدود.

ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على العدوان بدل أن يتعاونوا على التقوى فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المرَّ من آثامهم؟

إنَّ أغلب ما أحدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم، وفي هذا يقول الله جل شأنه:

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.
[الشورى: ٣٠].

إنَّ الصدّيق رضي الله عنه جَرَّد جيشاً لقتال مانعي الزكاة، وبهذا المسلك الراشد أقرَّ الحقوق وكبح الأثرة ونفَّذ الإسلام فإذا تولى غيره فلم يتأسَّ به في صنيعه، كان الواجب على النقاد أن يلوموا الأقدار التي ملأت الحياة بالبؤس؟!

قال: ماذا تعني؟

قلت: أعني أنَّ شرائع الله كافية لإراحة الجماهير، ولكنكم بدل أن تلوموا مَنْ عَطَّلها تَجَرَّأتم على الله واتهمتم دينه وفعله!!

ومن خِسَّة بعض الناس أن يلعن السماء إذا فسدت الأرض، وبدلاً من أن يقوم بواجبه في تغيير الفوضى وإقامة الحق يثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين..!!

إنكم معشر الماديين مرضى تحتاج ضمائركم وأفكاركم إلى علاج بعد علاج..

وعدت إلىٰ نفسي بعد هذا الحوار الجاد أسألها: إنَّ الأمراض توشك أن تتحوّل إلى وباء، فهل لدينا من يأسو الجراح ويشفي السقام أم أنَّ الأزمة في الدعاة المسلمين ستظل خانقة؟

* * *

الإيمان حق والإلحاد وهم

ذكر الصحافي الشهير «أنيس منصور» أنَّ العالمة الإنجليزية الدكتورة «مرجريت برنبريدج» مديرة مرصد «جرينتش» قد اكتشفت أبعد نجم في هذا الكون، وقد سمى

الفلكيون هذا النجم «كازار» وأطلقت عليه الدكتورة المكتشفة «كازار ١٧٢».

هذا الجسم يبعد عنا بمقدار ١٥٦٠٠ مليون سنة ضوئية، والسنة الضوئية كما ذكرنا من قبل تساوي (٣٦٥ يوماً × ٢٤ ساعة × ٦٠ دقيقة × ٦٠ ثانية × ١٨٦٠٠٠ ميل وهي سرعة الضوء في الثانية الواحدة).

ورد هذا النبأ في مجلة الطبيعة، ووصفت الدكتورة المكتشفة هذا النجم بأنه ساطع جداً.

ولهذه العالمة سَبق في ميدان الاكتشاف الفلكي إذ سَجَّلت وجود نجم سماوي آخر في أبريل الماضي سنة ١٩٧٣م.

ولما سئلت الدكتورة عن اتساع الكون الذي نعيش في جانب محدود منه. قالت: لا أحد يعرف. إنَّ هذه هي حدود معرفتي بالقدر الذي تسمح به عدسة قطرها «١٢٠» بوصة، ولو كانت هناك عدسات أكبر أو أجهزة أقدر وأدق لاتَّسع أمامنا الكون، أكثر وأكثر.

سُئِلت: هل الله موجود؟ وكان جوابها: من المؤكَّد أنه موجود!!

قيل لها: ولكن لماذا؟ فأشارت إلى السماء وقالت: لهذا.!!

ومن قبل ذلك بنصف قرن عندما أعلن «أينشتين» نظرية «النسبية» سأله بعض الناس: هل الله موجود؟

وكان الرد: رياضياً موجوداً.

وسئل: كونياً؟ قال: موجود!

قيل له: لماذا؟ وكان الجواب: لهذا.. «وأشار إلى السماء».

أقول: إنَّ القرآن الكريم أكثر الحديث عن السماء، وهو يبني الإيمان على التأمل في الكون والنظر في سعته ودقته وخصائص مادته واستقامة قوانينه:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾. [الذاريات: ٥١].

﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾. [الحجر: ١٦].

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾. [الأنبياء: ٣٢]

وهنـاك إيماءة علميـة معجبة مثيـرة في الحديث عن النجـوم وأبعـادهـا السحيقـة تحسها وأنت تقرأ قوله تعالى:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾. [الواقعة: ٧٦].

إنَّ جملة (لو تعلمون) تشير إلى أنَّ هناك حقائق كبيرة فوق مستوى العقل البشري تتصل بهذه المواقـع، ترى على أوضحهـا الكشوف الفلكيـة الأخيرة؟ ربمـا.. إذا كان الخطاب متجهاً إلى الناس في عهد ابتداء الوحي، إنهم لم يروا في المراصـد الحديثـة أسرار القبة الزرقاء وما فيها من عجـائب.. أما أهـل هذا العصـر فقد عـرفوا، وبهـرهم ما عرفوا واضطرت جمهرتهم أن تقول: ﴿سبحانكَ مـا خلقتَ هذا بـاطلاً﴾ ومـع ذلـك فنقول: إن ما عرفه العلماء الآن شيء تافه بالنسبة إلى ما زوي عنهم، فـإنَّ آلاتهم التي اعتمدوا عليها أرتهم القليل وعَجَزت عن الكثيـر، ويبقى الخطاب القـرآني موجهـاً إلى الأقدمين والمحدثين على سواء:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾.

إنَّ الكونَ كبير، وأكبر منه خالقه جلَّ جلاله.

وأعترف أني لم أعرف ضآلة الأرض التي نحيـا فوقهـا إلَّا بعد قـراءات يسيرة في علم الفلك، بعـدهـا فقط فهمت معنى الحـديث القـدسي: «يا عبـادي لـو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنسكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلـك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجـل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[1].

أومَضَ بصيرتي شعاعٌ عن عظمة الخالق الأعلى جعلني أردِّدُ مـع صاحب الوحي الخاتم وأصدقِ بشرٍ في الآخرين، هذا التسبيـح القانت ما جعلني أكذِّب أساطيرَ اليهود والنصارى التي تصفُ الله بأنه جلس يأكل مـع عبده إبراهيم، أو اشتبك في صـراع مـع عبده يعقوب!!

---

(١) رواه الترمذي في القيامة، وغيره.

قبحاً لهذا اللغو، أكذلك يوصف ربُّ المشارق والمغارب بديع السموات والأرض، جاعل السموات والأرض؟؟

وعدت إلى القرآن الكريم أنظر إليه بإعزاز، وأتدبّر آياته بأدب وأستمع إليه يصف الجاهلين بربهم فيقول:

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾. [الزمر: ٦٧].

لكن لماذا التأمل في السماء وحدها؟ هل يحتاج اليقين إلى هذا النظر العالي؟ إنَّ هناك أنفسنا والأرض التي نعيش عليها، يمكننا أن ننظر فيها ـ عن قرب ـ لنعتبر ونتعلم..

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات: ٢١].

كنت أفكر في مسألة علمية تحتاج إلى استغراق ومراجعة، وكانت طفلتي تلعب قريباً مني تنظر إليَّ ولا يعنيها من تفكيري شيء.. قلت: أنا وهي نماذج لأربعة آلاف مليون أو أكثر يسكنون هذه الكرة الطائرة في فضاء الله تدور بقدر حول أمّها الشمس..

لكل فرد من هذه الألوف المؤلفة فكره الخاص، وعالمه الذي يعيش داخله وطريقته في الفهم والحكم على الأمور.

ترى لو انقطع التيار الذي تنير به هذه الأدمغة، إلام تصير؟

على كل حال إنه لم ينقطع، وفي كل مخ تلافيفه التي يتحرَّك بها، ويقوم عليها عالمه الخاص. سبحان من أبدع هذا كله، سبحان من احتوت أصابعه قلوب الخلائق جميعاً يصرفها كيف يشاء.

وعدت إلى تعليق الأستاذ أنيس منصور على الكواكب المكتشفة ودلالة السماء على عظمة الله، إنه يقول: «على الرغم من ضخامة الكون وعظمته وأبعاده التي لا ندرك لها حدوداً فإنَّ هذا الكون أبسط من النفس الإنسانية وأسهل من الجسم الإنساني، وأصغر من الخلية الحية.

إنَّ عظمة العالم تبرز في تكوين الحياة نفسها، إنَّ الحياة في الكائن الحي أروع

وأعمق وأعقد وأصعب من نجم ملتهب يدور في الفضاء السحيق بعيداً عن عيوننا وعدساتنا.

إنَّ المسافة التي بيني وبين القمر أقرب جداً من المسافة التي بيني وبينك، فالذي بيني وبينك صعب وغير مفهوم.

ومن هنا كان أيّ كائنٍ حي مهما دقَّ وزنُه وحجمه أعظم من أيِّ نجم غابر في الأفق..

لست في حاجة إلى أدلة على وجود الله نستوردها من السماء ــ وحدها ــ وإنما في نفسك وجسمك وتحت قدميك توجد أعظم معجزات الخلق والإبداع».

وفي هذا الكلام صدقٌ كثير.. ليس من الضروري أن يكون المرء فلكياً ليعرف عظمة ربه.. إنَّ الرجل العادي يستطيع أن يعرفَ عن قدرة الله وحكمته وعلمه ورحمته ما ينمِّي الإيمانَ في قلبه ولبه لو أنه نظر فقط إلى ما يأكله.

ولكن ناساً كثيرين:

﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾. [محمد: ١٢].

* * *

بين العلم والإيمان

في أرجاء الأمة الإسلامية ناس أشباه متعلمين يعلنون إلحادهم دون حياء، ويزعمون أنهم ثوّار على الرجعية، عشّاق للمعرفة، ضائقون بالأفكار القديمة، معتنقون للأفكار الحديثة!!

وكثيراً ما لقيت في طريقي صوراً من هؤلاء الناس، فأتفرّس في مسالكهم وأتأمَّل في أقوالهم وأحوالهم، ثم أذكر كلمة العقاد رحمه الله: هناك مقلِّدون في كراهية التقليد!

أما حديث العلم وتقدمه، والكونُ وكشوفه فهو تَعِلّة خادعة ينكرها العلم والعلماء.

وأول ما نلحظه على أولئك الناس نقلهم لكلمات أوحت بها بيئات أخرى وترديدها في بلادنا دون أي حساب لاختلاف الزمان والمكان والباعث والنتيجة!!

لقد كان الفيلسوف الألماني «نيتشه» ملحداً، وكان كفره بالله شديداً. ومما يؤثر عنه قوله في الهجوم على الدين: «عندما نستمع في صباح الأحد إلى دقات الأجراس القديمة نتساءل: أهذا ممكن؟ إنَّ هذا كله من أجل يهودي صُلِبَ منذ ألفي عام كان يقول: إنه ابن الله!! وهو زعم يفتقر إلى برهان.

لا جدال أن العقيدة المسيحية ـ هكذا يقول نيتشه ـ هي بالنسبة إلى عصرنا أثر قديم نابع من الماضي السحيق، وربما كان إيماننا بها في الوقت الذي نحرص فيه على الإتيان ببراهين دقيقة لكل رأي نعتنقه شيئاً غير مفهوم فلنتصور إلّهاً أنجب أطفالاً من زوجة غانية، وخطايا ترجع إلى الله ثم يحاسب هو نفسه عليها خوفاً من عالم آخر يكون الموت هو المدخل إليه! لَكَم يبدو كل ذلك مخيفاً، وكأنه شبح قد بعث من الماضي السحيق! أيصدِّق أحد أنَّ هذا ما زال يصدق»؟

وهذا الطراز من الإلحاد هو الذي يحمل جرثومته بعض الناس، يحسبون أنهم يفتنوننا به نحن المسلمين عن ديننا ويصرفوننا عن رسالتنا.

وهو طراز يختلط فيه التقليد الأعمى بالنقص المركب، أو حب الظهور بالحقد على المجتمع.. أما الزعم بأنَّ العلم المادي ضد الدين، وأن بحوثه المؤكدة وكشوفه الرائعة تنتهي بإنكار الألوهية فهذا هو الكذب الصراح!!

بل إنَّ أساطين العلم والفلسفة تشابهت مقالاتهم في إثبات الوجود الأعلى، وتكاد في وصفها لله تنتهي إلى ما انتهى إليه القرآن الكريم من توحيد وتمجيد.

نحن لا ننكر أن خصاماً شديداً قد وقع بين العلم والدين في أوروبا حيث كان القول بكروية الأرض كفراً، والقول بدورانها حول الشمس إلحاداً!!

ولا ريب أنَّ هذه الجفوة المفتعلة بين حقيقة الدين وطبيعة العلم تركت آثاراً سيئة هنا وهناك، بيد أنّ الاعتماد على هذا في التجهم للإيمان الحق لا يسوغ، فإنَّ تجريد الدين من الشوائب التي لحقت به، والتزام العلم للنهج السوي في البحث عن الحقيقة قد انتهى بصلح شريف يذكرنا بقوله جلَّ شأنه:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾. [فصلت: ٥٣].

كـانت الماديـة هي بدعـة القرن المـاضي، وكـان الـزعم السـائـد أنـه لا وجـود إلاَّ للمـادة، وأنَّ ما وراء المـادة عـدم محض، وأنَّ المـادة لا تفنى ولا تستحـدث، وأنَّ الدين بعد هذا كله أمسى لا مكان له!!

ثمّ مضت الحقـائق العلمية تكشف عن وجههـا فإذا مقـررات الماضي تنسف من أصولها، يقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني: «كان العلم يتصور الأمور تصوراً ماديـاً بحتاً إلى أن جاء العالم الشهير «ألبرت أينشتين» فغيَّر ببحوثه الطبيعية النظرة إلى المادة تغييراً حاسماً، وقد صَوَّر الفيلسـوف الإنجليزي «راسـل» ذلك قـائلاً: «درسنا العالم الـطبيعي فوجدنا المادة عند العلم الحديث قد فقدت صـلابَتها وعفـويتَها، إذ حَلَّلهـا العلماء إلى مجموعات ذرية، كل مجموعة منها تنحل إلى ذرَّات، وكل ذرة تعود بدورها فتنحل إلى كهارب موجبة وأخرى سالبة، ثم مضى العلماء في التحليل، فإذا هذه الكهـارب نفسها تتحول إلى إشعاعات»!!

وختم «راسـل» كلامـه بهذه العبـارة: «ليس في علم الطبيعـة مـا يبـرهن على أن الخصائص الذاتية للعالم الطبيعي تختلف عن خصائص العالم العقلي».

ونحن نقـول: انتساب ذلـك الكـون الضخم إلى أصـول من الأشعـة شيء مثيـر حقاً!! ترى ما الذي كثف النور وجَمَّد حركته ووزَّعه على ألوف الأشكال التي نراها؟

إنك لن تعدم سفيهاً يقول لك: تَمَّ ذلك من تلقاء نفسه!!

وهذا القائـل مستعد أن يقـول لك أيضـاً: إنَّ الصحف في عواصم العـالم تصدر عن دورها مليئة بـالأخبار والتعليقـات والصور متسقـة الحروف والأرقـام تلقائيـاً من غير ما إشراف ولا إعداد ولا تبويب ولا ترتيب!

لعمري إنَّ ذلك أدنى إلى التصور من خَلقِ الموتِ والحياةِ في هذا العالم الفخم تلقائياً كما يأفك الأفّاكون!!

لكن أي عاقل يحترمُ نفسه ويقدِّر علمه يأبـى هذا المنزلق.

يقول الدكتور التفتازاني: ولعل هذا ما جعل العلامة «أينشتين» يؤثر الإيمان بـالله ويـرفض الشبهات التي تختلق ضـده، وقد دار حـوار بينه وبين صحفي أمـريكي يدعى «فيـرك» في هـذا المـوضـوع قـال فيـه الـرجـل العـالم بحسم: إنني لست ملحـداً!!

ولا أدري: هل يصح القول بأني من أنصار وحدة الوجود[1]؟ إنَّ المسألة أوسع نطاقاً من أن تحيط بها عقولنا المحدودة!!

وعاد الصحفي إلى سؤاله!!

وعاد الصحفي إلى سؤاله بطريقة أخرى يريد بها هزَّ الإيمان الذي لاذ به هذا العالم، فقال: إنَّ الرجل الذي يكتشف أن الزمان والمكان منحنيان، ويحبس الطاقة في معادلة واحدة جدير به ألا يهوله الوقوف في وجه غير المحدود!!

فيرد أينشتين: اسمح لي أن أضرب لك مثلاً: إنَّ العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الإحاطة بالكون فكيف بخالقه؟! نحن أشبه ما نكون بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها إلى السقف فغطَّت جدرانها، ثم هي مؤلفة بشتى اللغات. إنَّ هذا الطفل يعلم أنَّ شخصاً ما كتب هذه الكتب، ولكنه لا يعرف بالضبط من هو، ولا كيف كانت كتابته لها، ثم هو لا يفهم اللغات التي كُتبت بها!!

وقد يلاحظ الطفل أنَّ هناك طريقة معينة رُتِّبت بها الكتب ونظاماً غامضاً يشمل صفوفها وأوضاعها، نظاماً نحسُّ أثره ولا ندري كنهه.

إنَّ ذلك القصور هو موقف العقل الإنساني مهما بلغ من العظمة والتثقيف!!

وعاد الصحفيُّ الأمريكي يسأل: أليس في وسع أحد حتى أصحاب العقول العظيمة أن يحل هذا اللغز؟

فأجاب أينشتين مرةً أخرى يعلل لماذا هو مؤمن، ولماذا يعجز عن معرفة كنه الله؟ فقال: «نرى كوناً بديع الترتيب خاضعاً لنواميس معينة، ونحن نفهم هذه النواميس فهماً يشوبه الإبهام فنؤمن بالله، ولكن عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية التي تهيمن على مجاميع النجوم».

---

(١) ليس هذا العالم ممن يعتنقون مذهب الوحدة الذي يعرفه الهنود، أو النحو الذي تسرب من الهندوكية إلى بعض الديانات الأخرى، ولكنه يريد أن يقول: إنه يرى الله في كل شيء ويلمح صفاته العظمى في مجال الكون كله ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾، وعذر الرجل أنه لا يعرف الإسلام فيعبِّر التعبير المأثور.

لو كانت المواد التي يتكوَّن منها هذا العالم الضخم تتراكم بعضها فوق بعض دون تبصّر أو حكمة لدلَّت كثرتها وحدها على غنىً واسع وثراء عريض!! فإنَّ الأبعاد الآلية لهذا الكون مذهلة!!

لكن الأمر أبعد ما يكون عن الجزاف والفوضى.

والبناء العقلي المتغلغل في الكون من الذرة إلى المجرة يجعلنا نكوّن عن هذا العالم الدقيق صورة أخرى.

ولن نأتي بهذه الصورة من عند أنفسنا، بل من أقوال الفلكي الإنجليزي «سير جيمس جينز» الذي ينطق بهذه العبارة المثيرة: «لقد بدأ الكون يلوح أكثر شبهاً بفكر عظيم منه بآلة عظيمة».

إنَّ الروعة لا تكمن في ضخامة الآلة التي نراها، بل في الطريقة التي تدور بها وتؤدي وظيفتها، في حبكة الموازنة والضبط والتقدير.

ومن ثم يتجه الإعجاب إلى العقل الواضع الحاسب قبل أن يتجه إلى أثره المحدود.

ولننظر إلى عقلنا الإنساني بين ما ننظر إليه من صنوف المخلوقات ماذا نرى؟ إنه كائن ذكي قدير يبدو ويخفى في أدمغة الألوف المؤلفة من سكان الأرض والأحياء والراحلين، الذين وجدوا والذين سيوجدون، من أين تولّد هذا العقل؟ من الماء والطين كأعشاب الحدائق؟. هذا فرض مضحك، ولا ريب أنه نفحة من الخالق الأعلى وحده.

يقول سير جيمس جينز: «يجب أن نذكر المقدِّمات التي يفترضها بعض النقَّاد من غير علم، فالكون لا يبيح لنا أن نصوره تصويراً مادياً، وسبب ذلك في رأيي أنه قد أصبح من المدركات الفكرية العميقة أننا واجدون في الكون دلائل قوة مدبرة أو مسيطرة يوجد بينها وبين عقولنا الفردية شيء مشترك، خير ما نصفها به أنها رياضية(!) لأننا لا نجد الآن أصلح من هذا التعبير».

والعلّامة الإنجليزي معذور في وصف الإبداع الإلّهي بهذا الأسلوب، لقد راعه وهو فلكي راسخ أن يجد في نظام الشروق والغروب والدوران والانطلاق دقة تسجد علوم الرياضة في محرابها، فقال: «إنَّ التفكير المشرف عليها ليس هو العاطفة

أو الأخلاق أو تقدير الجمال، ولكنه الرغبة في التفكير بطريقة تفكير علمي رياضي!!
بل إنه اعتبر العقل الإنساني أثراً للعقل الكلي الذي توجد فيه على شكل فكر تلك الذرات التي نشأت منها عقولنا، ثم انتهى أخيراً إلى أنَّ الآراء متفقة إلى حد كبير في ميدان العلم الطبيعي إلى أنَّ نهر المعرفة يتجه نحو حقيقة غير آلية، أي غير مادية، أي إلى الله الكبير المتعال».

على هذا النحو يفكر علماء الكون الكبار، ويحكم أئمة العلم الحديث وروّاده الكبار، ولذلك شعرت بسخرية أي سخرية عندما قرأت لصحافي «كبير» في بلادنا هذه الكلمة الغبية السمجة: «إنَّ التقدم العلمي يوشك أن يجعل أخطر الوثائق العقائدية نوعاً من البرديات القديمة التي حال لونها، وبليت صفحاتها، وَعَدَت عليها عوامل الزمن بالتعرية والتآكل، وأصبح من الضروري للإبقاء على أثرها أن يخصَّص لها مكان في متاحف التاريخ».

قلت: ما أوسع الفرق بين منطق العلماء ومنطق الجهلاء في تناول القضايا وإرسال الأحكام. هل يمحى الإيمان كله بهذه السهولة.

ولقد شعرت كذلك بسخرية أي سخرية عندما رأيت كتاباً بعنوان: «العالم ليس عقلاً» ألَّفه شخص وُلد في نجد، وقضى أغلب عمره على قهوات القاهرة وبيروت، وتلقى أكثر علمه من الأرراق الشاحبة التي يسطرها بعض المعلولين والمعقّدين[1]!

هذا المسخ الذي لم يعمل يوماً في مرض ولا مختبر للكيمياء أو الفيزياء ينكر الألوهية ويسفه النتائج التي وصل إليها أمثال «أينشتين» من قادة المعارف الكونية، طبعاً لأنهم رجعيون وهو تقدمي، ولأنهم قاصرون وهو نابغة..!!

ولست أتهم كل ملحد أنه صورة للملحدين الصغار فإنَّ هناك بعض العلماء والفلاسفة ــ وإن كانوا قلة ــ تنكّروا للإيمان وقواعده وغاياته، بيد أنَّ المتتبع لأقوال هؤلاء يجزم بأنَّ انتسابها إلى العلم تزوير جريء فهم يخمنون ويفترضون، ثم يبنون قصوراً على رمال!

وقد قرأت لبعضهم كلاماً عن بداية الخليقة يثير الضحك، فهم يزعمون أن

---

(١) هو عبد الله القصيمي النجدي.

العناصر في الأزل السحيق تفاعلت اعتباطاً، وسنحت فرصة لن تتكرر بعد أبداً(!) فتكونت جرثومة الحياة، ثم أخذت تنمو وتتنوع على النحو الذي نرى.

وهذا كلام لا يصدر عن عقل محترم ولا يصفه بأنه علم إلاَّ مخبول!! وصدق الله العظيم:

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾. [الكهف: ٥١].

وأذكر أني ـ وأنا أناقش بعض الأدلة ـ سألت نفس هذا السؤال: هل أنا كائن قديم أم مخلوق جديد؟

فكان الجواب القاطع: لقد ولدت سنة كذا، فأنا حادث بلا ريب!! ولكن شبهة ثارت تقول: إنك تخلقت من مادة الذين هلكوا قبلك، وعندما تموت فستكون أجساد منك ومن غيرك! فقلت: إذا سلمت بهذا في الأجساد فلن أسلم به في روحي أنا.. إنَّ هذه «الأنا» المعنوية هي حقيقتي الكبرى، وأنا مستيقن بأني كائن جديد مستقل وجدت بعد عدم محض، فمن أبرزني من لا شيء؟

إنني لست معتوهاً حتى أشك في بداية وجودي وشعوري، فمن رب هذه المنحة الخطيرة؟ فتلوت قوله تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا [(١)]، ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾. [الإنسان: ١ ـ ٢].

وعدتُ إلى قصة الجسد الذي أحمله في حياتي وأنضوه بعد مماتي، هل هو قديم المادة حقاً؟ فسألت العلم: كيف يوجد؟ وهل يمكن أن يتمثَّل بشراً سوياً هكذا خبط عشواء؟ فقال العلم: إن الوليد يتخلق أول أمره من التقاء الحيوان المنوي بالبويضة!

فما الحيوان المنوي؟ كائنٌ دقيق توجد في الدفقة الواحدة منه قرابة مائة مليون

---

(١) الاستفهام تقريري، أي لقد أتى على الإنسان وقت كان فيه عدماً محضاً. والآيات في صدر سورة الإنسان.

حيوان، كل واحد من هذه الألوف المؤلفة يمثل الخصائص المعنوية والمـادية لـلإنسان من الطول والقصر والسواد أو البياض، والذكاء أو الغباء، والشدة أو الهدوء. . . إلخ.

ويبدأ التكوّن الإنساني بوصول واحد ـ لا غير ـ من هذه الألوف الكثيفة إلى البويضة وتفنىٰ البقية. قلت: فلأقف عند نقطة الابتداء هذه لأسأل: من الذي صنع هذه الحيوانات السابحة في سائلها، الحاملة لخصائص السلالة الآدمية من أجيال خلت؟

قالوا: غدّة في الجسم! قلت: غدة أُوتيت الذكاء والوعي والاقتدار على خلق مائة مليون كائن من طراز واحد! مجموعة دراهم من اللحم تتصرف من تلقاء نفسها في صنع الذكاء أو الغباء، واللحم أو العصب؟

ما يصدق هذا إلاّ مغيب العقل!! وتلوت قوله تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾. [الواقعة: ٥٨].

إننا أمام أدوات القدرة الإلٰهية العليا، وهي تبرز مشيئة الخالق الجليل، وكأنها تقول لنا: إنَّ خلق الله لِلعَالم ليس فيه شائبة غرابة! أليس يخلق في كل لحظة تمرُّ ألوفاً من الناس وألوفاً من الدواب، وصنوفاً من النبات؟؟

إنَّ إبداع الخليقة ليس فلتة وقعت وانتهت، وأمست في ذمّة التاريخ بحيث يستطيع المكابرون أن يجادلوا فيها. . لا. . إن الإيجاد من الصغر يقع أمام أعيننا كل يوم في عالم الأحياء فلم هذا المراء؟!

إنَّ بديعَ السموات والأرض لا يزال يخلق في كل وقت وفي كل شبر صنوفاً من الأحياء الدقيقة والجليلة لا حصر لها، فكيف ينكر ما كان من خلق أول أو ما سوف يكون من بعث وجزاء؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾. [العنكبوت: ٢٠].

ولنفرض جدلاً أنَّ بعض الناس يرى أنَّ الفلك الدوَّار يجري في الفضاء دون

ضابط ولا رابط، وأنَّ الوليد الخارج من ظلمات الرحم لامع العين مورَّد الخد، مفتر الثغر، قد صنعه على هذا التقويم الحسن شيء ما في بطن الأم!!

لنفرض أنَّ بعض الناس ركب رأسه، وقال هذا الكلام، فما الذي يجعل هذا الزعم السخيف يوصف بأنه علم وتقدمية على حين يوصف منطق الإيمان بأنه جمود ورجعية؟

سبحانك هذا بهتانٌ عظيم!

لقد آن الأوان لتهتك الأستار عن أدعياء التقدم الذين يمثلون في الواقع ارتكاساً إنسانياً إلى جاهلية عديمة الشرف والخير مبتوتة الصلة بالعقل وذكائه والعلم وكشوفه.

* * *

العرب بدون الإسلام صفر

ربما شك بعض الناس في حقيقة الدين الذي يعتنقه أو في جدواه عليه، فإذا ساور هذا الخاطر أحداً من خلق الله، فإنَّ العربي آخر امرىء يعرض له هذا الظن، بل يقرب من المستحيل أن يساوره.

ذلك أنَّ فضل الإسلام على العرب كفضل الضياء والماء على الزرع.

لا أقول: أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، بل أقول: أوجدهم من عدم وجعل لاسمهم حقيقة وأقام بهم دولةً وأنشأ حضارة.

قد تكون بعض العقائد عقاقير مخدِّرة للنشاط البشري، لكن الإسلام لمَّا جاء العرب شحذهم وأثار عقولهم ووحَّد صفهم وطار بهم إلى آفاق مادية وأدبية لم يحلم بها آباؤهم ولا تخيلها أصدقاؤهم أو أعداؤهم، ومضى العرب في طريق المجد الذي شقَّه الإسلام لهم فعرفهم للعالم وكان قبل يجهلهم، وأفاءوا على ماضيه القريب ما لا ينكره إلَّا متعصِّب كفور!

وارتبطت مكانة العرب الذاتية والعالمية بهذا الدين، فهم يتقهقرون إذا تخلوا عنه ويستباح حماهم. وهم يرتقون ويتقدمون إذا تشبثوا به وتحترم حقوقهم.

على عكس ما عرف في أمم أخرى لم تستطع التحليق إلَّا بعدما تخففت من مواريثها الدينية كلًا أو جزءاً!!

وقد استطاع مسلمو الجزائر في هذا العصر أن يستخلصوا حريتهم من براثن عاتية، وأن يدفعوا ثمن هذا الخلاص مليوناً ونصف من الشهداء!

وما ينبغي تقريره هنا أنَّ الإسلام وحده كان وقود هذا الكفاح القاسي.. الإسلام بما غرسه في الأفئدة من إباء.

فلما ظفر الجزائريون باستقلالهم بدؤوا يستعيدون عروبتهم التي فقدوها خلال قرن وربع، ووضعت مشروعات لجعل الأفراد والجماعات ينطقون بالعربية ويتفاهمون بها، بعدها كادت هذه اللغة تبيد أمام زحف الفرنسية وسيادتها في الشوارع والدواوين!!

إنَّ الإسلام بالنسبة للعروبة وليُّ نعمتها وصانعُ حياتها.

وقد اعترف مسيو «جارودي»(١) وهو شيوعي فرنسي عاش ردحاً من الزمان في جبهة التحرير الجزائرية بأنَّ الدين وحده هو الذي أوقد شرر هذا الكفاح العزيز الغالي، وأنَّ الإسلام يستحيل أن يوصف بأنه مخدِّر الشعوب.

والإسلام لا يجعل من العرب شعباً مختاراً يفضل غيره بسلالة أو دم خاص، كلا كلا إنَّ اللَّهَ اختار لعباده تعاليم راشدة وشرائع عادلة، ثم وكَّل إلى العرب أن يحملوا هذه التعاليم والشرائع ليعملوا بها وليعلِّموها من شاء..

والله يأبىٰ كل نعرة عنصريةٍ أو استعلاء قومي.. إنها مبادىء محددة، تنطلق منها أمة ما فتكون بعين الله، أو تندُّ عنها فيدعها لنفسها، بالوفاء لهذه المبادىء تصعد فإن فرطت هبطت.

ولذلك يقول الله للمنهزمين في أُحد:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

[آل عمران: ١٣٩].

فالعلوُ قرينُ الإيمان، وينصح الأمة كلها بالطاعة والإصلاح ويتهدّد عدوها بالطرد والهوان، ثمَّ يأمرها بالمقاومة ورفض الاستسلام، وسيكون المستقبل لها إن هي

---

(١) هو رجاء جارودي، وقد أسلم.

أبقت حبلها موصولاً بربّها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ۝٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥ ﴾. [محمد: ٣٥].

والتدبُّر في هذه الآيات الثلاث يعطي فكرة بيِّنة أن تفضيل أمة ما هو تفضيل سلوك ومنهج، لا تفضيل دم أو لون، وأنَّ الإيمان الشريف والاستقامة الواضحة أساس العزة المنشودة، وأنه مهما لاقىٰ المسلمون من صعاب وهزائم فلا يجوز أن يقبلوا سلماً مخزياً، ولا أن يعطوا الدنيَّة من أنفسهم.

ولهم أن يركنوا إلى الله ولن يذل جانبهم ما آمنوا به وعملوا له.

* * *

الإسلام موقظ لا يخدِّر الشعوب

واليقظة العزيزة التي صنعها الإسلام وهو يبني الأمَّة يمكن أن نتابعها في مرحلتين:

الأولى: في العهد المكي، يوم كان المسلمون قلة تتوقع الضيم ويتجرأ عليها الأقوياء!

لقد أمر المسلمون إبَّان هذه المحن أن يثبتوا ويشمخوا بحقهم، ويتنكروا لكل هوان ينزل بهم، ويطلبوا ثأرهم ممَّن اعتدى عليهم، فإن عفوا فعن قدرة ملحوظة لا عن ادعاءٍ مرفوض!!

انظر كيف وصفت سورة الشورى المكية طلَّاب الآخرة الذين يؤثرون ما عند الله على هذه الدنيا، أنهم:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ ﴾. [الشورى: ٤٠].

فطلَّاب الآخرة ـ كما وصفتهم السورة المكية ـ ليسوا الذين يعيشون في الدنيا أذناباً مستباحين أو ضعافاً مغموصين، أو كما يقول الشاعر يصف قوماً تافهين:

«ويُقضى الأمر حين تغيب تَيْم ولا يُستأمرون وهم شهودُ»

لا، لا إنَّ هؤلاء المؤمنين بالدارِ الآخرة يفرضون أنفسهم على هذه الحياة الدنيا ويكرهون العدو والصديق على أن يحسب حسابهم ويزن رضاهم وسخطهم، ويعلم أنَّ نتائجَ العدوانِ عليهم أذىً محذور وشرٌّ مستطير، لأنهم إذا بغيَ عليهم ينتصرون، ويلطمونَ السيئة بمثلها! وليس ذلك بالنسبة للحق الأدبي للجماعة كلها، بل هو كذلك بالنسبة إلى حقِ الفرد في ماله الخاص، فقد سئل النبي ﷺ:

«أرأيت إن جاء رجلٌ يريد أخذ مالي».

قال: قاتله. قال: أرأيت إن قتلته

قال: هو في النار. قال: أرأيت إن قتلني؟

قال: فأنت شهيد[1].

هل هذه الوصايا هي التي تخدِّر الأفراد والجماعات؟

سبحانك هذا بهتان عظيم!

فإذا تجاوزنا العهد المكي إلى العهد المدني نجد توجيهاً ينبع من هذه الروح الأبية الشامخة.

إنَّ الهوان جريمة وقضاء الحياة في ضعف واستكانة مرشَّح أول للسقوط في الدار الآخرة.

ومن هنا أثبت القرآن الكريم هذا الحوار بين ملائكة الموت وبين الذين عاشوا في الدنيا سقط متاع وأحلاس ذل.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

[النساء: ٩٧].

---

(١) مسلم في كتاب الإيمان.

والهجرةُ المفروضةُ هنا هي التحوّل من مكان يهـدِّد فيه الإيمـان وتضيـع معالمـه إلى مكان يأمن فيه المرء على دينه، ولكن حيث استقرت دار الإسـلام فلا تحـول وإنما يبقى المسلمون حيث كانوا ليدفعـوا عن ترابهم ذرّةً ذرة ولا يسلمـوا في أرض التوحيـد لعدو الله وعدوهم.

والآية تحرِّم قبول الدنية وإلف الاستضعاف، وتوجب المقاومةَ إلى آخر رمق.

وممـا يؤكّد هـذا المعنى أنَّ القرآن أحصى الـطوائف التي تعذر في هـذا التمـرد المطلوب على قوى الشر.

ومـع استثنـائها فـإن مصيرهـا ذكـر معلقـاً على «رجـاء» المغفـرة والعفـو لا على «توكيد» ذلك!!

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾. [النساء: ٩٨].

والتعبير بـ «عسىٰ» هنا مثيرٌ للقلق، وهي إثارة مقصودة حتى لا يقعد عن مكـافحة المعتدين من يقدر على إلحاق أيِّ أذىً بهم مهما قل.

ولا يـقيـم عـلى ضَـيْـم يـرادُ بـه إلا الأذلاّنِ عِـيـرُ الـحـيِّ والـوتـد
هــذا على الخسف مـربـوطٌ بـرمتـه وذا يـشـق فـلا يـرثـي لــه أحـد

المسلم لا يقبـل الحياة على أيـة صـورة وبـأي ثمن، إمـا أن تكـون كمـا يبغـي وإما رفضها وله عند ربه خير منها.

ومن صيحـات الكرامـة والإباء قـول رسـول الله ﷺ. «ومن قُتـل دون مـالـه فهـو شهيد، ومن قُتل دون دمـه فهو شهيـد، ومن قُتل دون دينـه فهو شهيـد، ومن قتـل دون أهله فهو شهيد»[1].

وفي حديث آخر «من قُتِل دون مظلمته فهو شهيد»[2].

هل رأيت استنهاضاً للهمم واستنفاراً للنضال، واستثارةً للذود عن الدماء والأموال والأعراض أحرَّ من هذه المبادىء؟!

---

(١) الترمذي في «الديات»؛ وأبو داوود في «السنّة».
(٢) صحيـح، رواه الشيخان وأصحاب السُّنن الأربعة وأحمد.

أيمكن في منطق العقل والإنصاف أن يوصف هـذا الدين بـأنه مخـدِّر للشعوب؟ ألا شاهت الوجوه!!

ومن حقنـا أن نتسـاءل: هل ضمـان الخبز يحفظ الكـرامةَ الفـردية ويـوفِّر الأمـان للجماعات؟

لا شـك أنَّ للعنصر المـادي أثراً في طمـأنينة المـرء وشد أزره، ولكنـه ليس كل شيء في خلق العزة الشخصية والجمـاعية! فـربَّ سجين مليء البطن خفيض الـرأس، وربَّ طاوٍ حديد البصر جهير الصوت.

قال لي صديق: وضعت الحب للعصافير في شـرفة بيتي، وجلست بعيـداً أرقبها وهي تلتقطه بمناقيرها كعادتها.. بيد أني ارتقبتها طويلاً فلم تهبط، ثمَّ أدركت بغتـة أن باب الشرفة مفتوح وأنَّ الحذر عاقها عن الأكل فقمت أغلق الباب وأنا أقول: إنَّ الطعام لا يغني عن الأمان.

وهذا صحيـح فإن الله لما امتنّ على قريش بنعمته وبركته قال:

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾.

إنَّ الشبـع لا يغني عن الحرية أبداً، وإن توفير «الديمقراطية الاقتصادية» يستحيل أن يغني عن «الديمقراطية السياسية».

إنَّ الإنسـانيـة ليست جسـداً يعلف ويسمن، ولكنهـا فـطرة تتشـوف لـلانـطلاق والتحرر، ولا بد أن يتقرر لها حقها في النقد والمراجعة وحسـاب كل ذي منصب مهمـا جلَّ وإقصاء من تكره وإدناء من تحب..

واليقظة التي ينشدها الإسلام للشعوب تتضمن الأمرين جميعاً.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. [القصص: ٥].

فكيف يتَّهم الدين بأنه مخدِّر للشعوب؟

* * *

المادية حركة رجعية

وربما اتصل بهذه التهمة المتهافتة تصور البعض أنَّ الدين رباط مع الماضي، وأنَّ التطور ينافيه.

ونتساءل نحن: ما هذا التطور؟

إنَّ الإلحاد ليس تطوراً، بل هو ترديد لكفر الصغار من جهلة القرون الأولى.

من ألوف السنين وقفت قبيلة عاد من رسولها موقفاً كأنما لخصت فيه كل ما يقال في هذا العصر على ألسنة الشطَّار، من دعاة الإلحاد:

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ ﴾. [المؤمنون: ٣٥، ٣٧].

إنَّ التحلل من قيود الدين ليس تجديداً ولا ابتكاراً، بل هو خضوع للغرائز الدنيا التي أنامت ألوف الخلعاء والخبثاء من عشرات القرون وجعلتهم يحيون وفق شهواتهم وحدها! فأيُّ ارتقاءٍ في هذا المسلك الرخيص؟!

في غضون القرن التاسع عشر للميلاد كانت نزعات الإلحاد تغلب على العقل الغربي، وبدا كأنَّ العلم الطبيعي يتَّجه بالناس وجهة مادية تتنكر للدين وتضيق بتعاليمه، ولما كان الغربيون سادة الدنيا وقتئذٍ، فقد صبغوا الفكر العالمي تقريباً بهذه الصبغة الداكنة.

وقد تسأل: ماذا كان موقف المتدينين بإزاء هذا الفكر الزاحف؟

والإجابة: إنَّ المسلمين كانوا في حالة ذهول أنستهم رسالتهم المحلية والعالمية على سواء، فهم لا يريدون من دينهم شيئاً طائلاً ينفعون به أنفسهم، بله أن ينفعوا به غيرهم.

وأما اليهود فقد شَرَعوا عقب تقرر الحقوق السياسية في الأقطار الحديثة يجمعون شملهم ليعيدوا ملك «يهوه» على الأرض ويستعدوا لحكم العالم من «أورشليم»، وما كان عليهم أن تكتسح ظلمات الشك كل ضمير!!

وأما النَّصارى فلو تفرّغوا لمواجهة هذا الخطر لكانوا كالذي يرد الطوفان بالراحتين، فكيف وهم مشغولون بالقضاء على الإسلام المريض!

لذلك نجح الإلحاد في فرض أفكاره وأحكامه على أغلب ميادين النشاط الإنساني، وربما سمح للأديان أن تبقى ميولاً فردية واتجاهات أدبية وحسبها ذلك.

على أنَّ القرن العشرين للميلاد أخذ يتجه ـ خصوصاً في أواسطه ونهاياته ـ وجهة مغايرة، وظهر في كتابات كثير من العلماء الطبيعيين نزوع واضح إلى الإيمان بالغيب والتسليم بوجود إلّه حكيم قادر، عالم خبير! وتديّن العلم كسب إنساني جليل!

والصورة التي تكوَّنت لدى العلماء الطبيعيين عن الله أقرب إلى الحقيقة مما يهرف به كثير من رجال الأديان..!!

ولو كان للإسلام رجال يحسنون عرضه كما نزل في أصوله الأولى، لكان الإسلام دين الحاضر والمستقبل على سواء، ولكن الفكر الإسلامي وقع في محنة رهيبة!!

ولست أزعم أنَّ كل العلماء الكونيين نزَّاعون إلى التديُّن. فهناك من ضل الطريق!! ولكن تيَّار الإيمان لو مضى في طريقه بين هؤلاء دون عوائق سياسية ودون إرهاب خارجي لتغيَّر الوضع فإن جمهرتهم سوف تدخل في دائرة الدين بلا ريب!!

والمشكلة التي نواجهها نحن في بلادنا الإسلامية هي تأخر مثقفينا في مضمار التقليد!!

فعدد كبير منهم لا يزال يعيش في العقلية المادية للقرن التاسع عشر.

وعدد آخر قد يعدو هذا النطاق ليرنو ببصره إلى المسجونين كرهاً داخل بعض المذاهب المادية الحاكمة، وهم قوم كفروا عن إرهاب لا عن اختيار ففيم يقلدون؟

والغريب أن نفراً من علماء الإسلام يزعمون أن الدين ـ كسائر القضايا الأدبية ـ لا صلة له بالعقل! أي أنَّ التفكير الإلحادي للقرن التاسع عشر ما زال هو الذي يسيطر عليهم، فأيُّ بلاء هذا؟

ونحن نناشد أحرار العقول أن يراجعوا أنواع المعرفة التي تعرض عليهم فإن للاستعمار الثقافي دخلاً في تلويثها وغشها.

إنَّ أعظم شيء في رسالة الإسلام احترامها للعقل البشري، وحفاوتها بالعلم الطبيعي وبناؤها اليقين على النظر الصائب في ملكوت الأرض والسماء.

ولا يوجد كتاب سماوي حثَّ العقل على النظر، وقادَ العلم في مضمار البحث كهذا القرآن الكريم.

إننا بمنطق القرآن نرفض الظنون ونخضع لليقين، نرفض الأوهام ونستكين للحقيقة وحدها.

إنَّ التديُّن الذي تعلمناه من كتابنا ليس تحميل العقل ما لا يطيق ولا الهيمان في عالم الأخيلة، إنه تدين زكي عملي.

ثم هو يضم إلى هذا الفكر الناضج قلباً سليماً، لا مكان فيه لنية خبيثة أو غرض صغير، على أساس أن الإنسان لا يسيره العلم النظري قدر ما تسيره مقاصده وآماله.

ما أكثر ما يكون الذكاء سلاحاً يستعمل في الخير والشر على سواء فإذا صدق الإيمان صلح القلب واستقام المنهج:

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي معرفة الكون وخالقه، والنفس وهداها يقول ابن عطاء الله السكندري هذه الكلمة الحاسمة:

«لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير، والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوِّن»:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾

وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١]. فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل في هذا الأمر إن كنت ذا فهم».

---

(١) رواه البخاري في سبعة مواضع من صحيحه، وأخرجه باقي الستة وغيرهم.

يقول الله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ ﴾ . [الذاريات : ٤٧ ـ ٥٠] .

هذه آيات خمس ، والثلاثة الأولى منها وصفت الأكوان علوها وسفلها وما أنبتت فيها من حياة وأحياء .

والاثنتان الأخريان انتقلتا من الأكوان إلى المكوِّن فتحدثتا عن وجوده ثم توحيده .

والحق أنَّ الانحصار في الكون ، والاحتباس بين مظاهره فواحش عقلية ونفسية لا يرضاها أريب لنفسه ، بل ينفر منها أولو الألباب .

إنَّ من له أدنى مُسْكة من عقل يعرف ـ من العالمين ـ رب العالمين ، ويعرف من الأكوان صاحب هذه الأكوان ! !

إنَّ هذا الملكوت الضخم الفخم من ودائع ذراته إلى روائع مجراته شاهد غير كذوب على أنَّ له خالقاً أكبر وأجل .

إنها لجهالة أن يغمط هذا الإلّه العظيم حقه ، وإنها لنذالة أن يوجد بشر ينكره ويسفه عليه .

ولكن خُلِق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيمٌ مبين ! ! .

والعاقل ينظر في الكون فيتعلم منه تسبيح الله وتحميده ، ويستنتج من قوانين الحياة وأحوال الأحياء ما يستحقه المولى الأعلى من أسماء حسنى وصفات عظمى . .

والناس صنفان : صنف يعرف المادة وحدها ويجهل ما وراءها ولا نتحدث الآن مع هؤلاء ، فقد ذكرنا نبأهم فيما مضى .

وصنف مؤمن بالله مصدِّق بلقائه ، ولكنه هائم في بيداء الحياة ، ذاهل وراء مطالب العيش ، مستغرق المشاعر بين شتَّىٰ المظاهر ، فهو لا يكاد يتّصل بسر الوجود أو يتمحض لرب العالمين .

ومع هذا الصنف المؤمن نقف لنرسل الحديث .

هنـاك قوم لا تخلص لله معـاملاتهم، بـل هي مشـوبـة بحـظوظ النفس ورغبـات العاجلة، وهؤلاء لن يتجاوزوا أماكنهم ما بقيت نياتهم مدخولة حتى إذا شـرعت أفئدتهم تصفو بدؤوا المسير إلى الأمام.

وهنـاك قوم يعـاملون الله وهم مشغولـون بأجـره عن وجهه، أو بمـطالبهم منه عن الـذي ينبغي له منهم، وهؤلاء ينتقلون عن أنفسهم من طـريق ليعـودوا إليهـا من طـريق أخرى.

إنهم مقيَّدون بسلاسل متينة مـع أنـانيتهم فهم يسيرون ولكن حـولها، لـو حسنت معرفتهم بالله ما حجبتهم عنه رغبات ماديـة ولا معنويـة، بل لـطغى عليهم الشعور بـه، وبما يجب له، وتخطوا كل شيء دونه، فلم يهدؤوا إلاَّ في ساحته، ولـم يطمئنوا إلاَّ لما يرضيه، هو جلَّ شأنه على حد قول أبـي فراس:

فـليتــك تــحـلو والـحـيـاة مـريـرة	ولـيـتَـك تـرضـىٰ والأنـام غـضـاب
ولـيتَ الــذي بـيني وبـينَـك عــامـر	وبـيـنـي وبـيـن الـعـالـمـيـن خَـراب
إذا صحَّ مـنـك الـود فـالكـلُّ هـيـن	وكـلُّ الــذي فـوقَ الـتـراب تـراب

وابن عـطاء الله يرى أنَّ العـامـة يتـرددون بين مـآربهم كحـركـة بنـدول السـاعـة لا تتجاوز موضعهـا على طول السعي أو هم على حـد تعبيره كحمـار الرحىٰ ينتقـل من كون إلى كون، والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه.

والـواجبُ على المؤمن أن يقصدَ وجـه الله قصداً، وأن يتفصى تفصيـاً من ألـوف الأربطة التي تشده إلى الدنيا وتخلد به إلى الأرض.

ومن خدع الحياة أن المرء قد يعمل لنفسه وهو يحسب أنه يعمل لله، ولو وضعت بواعثه الكـامنة تحت مجهـر مكبر لاستبـان أن كثيراً من دواعي غضبـه ورضاه وسـروره وتعبه وراحته يصلها بوجه الله خيط واهٍ، على حين تصلها بحظوظ النفس حبال شداد.

وهنا الخطر المخوف أنَّ الهجرة إذا كانت لله فقد مضت وقبلت، وإلاَّ فالأمر كمـا قال الرسول ﷺ: «ومن هاجـر إلى دنيا يصيبهـا أو امرأة ينكحهـا فهجرتـه إلى ما هـاجر إليه».

والشعور بوجود الله ليس أمراً يتكلف له الإنسان شيئاً، إنه شعور بالواقـع!

قد يكون لك حبيب مسافر مثلاً فأنت إذا اشتقت إليه تتخيل صورته، وتحاول الأنس بالوهم عن الحقيقة.

ولكن الشعور بالله ليس تقريباً لبعيد ولا تجسيداً لوهم، إنه إيمان بالواقع الذي يعد تجاهله باطلاً كشعورك مثلاً ـ وأنت في البيت ـ بأنك في البيت، أو شعورك ـ وأنت في القطار ـ بأنك في القطار.

إنه الواقع الذي لا معدى عن الاعتراف به، وبناء كل تصرف على أساسه. إنَّ الألوهية لا تفارق العباد لحظة من ليل أو نهار، ومن ثم فإن الغفلة عن الله غفلة عن الحق المبين.

● وإذا كان الأعمى يعجز عن رؤية الأشياء، فإنَّ الأشياء لم تزل من مكانها لأن عيناً كليلة لم تَتبيَّنها.

● وإذا كان الناس في ذهول عن الحق المصاحِب لهم المحيطِ بهم فذلك عمى تعود عليهم وحدهم معرته.

وقد كثَّر القرآن الكريم من إشعار الناس بهذه المعاني، وصاح بهم وهم يفرّون عنها، إلى أين؟ فأين تذهبون؟ أين المذهب:

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ ﴾. [البروج: ٢٠].

قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾. [الحديد: ٣ ـ ٤].

هو بصير بما نعمل وهو معنا حيثما كنا! ألا تعين هذه الحقائق على صدق المعرفة ووحدة الشعور بوجوده وإشرافه؟

ثم ألا يدل ذلك على أن ذكرك لله ليس استحضاراً لغائب؟ إنما هو حضورك أنت من غيبة وإفاقتك أنت من غفلة!!

ولا بد هنا من توكيد التفرقة بين وجود الله ووجود العالم، فإن بعض الناس

يستغلون المعاني التي شرحناها للبس الحق بالباطل.

إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات، وهذا العالم منفصل عن ذاته جلَّ شأنه انفصالاً تاماً.

وقد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول:

إنه يرى الله في كل شيء.

وهذا التعبير صحيح إن كان يعني أنه يرى آثارَه وشواهدَه.

أما إنْ كان يعني وحدة الخالق والمخلوق، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبة، فالتعبير باطل من ألِفِه إلى يائِه، والقول بهذا كفر بالله وبالمرسلين.

ووصف الإحاطة الإلّهية في هذا المجال وسيلة لا غاية... وسيلة لتصحيح النية والجهد والهدف، وإهابة بالإنسان أن يدير نشاطه البدني والعقلي على مرضاة الله وحده.

وليت الناس يسعون في هذا الطريق بنصف قواهم!

ولو أن امرءاً حاول استرضاء الله بنصف الجهد الذي يبذله لكسب المال، أو التمكين في الأرض لقطع مرحلة رحبة في طريق الارتقاء الروحي والخلقي، ولو أنَّ امرءاً كره الشيطان ووساوسه بنصف الشعور الذي يكره به الآلام والخصوم لنال من طهر الملائكة حظاً.

إنَّ الله قد يقبل نصف الجهد في سبيله، ولكنه لا يقبل نصف النية، إمَّا أن يخلص القلب له، وإمَّا أن يرفضه كله.

وقد أسلفنا القول أنَّ الإنسان قد تحتل قلبه مقاصد شتّى هي التي تبعثه على الحركة والسكون، وعلى الرضا والسخط، وأن هذه المقاصد تنبعث عن أنانيته لا عن إيمانه بربه وابتغائه ما عنده.

والعلماء المربون يطاردون هذه المقاصد المتسللة إلى القلب، ويمنعونها أن تثوي فيه. ولا يتوانون في مطاردتها حتى تخفى ويطهر القلب منها.

ذلك أنَّ الإسلام دقيق جداً في تقويم النِّية الباعثة عليه والغاية المصاحبة له،

فمن لم يكن الله وجهته في هجرته فلا عمل له ولا خير فيه.

في الحياة الآن ألوف من المدرسين والأطباء والمهندسين والضباط والعمال والتجار والموظفين. . . إلخ يزحمون ظهر الأرض بحركة واسعة المدى، فأما ما كان للتكاثر والتظاهر فسوف يلصق بالتراب، وأمّا ما كان لله فهو مبارك الثمر ممتد الأثر.

إنَّ البقاء لما قصد به رب السماء:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾. [الشورى: ٢٠].

ونعود إلى الصنف المسجون بين عناصر المادة لا يعرف غيرها، إنه ينتقل من عنصر إلى عنصر وينسب مادة إلى مادة، ويجحد ما بعد ذلك.

وقد ناقشنا هؤلاء، ودحضنا ما ساقوا من شُبَه، ونريد هنا كشف الستر عن بعض دعاوى القوم.

إنَّ وصف الإيمان بأنه حركة رجعية، والإلحاد بأنه حركة تقدمية، وصف كاذب، فالكفر قديم قدم الغرائز الخسيسة والأفكار السفيهة. وتاريخ الحياة يتجاوز فيه الخير والشر، والصلاح والفساد، فمن قال: «إن الإيمان طبيعة أيام مضت وانتهى دورها، وأمن الكفر يجب أن يفسح له الطريق» فهو دجال.

وكذلك وصف الإيمان بأنه حركة فكر محدود، والإلحاد بأنه حركة عقل ذكي، أو وصف الإيمان بأنه منطق الدراسة النظرية، والإلحاد بأنه منطق الدراسة العلمية والبحوث الكونية، هذا كلام خرافي لا حرمة له، فإن جمهرة كبرى من قادة العلم الكوني والدراسات الحيوية يؤمنون بالله ويرفضون الزعم بأنَّ الكون خلق من غير شيء.

والواقع أنَّ الإلحاد يعتمد على الظنون والشائعات، لا على اليقين والبراهين، وأنه لم يثبت في معمل أو مختبر بأنَّ الله غير موجود.

وكل ما هناك أن الماديين نسبوا لغير الله من النظام والإبداع ما لا تصح نسبته إلَّا لله .

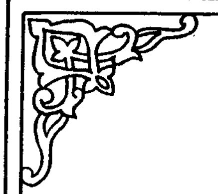
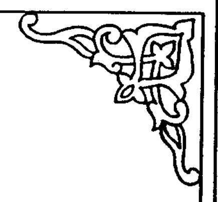
ووراء هـذا النَّسَب المنتحل سـاروا وأيـديهم خـالية من أي يقين، بـل هم كمـا وصف القرآن الكريم في سورة يونس:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أمـا الدلائـل التي تغرس الإيمـان في القلوب عن طريق التفكيـر السليم في هذا الكون الكبير فهي قائمة ناهضة.

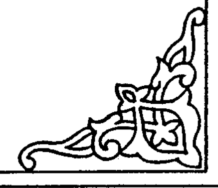
* * *



الفصل الثامن

- لا دين حيث لا حرية.
- يا للرجال بلا دين.
- مشهورون ومجهولون.
- التنادي بالجهاد.
- دين زاحف رغم كل العوائق.
- قال الإنسان وقال الحيوان.
- حول خرافة تحديد النسل.
- محنة الضمير الديني هناك.
- هذه المقررات لا نريد أن تنسى.
- أسئلة وأجوبة.



الفصل الثامن

لا دين حيث لا حرّية[1]

أثلجت صدري الكلمات التي قالها رئيس الدولة عشيّة نَجَتْ مصر من المؤامرة الأخيرة.

لقد أكّد أن الحريات ستوطّد، وأنّ الحقوق ستصان، وأنّ القانون سيسود، ولن تغلَّ يدٌ عن عمل شريف، ولن يكمَّم فمٌ عن كلمة حق، ولن يؤذَنَ لصغيرٍ أن يتطاول، ولا لمنحرف أن يجور!!

لقد استقبلنا هذه المعاني والأنفاس تكاد تختنق لما عراها من ضيق، فكانت نسائم منعشة تتسلَّل خلال جو رهيب مقنط، وكانت بوارق رجاء توحي بالخير.

وأحسَّ القابعون وراء جدران السجن الكبير أنَّ العصابة التي تسومهم سوء العذاب بدأت تذوب وتتلاشى.

إنَّ إذلال الشعوب جريمة هائلة، وهو في تلك المرحلة النكدة من تاريخ المسلمين عمل يفيد العدو ويضر الصديق.

بل هو عمل يتم لحساب إسرائيل نفسها، فإن الأجيال التي تنشأ في ظل الاستبداد الأعمى تشبُّ عديمةَ الكرامة، قليلةَ الغناء، ضعيفة الأخذ والرد.

ومع اختفاء الإيمان المكين والخلق الوثيق والشرف الرفيع.

ومع شيوع النفاق والتملق والدناءة.

ومع هوان أصحاب الكفايات وتبجح الفارغين المتصدرين.

---

(١) نُشر هذا المقال بعد حركة (١٥ مايو)، التي قام بها في مصر الرئيس السادات، وكانت هذه الحركة في أوائل السبعينات الميلادية من هذا القرن العشرين، وقد أُقصي فيها عن المسؤولية عدد من الوزراء والمسؤولين في مراكز القوى.

. . . مع هذا كله لا تتكون جبهة صلبة، وصفوف أبيه باسلة!

وذلك أمل إسرائيل حين تقاتل العرب لأنها ستمتد في فراغٍ، وتشتبك مع قلوب منخورة وأفئدة هواء!

والواقع أنَّ قيام إسرائيل ونماءَها لا يعود إلى بطولة مزعومة لليهود قدر ما يعود إلى عمى بعض الحكام العرب المرضى بجنون السلطة وإهانة الشعوب.

ولو أنْصَف اليهود لأقاموا لهؤلاء الحكام تماثيل ترمز إلى ما قدَّموا لإسرائيل من عون ضخم ونصر رخيص!!

من أجل ذلك أحسست راحةً عميقةً لكلمات الرئيس السادات، وهو يهدر بضرورة احترام الشعب، وكسر كل قيد يوضع على مشيئته.

إنَّ هذه السياسة البصيرة هي الخطوة الأولى لقتال حقيقي مع المعتدين يقمع غرورهم ويقلِّم أظفارهم!

إنَّ جماهير العرب عطشى إلى الحرية والكرامة، ولقد بُذلت جهودٌ هائلة لمنعها من الحق والجد وتعويدها عبادة اللذة إلى جانب عبادة الفرد، ولكن جوهر الأمة تأبّى على هذه الجهود السفيهة، وإن كانت طوائف كثيرة قد جرفتها هذه المحن النفسية فهي تحيا في فراغ ومجون مدمرين، لا تبقى معهما رسالة ولا ينخذل عدو.

ومن ثم كان العبء على المصلحين ثقيلاً، ولكن ما بدَّ منه لحماية حاضرنا ومستقبلنا.

ولقد تبعت الصراعَ بين الحكام المستبدين والرجال الأحرار منذ نصف قرن، ودخلت في تلك المعمعة لأذوق بعض مرِّها وضرها.

وكنت أردِّد بإعجاب صيحات الرجال الكبار وهم يهدمون الوثنية السياسية ويلطمون قادتها ولو كانوا في أعلى المواضع.

من ذلك صيحة الأستاذ الكبير «عباس محمود العقاد» عندما قال معرِّضاً بالملك فؤاد: إنَّ الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدي عليه!!

وقدقُدِّم الكاتب الإسلامي الكبير إلى المحاكمة ليعاقب بتسعة شهور في سجن

مصر العمومي، ثم خرج الرجل من السجن فكان أول ما صنع أن زار قبر سعد زغلول ليؤكد بقاءه على العهد وتأييده لقضايا الحرية وخصامه لأعداء الشعب!

ومن قصيدته التي ألقاها على قبره نذكر هذه الأبيات الشامخة:

خرجت له أسعى وفي كل خطوة ... دعاءٌ يُؤدّى أو ولاءٌ يؤكَّد

لأول من فكَّ الخطى من قيودها ... أوائل خطوي يوم لا يتقيد

وأعظم بها حرية زِيدَ قدرها ... لدن فقدت أو قيل في السجن تفقد

عرفت لها الحبين في النفس والحمى ... وكان لها حب وإن جلّ مفرد

وكنت جنينَ السجن تسعةَ أشهر ... فها أنذا في ساحة الخلد أولد

ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى ... وفي كل يوم ذو الجهالة يُلحد

وما أفقدت لي ظلمة السجن عزمة ... فما كل ليل حين يغشاك مرقد

وما غيّبتني ظلمة السجن عن سنى ... من الرأي يتلو فرقداً منه فرقد

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما ... سيعهدني كل كما كان يعهد

والعقاد بهذا الموقف الشريف ينتظم مع سلسلة الأبطال الذين يذودون عن الإنسانية بطش الجبابرة وجنون العظمة عند نفر من الملتاثين المتحكمين.

ولا أزال أكرر ما ذكرت في بعض كتبي من أن الحريات المقررة هي الجو الوحيد لميلاد الدين ونمائه وازدهاره!

وإن أنبياء الله لم يضاروا بها أو يهانوا إلاَّ في غيبة هذه الحريات وإذا كان الكفر قديماً لم ينشأ ويستقر إلاَّ في مهاد الذل والاستبداد فهو إلى يوم الناس هذا لا يبقى إلاَّ حيث تموت الكلمة الحرة، وتلطم الوجوه الشريفة، وتتحكَّم عصابات من الأغبياء أو من أصحاب المآرب والأهواء. .

. . . نعم ما يستقر الإلحاد إلاَّ حيث تتحول البلاد إلى سجون كبيرة، والحكام إلى سجانين دهاة.

من أجل ذلك ما هادنّا ــ ولن نهادن إلى آخر الدهر ــ أوضاعاً تصطبغ بهذا العوج ويستشري فيها ذلك الفساد.

ومرة أخرى أردد قول العقاد:

هـو الـحـق مـا دام قـلبي مـعـي ومـا دام فـي الـيـد هـذا الـقـلم!

إن البيئـات التي تستمتـع بمقـاديـر كبيـرة من الحـريـة هي التي تنضـج فيهـا الملكات، وتنمو المواهب العظيمـة، وهي السناد الإنسـاني الممتد لكـل رسالـة جليلة وحضارة نافعة.

ولأمر ما اختار الله محمداً من العرب!

إن ذلك يرجـع إلى طبيعته الذاتية، وطبيعة الجنس الذي ينميه على السواء!!

فإنَّ العرب أيام البعثة كانوا أسعد الأمم بحظوظ الحرية المتـاحة لهم، بينمـا كان الروم والفرس جماهير من العبيد الذين تعودوا الانحناء للحكام والسجود للملوك وضياع الشخصية في ظل سلطات عمياء وأوامر ليس عليها اعتراض.

أما العرب فكانوا على عكس ذلـك، حتى لكأن كـل فرد منهم ملك وإن لم يكن على رأسه تاج!

ونشأ عن ذلك الاعتداد الخطير بالنفس أنَّ كفار القبيلة كانـوا يموتـون دفاعـاً عن مؤمنيها، وكانت حرية الكلمة متداولة في المجتمـع تداول الخبز والماء.

ووسط هذا الجو شَقَّت رسالة الإسلام طريقها صُعُداً لم تثنها المعوقات الطبيعيـة التي لا بد منها.

ومن الفـطر القـويـة لأولئـك العـرب الأحـرار كـانت الانـطلاقـة التي عصفت بالحكومات المستبدة وبدلت الأرض غير الأرض والناس غير الناس.

ذلك أنه يستحيـل أن يتكون في ظـل الاستبداد جيـل محترم، أو معـدن صلب، أو خلق مكافـح.

وتأمل كلمة عنترة لأبيـه شداد لمـا طلب منه الـدفاع عن القبيلة، قـال: إن العبد لا يحسن الكرَّ والفر، ولكنه يحسن الحلب والصَّرَّ! فأجاب الوالد: كر وأنت حر!

وقاتل «عنترة» وتحت لواء الحرية أدى واجبـه، ولو بقي عبـداً ما اهتم بهـلاك أمة من الناس فقد بينهم كرامته ومكانته.

ومن مقـابـح الاستبداد أسلوبـه الشائن في إهـانـة الكفـايـات وتـرجيـح الصغـار وتكبيرهم تبعاً لمبدئه العتيد:

أهل الثقة أولى من أهل الكفاية.

ومن هم أهل الثقة؟ أصحاب القدرة على الملق والكذب... اللاهثون تحت أقدام السادة تلبية لإشارة أو التقاطاً لغنيمة.

هذا الصنف الخسيس من الناس هو الذي يؤثر بالمناصب ويظفر بالترقيات، وتضفىٰ عليه النعوت، ويمكَّن له في الأرض..

أما أهل الرأي والخبرة والعزم والشرف فإن فضائلهم تحسب عليهم لا لهم، وتنسج لهم الأكفان بدل أن ترفع لهم الرايات..

والويل لأمة يقودها التافهون، ويخزى فيها القادرون.

وقد كنت أقرأ في الصحف ــ دون دهشة ــ كيف أن المسؤول عن «الثقافة والفكر في الاتحاد الاشتراكي» رجلٌ أميٌّ يصيح كلما سأله المحقق: اعذرني فإني جاهل..

إن هذه طبيعة الأوضاع التي تعيش على الظلام وتكره النور.

ما أكثر العلماء في بلادنا لو أريد توسيد الأمر أهله، ولكن العلماء ليسوا موضع ثقة لصغار المتصدرين لأن العالِمَ يستنكر المتناقضات ويكره الدنية، ويقول بغضب:

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

أما وقد أزال الله الغمة، وعلت كلمة الأمة فلنعد بالأمور إلى أوضاعها السليمة، ولنوفر الحريات التي طال إليها الشوق واشتد الحنين.

لقد كان الاستبداد قديماً أقل ضرراً من الاستبداد الذي نظمته الدولة الحديثة في هذه الأعصار، فإنّ الدولة في العصر الحديث تدخلت في أدق شؤون الفرد وبسطت نفوذها على كل شيء.

ومن هنا كان الدمار الأدبي والمعنوي الذي يصطحب الاستبداد بعيد الآماد خبيث العواقب.

ومن أحسن ما قيل في تشييع ظالم مستبد:

لتبك على «الفضل بن مروان» نفسُه فليس له باكٍ من الناس يُعرف

لقد صحب الدنيا منوعاً لخيرها وفارقها وهو الظلوم المعنّف
إلى النار فليذهب ومن كان مثله على أي شيء فاتنا منه نأسف؟

«اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان».

* * *

يا للرجال بلا دين

إنني أسأل نفسي بإلحاح في هذه الأيام العجاف: هل يشعر العرب بأن محمداً مرسل للعالمين، وأن هذه «العالمية» في دعوته تفرض عليهم بعد إذ عرفوه أن يعرّفوا الناس به، وهم عندما يعرّفون الناس به لن يصفوا لهم ملامحه الشخصية، وإنما يشرحون لهم رسالته الإلّهية!

لكن عرب اليوم لا يقدرون محمداً قدره، ولا يخلفونه بأمانة في مبادئه وتعاليمه، ولا يحسون قبح الشبهات التي أثارها خصومه ضده بل هم ــ علماً وعملاً ــ مصدر متاعب للإسلام ولنبيه الكريم، وشاهد زور يجعل الحكم عليه لا له!

قد تقول: حسبُك حسبُك إنَّ الناس بخير، ومحبتهم لرسولهم فوق التهم فلا تطلق هذه الصيحات الساخطة فما تحب الجماهير أحداً كما يحب أتباع محمدٍ محمداً.

وأقول لك: سوف أغمض العين عن ألوف من المتعلمين ضلَّل الاستعمار الثقافي سعيهم، وشوَّه بصائرهم وأذواقهم، مع أن وزنهم ثقيل في قيادة الأمة العربية، فما قيمة الحب الرخيص الذي تكنّه جماهير الدهماء؟

إنه حب غايته صلوات تفلت من الشفتين مصحوبة بعواطف حارة أو باردة، وقلما تتحول إلى عمل كبير وجهاد خطير، والترجمة عن حب محمد بهذا الأسلوب في وقت ينهب فيه تراثه أمر مرفوض إن لم يكن ضرباً من النفاق!

أذكر أني ذهبت يوماً لأحد التجار كي أصلح شيئاً لي، فاحتفى بي وقدَّم بعض الأشربة، وأفهمني أنه أتمَّ ما أريد بعد أن وفيته ما أراد. ثم شعرت أنَّ عمله كان ناقصاً ولا أقول مغشوشاً!

فقلت: ليته ما حَيَّا ولا رحَّب وأدى ما عليه بصدق! ماذا أستفيد من تحيات لا جدَّ معها ولا إخلاص.

والشأن كذلك مع أقوام قد تموج أحفال المولد النبوي بهم، أو قد يصرخون بالصلاة على رسول الله ﷺ في أعقاب الأذان، أو قد يؤلفون صلوات من عند أنفسهم يحار المرء في تراكيبها لإغراقها في الخيال.

وقد يكون حبهم تمسكاً شديداً ببعض النوافل، وهروباً تاماً من بعض الفرائض، أو حناناً لا ندى معه ولا عطاء كهذا الذي قال له الشاعر:

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما قدمت لي زاداً

أيُّ حب هذا.. إنَّ العرب لا يعرفون أي شرفٍ كُتب لجنسهم ولغتهم وأمسهم وغدهم عندما ابتعث الله محمداً منهم، وإنَّ التقدير الحق لهذا الشرف لا يكون بالسلوك المستغرب الذي يواقعونه الآن ومنذ بدأوا يعبثون برسالة الله بينهم.

لما أراد ربُّ العزة أن يعلن بركته النامية ورحمته الهامية اختار في كتابه العزيز عبارتين مبيِّنتين:

الأولى: تتحدث عن البركة في مظهر القدرة التي تجمع أزمة الكون في يده فيستحيل أن يغلب يوماً على أمره أو يشركه أحدٌ في ملكه، وفي هذا المعنى يقول جل شأنه:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ﴾. [تبارك: ١].

والثانية: تتحدث عن البركة في صورة الرجل الذي حمل هداه الأخير إلى عباده وتفجرت ينابيع الحكمة من بيانه وسيرته، فكان القرآن الذي يتلوه مشرقَ شعاع لا ينطفي، يهتدي على سناه أهل القارات الخمس ما بقي الليل والنهار. وفي هذا المعنى يقول جل شأنه:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾. [الفرقان: ١].

إنَّ الإنسان المبعوث رحمة للعالمين أشعل الأمة التي ظهر في ربوعها فانطلقت لأول مرة من بدء الخليقة تحمل للناس الخيرَ والعدلَ، واستطاعت أن تؤدِّب جبابرة الأرض الذين عاثوا في أرجائها فساداً وظنوا أنَّ كبرياءهم لن يخدشها أحد!

حتى جاء الرجال الذين ربَّاهم محمد فقوَّموا صَعَر المعتدين، وأعزّوا جانب

المستضعفين، وكم تحتاج الدنيا في يوم الناس هذا إلى هذا الطراز من الرجال ليحموا الحق الذليل، وينقذوا التوحيد المهان، ويقروا الأخوة الإنسانية المنكورة، وينزلوا البِيضَ إلى منزلة السود، أو يرفعوا السود إلى منزلة البِيض.

لكن السقطة الرهيبة للعرب المعاصرين أنهم ذاهلون عن المكانة التي منحهم محمدٌ إياها، هابطون عن المستوى الذي شدَّهم إليه، وفيهم من يفتح فمه ليقول: إن العرب يمكن أن يكونوا شيئاً من غير محمد!!

قَبَّح الله وجهك من قائل أفاك..

ومن أيام جاءنى نفر من العامة متنازعون على إدارة مسجد: بعضهم يريد أن يقول في الأذان: «أشهد أن «سيدنا» محمداً رسول الله».

والآخر يريد الاكتفاء بالوارد فلا يذكر لفظ: «سيدنا» لأنه مبتدع.

ونظرت إلى أعراض المرض الذي يفتك بالأمة المعتلة، وقلت لهم: إنَّ محترفي الإفك من المبشرين والمستشرقين ملأوا أقطار العالم بالافتراء على محمد وشخصه ودينه، ورسموا له صورة مشوّهة في أذهان الكثيرين، وأنتم هنا لا تزالون في هذا الغباء.

ما أشقى ديناً أنتم أتباعه، إن المسلمين بين ما ورثوا من جهل وما نضح عليهم من ضلال العصر لا يزالون يهرفون بما لا يعرفون.

.. إنَّ حبَّ محمدٍ يوم يكون لقباً يضفيه عليه الكسالى الواهنون فهو حب لا وزن له، ولا أثر! ويوم يكون أحفالاً رسمية وشعبية بيوم ميلاده فهو حب لا وزن له ولا أثر! ويوم يكون قراءة للكتاب المنزل عليه في مواكب الموت ومجالس العزاء فهو حبٌّ لا وزن له ولا أثر، ويوم يكون ادعاءً تستتر به الشهوات الكامنة الطباع الغلاظ فهو حب لا وزن له ولا أثر. لأن محمداً هو الرسول الذي رسم للبشر طريق التسامي الحقيقي، ورسم للجماعات طريق التلاقي على الحقائق والفضائِل، فدينه عقل يأبى الخرافة وقلب يعلو على الأهواء.

● ماذا كسب المسلمون عندما حولوا الدين من موضوع إلى شكل؟

- وماذا كسب العرب عندما شقوا طريقهم إلى المستقبل وهم يطوون اسم محمد وتراثه عن نشاطه السياسي والعسكري؟

ولو نظرتَ إلى هذه الألوف المؤلفة من الكنائس والمعابد ولوجدت داخلها أجهزةً منظمة دوّارة تعمل من غير ملل لصرف الناس عن الإسلام ونسبة أقبح النعوت إلى نبيه المبرأ الشريف..

وكأنَّ الله تبارك اسمه شاء أن يُعَرِّف هذه الأمم مدى ما كانت فيه من غباوة، وأن يذيقها شيئاً من مرارة الجريمة التي ارتكبتها، فهو في ساحة العرض الشامل لأصناف الخلائق يحشر سكان القارات الخمس على مر القرون يحشرهم في صعيد واحد، ثم يكشف الغطاء عن عيونهم وآذانهم يتبيّنون فداحة جهلهم بالله الكبير المتعال، ويتبيّنون شناعة خصامهم لإمام رسله..

وهنا[1] يموج بعضهم في بعض، ويضطربون في حيرة مفزعة لا يُرجى منها خلاص، وتتحرك جموعهم إلى كل نبي سمعوا باسمه في العالم الذي انتهى يناشدونه أن يسأل الله لهم الرحمة، ولكن النبيين كلهم يرفضون التصدي لهذا المطلب ويعود أهل القارات الخمس متراكضين إلى الرجل الذي طالما قيل لهم: إنه كذاب، إنهم يحسّون الآن عن يقين أنهم أخطؤوا في حقه، وأنهم يوم صدوا عنه كانوا يخسرون أنفسهم وأهليهم[2]..!

الشفاعة العظمى في رأيي موقف يحاكم فيه التاريخ البشري كله ليعترف أن انصرافه عن الإسلام كان مشاقة لله وعداءً لأحب أوليائه وأصدق دعاته..

وما أعجب أن تجد الإنسانية نفسها في حرج يوشك أن يقضي عليها ثم تعلم فجأة أنَّ التنفيس عن كرباتها ربما تمَّ باللجوء إلى الرجل الذي عاشت دهوراً، وهي تروي عنه الأكاذيب وتنسب إليه الأساطير.

والتجاء أهل الأرض إلى محمد في هذه الساعة العصيبة، ولجوؤه إلى الله يطلب

(١) كتبنا هذا الكلام في كتابنا «من هنا نعلم»، من ثلث قرن.
(٢) أشير إلى حديث الشفاعة الطويل الذي رواه الإمام أحمد، والبزار، وأبو يعلى، وابن حبان في صحيحه، راجع الترغيب ٤/٤٣٥.

مغفرته لعبيده الأغرار، ذلك في ظني هو المقام المحمود، المقام الذي نسأله لمحمد عقب كل أذان يتردّد صداه في مهاب الريح ليستجيب له قوم وينصرف عنه آخرون: «اللهم ربَّ هذه الدعوةِ التامَّة والصلاةِ القائمة آتِ «محمداً» الوسيلةَ والفضيلةَ وابعثه المقامَ المحمود الذي وعدته».

قلت: إن محمداً في عالم العقائد والحقائق شمس وضّاحة نفّاحة، لكن العميان كثيرون، وقد مكث هذا الرسول النبيل يصدع بأمر الله وينقذ الناس من أهوائهم ومظالمهم، ثم ذهب إلى الرفيق الأعلى تاركاً فينا تراثه الجليل من كتاب وسنّة، فليتعلم الدعاة من حياة سيد الدعاة أن أجر الحق المبذول لا يعجل في الدنيا، وأن للمقام المحمود موعداً في غير هذه الدار يتعلّق به وحده الدعاة الأبرار.

* * *

مشهورون ومجهولون

أعجبني في اليمين التي حلف عليها أنس بن النضر أنَّ الرجل كان يشهد الله وحده، وينشد أولاً وآخراً رضاه.

لقد أحزنه أنَّ الله لم يره في ميدان القتال ببدر، فأقسم أن يريَ الله نفسه في أول لقاء بالكافرين، وأن يضرب أعلى مثل في التفاني والاستبسال.

وذلك في ذات الإلّه وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

لم يدر في خلد أنس تطلّع إلى جاهٍ أو تشوّف إلى شهرة.

كان الرجل أزكى نية وأشرف نفساً من أن يلم بهذه الدنايا.

والعمل لا يوصف بالصلاح ولا يرشح للقبول إلّا إذا خلص لله وحده، وقصد به وجهه.

روى أحمد بن حنبل عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء!

يقول الله عزَّ وجلَّ ـ للمرائين ـ إذا جزى الله الناس بأعمالهم. «اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا: هل تجدون عندهم جزاء؟».

والواقع أنه لا جزاء عندهم لا في الآخرة ولا في الدنيا، فما يرجو عبد من عبد إلَّا أن يزداد ذلًّا؟ وماذا يطلب فقير من فقير إلَّا أن يزداد عيلة!

إن الإخلاص لله سياج العز وضمان الخير في الحياتين.

وعندما تصدق النية فلا يخشى على العبد من مجاهرة بصلاة أو جهاد أو صدق، إذ الأساس استهداف وجه الله، وليس على البال غيره.

ومن الحماقة أن يطلب إنسان ثناءَ الخلق وهو يعلم أنَّ الله قد ستر عليه ذنوباً لو كشفوها لسوّدوا وجهه!!

الله أولى بالاتجاه والمودة وأحق بالحفاوة والالتفات.

ومن عظمة الإيمان اكتفاء المرء بنظر الله إليه، وإيثاره أن يعمل في صمت، أو يموت جندياً مجهولاً، وهذا الاكتفاء دلالة استغراق المرء في الشهود الإلّهي، ورسوخ قدمه في مقام الإحسان، وتلك هي الولاية كما شرحها معاذ بن جبل رضوان الله عليه.

روى ابن ماجه أن عمر بن الخطاب خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر الرسول ﷺ يبكي! فقال: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من رسول الله: «اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إنَّ الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة».

أجل إنَّ الله يحب أولئك العاملين في صمت، الزاهدين في الشهرة والسلطة، المشغولين باللباب عن القشور، المتعلقة قلوبهم بالله، لا تحجبهم عنه فتنة ولا تغريهم متعة.

وما أفقر أمتنا إلى هذا الصنف المبارك، بهم ترزق وبهم تنصر.

إلَّا أنَّ بعض العبادات الأصلية ما تتم إلَّا في جو العلانية والظهور كالتعليم والدعوة والقضاء والجهاد، بل إن قيام الأركان الأساسية يتطلب ذلك، وهنا نؤكد خطورة النية المصاحبة في تقويم أي عمل صحة وقبولاً.

وقد كان أبو بكر يقوم الليل فيقرأ سراً، وكان عمر يقوم فيقرأ جهراً، فلما سئل

الصدّيق قال: أسمعتُ من أناجي! ولما سئل الفاروق قال: أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان!!

إنَّ إخلاص النية هنا وهناك يجعل السرَّ والعلنَ سواء.

وذلك ما ينبغي أن يعيَه الدعاة والقضاة والساسة والقادة، وكل من يحملون مؤنة الآخرين، أو يكونون في موضع الأسوة.

والإخلاص لا يمنع المسلم من الاهتمام بنفسه وسمعته وكرامته.

إن الله كلفنا أن نجمل أبداننا وملابسنا، وكره لنا رثاثة الهيئة وكآبة المنظر في الأهل والمال، فليس من الرياء أن نصون أحوالنا ونحصن مكاناتنا من الظنون والمكدرات!

من حق الكريم ألَّا يتهم بالبخل، كما أنَّ من حق النظيف ألَّا يرمى بالأدران.

لكن الدفاع عن الكيان المادي والمعنوي شيء، وطلب وجوه الناس بالعمل الصالح شيء آخر.

وقد خلَّد القرآن الكريم ذكر فريقين من الهداة الأتقياء:

أحدهما: سَجَّل أسماءه وجهاده وأثنى على رجاله أطيب الثناء.

والآخر: طوى أسماءه ونشر سيرته واكتفى بشرح عمله وتزكية أثره.

من الأولين أنبياء الله الكرام الذين غرسوا هدايات السماء في الأرض، وذادوا عنها أوبئة الكفر والعدوان.

والقرآن عندما يثبت تاريخاً لا يعنى إلَّا بإبراز المناقب التي تؤخذ منها الأسوة، والفضائل التي سبقت بذويها وأعلت أقدارهم!

تدبر قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾. [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

إن هذه الآيات تنبه إلى الاستطالة المادية والمعنوية لهؤلاء الدعاة الكبار،

فليست الأيدي والأبصار هذه الأعضاء والحواس التي يشترك فيها العباقرة والدهماء، ولكنها القدرة والمعرفة!

وهل يتقدَّم من يتقدَّم، ويتأخَّر من يتأخَّر إلَّا بهذا التفاوت البعيد في الهمم والثقافات؟؟

وندع الحديث عن هذا الفريق الذي رفع الله ذكره إلى الفريق الآخر الذي أسدل على أسماء رجاله ستار كثيف فما يعرفهم إلَّا ربهم.

من يدري؟ لعل هذا تكريم وتثبيت للذين يعملون حتى الممات بعيداً عن الأضواء، أنهم أسمعوا من يناجون! ولن يضيع من عملهم مثقال ذرة وإنْ جَهِل الناس من هم؟

لهم أسوة حسنة فيمن حكى القرآن أنباءهم وترك ـ غير نسيان ـ أسماءهم.

من هؤلاء مؤمن آل فرعون الذي أحسَّ نية الغدر بموسى والتآمر على قتله، فاصطنع أسلوبَ المحايد في عرض نصحه وتفكيره قائلاً:

ما خطورة أن يؤمن أحدٌ بالله، أو يزعم أنه يحمل رسالة من لدنه:

إن كان كاذباً فستفضحه الأيام، ولن يضر إلَّا نفسه.

وإن كان صادقاً فإن العدوان عليه استهداف لعقاب الله الكبير، وليس من العقل التعرض لعقاب الله.

واستتلى يقول: قد نكون اليوم أقوياء غالبين، ولكننا بشر لا نفلت من أصابع القدرة العليا عندما تقبض علينا، فلا ينبغي أن نجور على عباد الله.

قال تعالى مخلداً دفاع هذا المحامي المؤمن:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾. [غافر: ٢٨ ـ ٢٩].

وأحبُّ أن أقف قليلاً عند رد فرعون: هل كان الرجل يعتقد فعلاً أنه راشد، أم أنه كان يحادّ الله ورسوله، وهو يدري أنه مبطل عنيد؟

الواقع أن كثيراً من الضالين يمضون في طريق الغواية وهم يستحسنونها ويستريحون إليها، ويعتقدون أنَّ لهم وجهة نظر جديرة بالتسليم.

وفي هؤلاء يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾. [النمل: ٤].

ويقول:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾. [محمد: ١٤].

ويقول المفسرون في قوله تعالى:

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾. [الأنفال: ١٩].

نزلت الآية في أبي جهل عندما قاد المشركين في معركة بدر، فقد قال لمَّا التقى الجمعان: اللهم أيُّنا كان أفجر قاطعاً للرحم ـ يعني نفسه ومحمداً ـ فأحفه اليوم أي أهلكه.

فكأن هذا الكفور الكنود كان إلى الرمق الأخير يعتقد أنه مُحِقٌّ فيما ارتكب!!

إنَّ الحجاب المُسْدَل على بصيرته لم يسمح لشعاع من الخير أن يتسلَّل إلى نفسه، وهو المسؤول عن ذلك الطمس، فلولا إدمان المعصية وتعود الجريمة، ما أصابه هذا العمى!

وقد يكون كلا الرجلين «فرعون» و«أبو جهل» كاذباً في حديثه عن نفسه وحواره مع قومه فمثلهما من الدهاء والقدرة بحيث يدري أنه مسترسل مع هواه، وأنه يكابر الحقائق، ويشاق الله ورسله.

وقد كشف القرآن الكريم في موضع آخر أنَّ فرعون وقومه لما جاءتهم آيات الله الباهرة:

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾. [النحل: ١٤].

كما قال لرسوله محمد شارحاً موقف أبـي جهل وأشباهه:

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾. [الأنعام: ٣٣].

وقد كان مؤمن آل فرعون يحسُّ أنه أمام جماعة من الأفَّـاكين المغرورين، فـأخذ رويداً رويداً يتخلّىٰ عن موقف الحياد الذي بدأ به نصائحـه، وارتفعت درجة الحمـاس في خطابه لفرعون ومن معه خصوصاً عندما قال فرعون ساخراً لوزيره هامان:

﴿ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾. [غافر: ٣٦ ــ ٣٧].

عندئذٍ احتدت لهجة الرجل المؤمن واضطرم الإخلاص في قلبه ولسانه فصاح:

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾. [غافر: ٤١].

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾. [غافر: ٤٣ ــ ٤٤].

ولكن هذه المناشدة الخالصـة الحادبـة لم تلق آذاناً واعيـةً، فمضى فرعـون إلى مصـرعه، وأورد قـومه الحتـوف، وبقي النصـح الجميل الصـادق الذي بـذلـه الـرجـل المؤمن خالداً على الدهر يكشف عن أسرار القدرة العليا فيما أنزلت بالظالمين.

مَنْ هذا الرجـل الذي يـردّد كلام الأنبيـاء وليس منهم؟ لا نعرفـه، ولا نعرف عن مولده ومماته شيئاً.

ليكن رمزاً للعمل بعيـداً عن الأضواء، استعـلاء على الشهرة في الأرض، وإيثـار العقبـى في السماء..

وهذا رجل آخر من الطراز عينه، رجل وجد العِراك محتدماً بين رسـل الله وحماة الانحـراف، هؤلاء يريـدون أن يبلغوا عن الله ويغيـروا الشر السـائد، وأولئـك يريـدون تكميم أفواههم وإخراس ألسنتهم..

ونمـا الخصام بين الفـريقين، وبلـغ الأمر بـأعداء الـوحي أن تشاءمـوا من وجود

المرسلين بينهم، ومن دعوتهم فيهم، فتهددوهم بالعذاب الأليم.

وجاء الرجل المؤمن من بعيد يهيب بقومه أن يعقلوا!

وقـال:

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾. [يس. ٢٠ ــ ٢١].

لقد أمن قومه على أموالهم فلن يـرزأهم أحد فيهـا، وهذه الـدنيا التي يحـرصون عليها ستبقى لهم مزدانة بالإيمان الحق، فما أجمل هذا!

ثم تساءل: ما يمنعنا من الإيمان؟ وما يغرينا بالشرك؟

﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾. [يـس: ٢٢ ــ ٢٥].

إنه يريد إسماعهم ليرعووا ويقتدوا ولا يستوحشوا من الطريق الذي يدعوهم إليه.

وبقي الرجل إلى آخر رمق ينصـح أهل بلده ليرشدوا، بيد أنه مـات تاركـاً إياهم على غوايتهم.

فلما وجد طيب عيشه عند ربه، وثمرة إيمانه تحفّ بـه وتقـرّ عينه، تـذكَّر الـرجل المخلص قومه فتمنى لهم الهدى:

﴿ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[يٓس: ٢٦ ــ ٢٧].

ولكن قومه أصرّوا على العمل، فمستهم نفحـة من عذاب الله أخمـدت أنفاسهم وجعلتهم أثراً بعد عين.

مَنْ هذا الرجل الطيب القلب السمـح النفس؟

لا نعرفه، حسبه أنَّ ربه يعلمه، إنه لم يعمل إلا لـه!

والفتية أهل الكهف الذين أحبوا ربهم حباً جماً، وغالوا بتوحيده مغـالاة ظاهـرة، من هم؟ لا ندري، لقد رفض القرآن أن يجلوَ النقاب عن أشخـاصهم وعددهم ﴿ربهم أعلم بهم﴾، ﴿ربـي أعلم بعدَّتهم﴾.

لكنه كشف عن جلال يقينهم وسمو معرفتهم بالله وإجماعهم على إفراده بالعبادة، وازدرائهم لكل انحراف إلى الشرك:

﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾. [الكهف: ١٤].

كما كشف عن تبرمهم الشديد بالمجتمع الوثني وعزوفهم عن البقاء فيه، وخشيتهم من العودة إليه إذا ضبطوا متلبّسين بإيمان!

وانظر مدى كراهيتهم للكفر، والوقوع تحت سطوة أهله، وقول بعضهم لبعض:

﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ ﴾. [الكهف: ٢٠].

إنَّ العيش بمبدأ كريم ولمبدأ كريم شيءٌ عظيم حقاً.

وإنما يتفجر الفداء والإخلاص من عمق هذه الحياة الرفيعة.

والأمة العربية فتكت بها أمراض الرياء، وعلل التعاظم الأجوف، والرغبة في الظهور بالحق أو بالزور، ولا يمكن أن تنهض أمة مع هذه الأدواء الخسيسة!

إننا بحاجة إلى أعداد كبيرة من الجنود المجهولين، يعملون في ألف ميدان، ويسدون ألفَ ألفِ ثغرة.

فهل يوجد من يكتفون لنظر الله إليهم، ويستغنون عن أنظار الناس؟

* * *

التنادي بالجهاد

في صدر تاريخنا، وعلى امتداده مع الزمن، كان العالم الإسلامي يُعرف بحبه للجهاد وارتضائه لأشق التضحيات كي يحق الحقَّ ويبطل الباطل.

كان هذا العالم الرحب عارم القوى الأدبية والمادية حتى يئس المعتدون من طول الاشتباك معه، فقد كبح جماحهم، وقلَّم أظفارهم وردَّ فلولهم مذعورة من حيث جاءت، أو ألحق بهم من المغارم والآلام ما يظل بينهم عبرة متوارثة وتأديباً مرهوباً.

ويرجع ذلك إلى أمور عدة:

أولهـا: أن الحقائق الـدينية عنـدنا لا تنفـك أبـداً عن أسبـاب صيـانتهـا ودواعي حمايتها، فهي مغلَّفة بغطاء صلب يكسر أنياب الوحوش إذا حاولت قضمها.

وذلك هو السر في بقاء عقائدنا سليمةً بـرغم المحاولات المتكـرِّرة لاستباحتهـا، تلك المحاولات التي نجحت في اجتياح عقائد أخرى أو الانحراف بها عن أصلها.

ثم إنَّ الإسلام جعل حراسة الحق أرفـع العبادات أجراً، أجل فلولا يقظة أولئـك الحراس وتفانيهم ما بقي للإيمان منار، ولا سرى له شعـاع «قيل يـا رسول الله مـا يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه! فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثة، كل ذلك يقول: لا تستـطيعونـه! ثم قال: مثـل المجاهـد في سبيـل الله كمثـل الصـائم القـائم القـانت بآيات الله لا يفْتُر من صلاة ولا صيام.. حتى يرجـع المجاهد في سبيل الله»(1).

وإذا كان فقدان الحياة أمراً مقلقـاً لبعض الناس، فـإن ترك الـدنيا بـالنسبة لبعض المجاهدين بـداية تكـريم إلَهي مرمـوق الجلال شهي المنـال حتى أن النبـي ﷺ حلف يرجو هذا المصير.

«والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغـزو فأقتـل، ثم أغزو فأقتل»(2).

فأيُّ إغراء بالاستماتة في إعلاء كلمة الله ونصره الدين أعظم من هذا الإغراء؟

لقد كانت صيحة الجهاد قديماً تجتذب الشباب والشيب وتستهوي الجماهيـر من كل لون، فـإذا سَيْل لا آخـر له من أولي الفـداء والنجدة يصبّ في الميـدان المشتعل. فما تضـع الحرب أوزارها إلاَّ بعد أن تكويَ أعداء الله وتلقنهم درساً لا ينسى.

هل أصبحت هذه الخصائص الإسلامية ذكريات مضت أم أنها محفورة في عقلنا الباطن تحتاج إلى من يزيل عنها الغبار وحسب؟

إنَّ الاستعمار الذي زحف على العالم الإسلامي خلال كبوته الأخيرة بـذل جهوداً هائلةً لشغل المسلمين عن هـذه المعاني أو لقتـل هذه الخصـائص النفسية في حيـاتهم العامة، وذلك ليضمن فرض ظلماته ومظالمه دون أية مقاومة!

---

(1) و(2) الحديثان من رواية البخاري.

وقد توسَّل إلى ذلك بتكثير الشهوات أمام العيون الجائعة، وتوهين العقائد والفضائل التي تعصم من الدنايا، وإبعاد الإسلام شكلاً وموضوعاً عن كل مجال، وتضخيم كل نزعة محلية أو شخصية تمزق الأخوة الجامعة وتوهي الرباط العام بين أشتات المسلمين.

وقد أصاب خلال القرن الأخير نجاحاً ملحوظاً في سبيل غايته تلك..

ومن ثم لم تنجح محاولات تجميع المسلمين لصدِّ العدو الذي جثم على أرضهم واستباح مقدساتهم.

وما قيمة هذا التجميع إذا كان الذين ندعوهم قد تحللوا من الإيمان وفرائضه، والقرآن وأحكامه.

إن تجميع الأصفار لا ينتج عدداً له قيمة!!

وإن الجهد الأول المعقول يكمن في رد المسلمين إلى دينهم، وتصحيح معالمه ومطالبه في شؤونهم، ما ظهر منها وما بطن..

عندئذٍ يدعون فيستجيبون، ويكافحون فينتصرون، ويحتشدون في معارك الشرف فيبتسم لهم النصر القريب، وتتفتح لهم جنات الرضوان..

إنَّ الرجل ذا العقيدة عندما يقاتل لا يقف دونه شيء.

أعجبتني هذه القصة الرمزية الوجيزة، أسوقها هنا لما تنضح به من دلالة رائعة:

«حكوا عن قوم فيما مضى كانوا يعبدون شجرةً من دون الله، فخرج رجل مؤمن من صومعته وأخذ معه فأساً ليقطع بها هذه الشجرة، غيرة لله وحميةً لدينه! فتمثل له إبليس في صورة رجل وقال له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: أقطع تلك الشجرة التي تعبدون من دون الله، فقال له: اتركها وأنا أعطيك درهمين كل يوم، تجدهما تحت وسادتك إذا استيقظت كل صباح!

فطمع الرجل في المال، وانثنى عن غرضه، فلما أصبح لم يجد تحت وسادته شيئاً، وظل كذلك ثلاثة أيام، فخرج مغضباً ومعه الفأس ليقطع الشجرة فلقيه الرجل فقال: ارجع فلو دنوت منها قطعت عنقك.

لقد خرجت في المرة الأولى غاضباً لله فما كان أحد يقدر على منعك! أما هذه المرة فقد أتيت غاضباً للدنيا التي فاتتك، فما لك مهابة، ولا تستطيع بلوغ أربك فارجع عاجزاً مخذولاً . . »

إنَّ الغزو الثقافي للعالم الإسلامي استمات في محو الإيمان الخالص وبواعثه المجردة، استمات في تعليق الأجيال الجديدة بعرض الدنيا ولذة الحياة، استمات في إرخاص المثل الرفيعة وترجيح المنافع العاجلة.

ويوم تكثر النماذج المعلولة من عبيد الحياة ومدمني الشهوات فإن العدوان يشق طريقه كالسكين في الزبد، لا يلقى عائقاً ولا عنتاً.

وهذا هو السبب في جؤارنا الدائم بضرورة بناء المجتمع على الدين وفضائله، فإن ذلك ليس استجابة للحق فقط، بل هو السياج الذي يحمينا في الدنيا كما ينقذنا في الآخرة . .

إنَّ ترك صلاة ما قد يكون إضاعة فريضة مهمة، واتباع نزوة خاصة قد تكون ارتكاب جريمة مخلة، لكن هذا أو ذاك يمثلان في الأمة المنحرفة انهيار المقاومة المؤمنة والتمهيد لمرور العدوان الباغي دون رغبة في جهاد أو أمل في استشهاد، ولعلَّ ذلك سر قوله تعالى:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾.
[مريم: ٥٩].

إنَّ كلمة (الجهاد) إذا قيلت ــ قديماً ــ كان لها صدى نفسي واجتماعي بعيد المدى، لأن التربية الدينية رفضت التثاقل إلى الأرض والتخاذل عن الواجب، وعدَّت ذلك طريق العار والنار وخزي الدنيا والآخرة.

وهذه التربية المغالية بدين الله، المؤثرة لرضاه أبداً هي التي تفتقر إليها أمتنا الإسلامية الكبرى في شرق العالم وغربه.

وكل مؤتمر إسلامي لا يسبقه هذا التمهيد الحتم فلن يكون إلَّا طبلاً أجوف!

والتربية الدينية التي ننشدها ليست آزوراراً عن مباهج الحياة التي تهفو إليها نفوس البشر، ولكنها تربية تستهدف إدارة الحياة على محور من الشرف والاستقامة،

وجعل الإنسان مستعداً في كل وقت لتطليق متعه إذا اعترضت طريقَ الواجب.

كنت أقرأ مقالاً مترجماً في أدب النفس فاستغربت للتلاقي الجميل بين معانيه وبين مواريثنا الإسلامية المعروفة التي يجهلها للأسف كثير من الناس.

تأمَّل معي هذه العبارة:

«يقول چوته الشاعر الألماني: من كان غنياً في دخيلة نفسه فقلما يفتقر إلى شيء من خارجها!».

أليس ذلك ترجمة أمينة لقول رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[1]!

عن أبي ذر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت: نعم يا رسول الله! قال: فترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب»[2].

واسمع هذه العبارة من المقال المذكور: «النفس هي موطن العلل المضنية، وهي الجديرة بالعناية والتعهد، فإذا طلبت منها أن تسوس بدنك سياسةً صالحة فاحرص على أن تعطيها من القوت ما تقوى به وتصح.

هذا القوت شيء آخر غير الأخبار المثيرة والملاهي المغرية والأحاديث التافهة والملذات البراقة التافهة، ثم انظر إليها كيف تقوى بعد وتشتد، إنَّ التافه الخسيس مفسدة للنفس! واعلم أنَّ كل فكرة تفسح لها مكاناً في عقلك، وكل عاطفة تَتَسلَّل إلى فؤادك تترك فيك أثرها، وتسلك بك أحد طريقين: إما أن تعجزك عن مزاولة الحياة، وإما أن تزيدك اقتداراً وأملاً.

أليس هذا الكلام المترجم شرحاً دقيقاً لقول البوصيري:

وإذا حلَّت الهداية نفساً ... نشطت للعبادة الأعضاء

وتمهيداً حسناً لقول ابن الرومي:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج ... طريقان شتى مستقيم وأعوج

---

(١) و(٢) الحديثان رواهما البخاري.

واقـرأ هذه الكلمـات أيضاً في المقـال المترجم: ربَّ رجـل وقـع من الحياة في مثل الأرض الموحلة فكادت تبتلعه، ولكنه ظل يجاهد للنجاة مستيئساً، وبينا هو كـذلك انهارت قواه وشقَّ عليه الجهاد وأسرعوا به إلى الطبيب. . الطبيب لم يجد بجسـده علة ظاهرة. كل ما يحتاج إليه الرجل نـاصِـح يعلمه كيف ينـازل الحياة وجهـاً لوجـه لا تثنيه عقبة ولا رهبة.

إن هذا الكلام يذكرني بما روي عن جعفر الصـادق: من طلب ما لم يخلق تعب ولم يرزق! قيل وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا.

وأنشـدوا:

يـطلب الـراحـة فـي دار الـفـنـا خـاب مـن يـطلب شيئـاً لا يـكـون

إنَّ التربية التي ننشدها نحن المسلمين ليست بدعاً من التفكير الإنساني الراشد، إنها صياغـة الأجيال في قـوالب تجعلها صـالحة لخـدمة الحق وأداء ضـرائبه، واحتقـار الدنيا يوم يكون الاستمساك بها مضيعة للإيمان ومغاضبة للرحمن. .

والاستعمـار يوم وضـع يـده على العالم الإسـلامي من مائـة سنـة صبَّ الأجيـال الناشئة في قوالب أخرى، نمت بعـدها وهي تبحث عن الشهـوات وتخلد إلى الأرض، فلمَّـا ختلها عن دينهـا بهذه التـربية الـدنيئة استمكن من دنيـاها فـأمست جسـداً ونفسـاً لا تملك أمرها، ولا تحكم يومها ولا غدها.

بل إنها في تقليدها للعالم الأقوى تقـع في تفاوت مثير:

عندما ننقل المباذل ومظاهر التفسـخ في الحضارة الغربية ننقلها بسرعة الصوت، أما عندما ننقل علماً نافعاً وخيراً يسيراً فإن ذلك يتم بسرعة السلحفاة.

وكثير من الشعوب الإسلامية تبيـع ثرواتها المعدنية والـزراعية بـأكوام من المـواد المستهلكة، وأدوات الزينة والترف، مـع فقرها المدقـع إلى ما يدفـع عنها جشـع العدو ونياته السود في اغتيالها وإبادتها!

وظـاهر أن هـذا السلوك استجابـة طبيعية لأسلوب التـربية الـذي أخذت بـه منـذ الصغـر، وأثر محتـوم لاتخاذ القـرآن مهجوراً، ونبـذ تعاليمـه وقيمه، وهـل ينتـج ذلـك إلَّا طفولة تفرح باللعب المصنوعة والطرف الجديدة والملابس المزركشة، والمظاهر الفارغة؟

ولا بأس بعد توفير هذا كله من استصحاب بعض الآثار الدينية السهلة!

ولتكن هذه الآثار الاحتفال بذكرى قديمة أو زيارة قبر شهير!

ثم يسمى هذا السلوك التافه تديناً!

لقد جرَّب المسلمون الانسلاخ عن دينهم، واطّراحِ آدابه، وترك جهاده، فماذا جرّ عليهم ذلك؟ حصد خضراءَهم في الأندلس فصفَّرت منهم بلاد طالما ازدانت بهم وعنت لهم، وما زال يرنُّ في أذني قول الشاعر:

قلت يوماً لدار قوم تفانوا: أين سكانك العزاز علينا؟

فأجابت هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا ولست أعلم أينا!

أسمعت هذا النغم الحزين يروي في اقتضاب عقبى اللهو واللعب، عقبى إضاعة الصلوات واتباع الشهوات.. إنَّ عرب الأندلس لم يتحوّلوا عن دارهم طائعين ولكنهم خرجوا مطرودين.

أفلا يرعوي الأحفاد مما أصاب الأجداد؟

لقد قرأت أنباء مؤتمرات عربية وإسلامية كثيرة اجتمعت لعلاج مشكلة فلسطين، فكنت أدع الصحف جانباً ثم أهمس إلى نفسي: هناك خطوة تسبق كل هذا، خطوة لا غنى عنها أبداً:

هي أن يدخل المسلمون في الإسلام..

إنني ألمح في كل ناحية استهانة بالفرائض، وتطلعاً إلى الشهوات، وزهادة في المخاطرة والتعب، وإيثاراً للسطوح على الأعماق والأشكال عن الحقائق، وهذه الخلال تهدم البناء القائم. فكيف تعيد مجداً تهدّم أو تردّ عدواً توغَّل..؟

ما أحرانا أن نعقل التحذير النبوي الكريم: «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»[1]، فإذا أصغينا إلى هذا النذير ابتعدنا عن منحدر ليست وراءه إلا هاوية لا قرارَ لها، ثوى فيها قبلنا المفرطون والجاحدون.

* * *

(١) ؟؟؟.

دين زاحف مهما كانت العوائق

كلما قرأت أبواب الفتن في كتب السنّة شعرت بانزعاج وتشاؤم وأحسست أن الذين أشرفوا على جميع هذه الأحاديث قد أساءوا ـ من حيث لا يدرون ومن حيث لا يقصدون ـ إلى حاضر الإسلام ومستقبله!

لقد صوَّروا الدين وكأنه يقاتل في معركة انسحاب، يخسر فيها على امتداد الزمن أكثر مما ربح!

ودوَّنوا الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها القريبة، فظهرت وكأنها تغري المسلمين بالاستسلام للشر، والقعود عن الجهاد، واليأس من ترجيح كفة الخير لأن الظلام المقبل قدر لا مهرب منه.

وماذا يفعل المسلم المسكين وهو يقرأ حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري عن الزبير بن عدي، قال: «شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلاَّ الذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ»!!(١).

وظاهر الحديث أن أمر المسلمين في إدبار، وأنَّ بناء الأمة كلها إلى انهيار على اختلاف الليل والنهار!

وقد روى البخاري وغيره في الفتن التي سوف يتعرض لها تاريخنا الطويل، والرواية وإن صحت سنداً إلا أن المتن يحتاج إلى تأمل وتوقف، فقد كشف القرآن أن الإسلام سوف يظهر على الدين كله، وأن الذين تحملوا المعاناة والقلق سوف يذوقون النصر والأمان، وأن المجاهدين سوف يركبون ثبج البحر الوسيط غزاة في سبيل الله، وهم كالملوك على الأسرَّة، وسوف تنفتح لهم الحواضر والأمصار. (إن حديث أنس ـ في ظاهرة المستبعد ـ يخالف تلك الأحداث التي نذكرها، كما يخالف الأحداث التي وقعت في العصر الأموي نفسه!

فقد جاء الوليد بن عبد الله فمد رقعة الإسلام شرقاً حتى احتوت أقطاراً من الصين، وامتدت رقعة الإسلام غرباً حتى شملت أسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا.

---

(١) انظر شرح الحديث في فتح الباري.

ثم تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز فنسخ المظالم السابقة، وأشاع الرخاء حتى عزَّ على الأغنياء أن يجدوا الفقراء الذين يأخذون صدقاتهم!

ولقد أتى بعد أنس بن مالك عصر الفقهاء والمحدثين الذين أحيوا الثقافة الإسلامية وخدموا الإسلام أروع وأجلّ خدمة، فكيف يقال: إن الرسالة الإسلامية الخاتمة كانت تنحدر من سيِّء إلى أسوأ؟؟

الواقع أن أنساً رضي الله عنه كان يقصد بحديثه منع الخروج المسلَّح على الدولة بالطريقة التي شاعت في عهده ومن بعده، فمزَّقت شمل الأمة، وألحقت بأهل الحق خسائر جسيمةٍ، ولم تنل المبطلين بأذىً يذكر.

وأنس بن مالك أشرف ديناً من أن يمالىء الحجاج أو يقبل مظالمه، ولكنه أرحم من أن يزجَّ بأتقيائها وشجعانها في مغامرات فردية تأتي عليهم، ويبقى الحجاج بعدها راسخاً مكيناً!

وتصبيره الناس حتى يلقوا ربهم ـ أي حتى ينتهوا هم ـ لا يعني أنَّ الظلم سوف يبقى إلى قيام الساعة، وأنَّ الاستكانة الظالمة سنة ماضية إلى الأبد!

إنَّ هذا الظاهر باطل يقيناً، والقضية المحدودة التي أفتى فيها أنس لا يجوز أن تتحول إلى مبدأ قانوني يحكم الأجيال كلها.

لقد سلخ الإسلام من تاريخه المديد أربعة عشر قرناً، وسيبقى الإسلام على ظهر الأرض ما صلحت الأرض للحياة والبقاء، ما قضت حكمة الله أنْ يختبر سكانها بالخير والشر.

ويوم ينتهي الإسلام من هذه الدنيا فلن تكون هذه دنيا، لأنَّ الشمس ستنطفىء والنجوم ستنكدر، والحصاد الأخير سيطوي العالم أجمع!

فليخسأ الجبناء دعاة الهزيمة وليعلموا أنَّ الله أبرَّ بدينه وعباده مما يظنون.

لقد ذكر لي بعضهم حديث: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»(١) وكأنه يُفهم منه أنَّ الإسلام سينكمش ويضعف، وأن على من يسمع هذا الحديث أن يهادن الإثم، ويداهن الجائرين ويستكين للأفول الذي لا محيص عنه!

وإيراد الحديث وفهمه على هذا النحو مرض شائع قديم.

---

(١) رواه أحمد وجماعة.

ولو سَرَت جرثومة هذا المرض إلى صلاح الدين الأيوبي ما فكر في استنقاذ بيت المقدس من الصليبيين القدامى!

ولو سَرَت جرثومة هذا المرض إلى سيف الدين قطز ما نهض إلى دحر التتار في «عين جالوت»!

ولو سَرَت جرثومة هذا المرض إلى زعماء الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر ابتداءً من جمال الدين الأفغاني إلى الشهداء والأحياء من حملة اللواء السامق ما فكّروا أن يخطوا حرفاً أو يكتبوا سطراً!

وقلت في نفسي: أيكون الإسلام غريباً وأتباعه الذين ينتسبون إليه يبلغون وفق الإحصاءات الأخيرة ثمانمائة مليون نفس؟

يا للخذلان والعار!

الواقع أنَّ هذا الحديث وأشباهه يشير إلى الأزمات التي سوف يواجهها الحق في مسيرته الطويلة فإنَّ الباطل لن تلين بسهولة قناته، بل ربما وصل في جرأته على الإيمان أن يقتحم حدوده ويهدد حقيقته، ويحاول الإجهاز عليه!

وعندما تنجلي الظلماء عن رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ويقاومون الضلالَ بجلد، ولا يستوحشون من جوِّ الفتنة الذي يعيشون فيه، ولا يتخاذلون للغربة الروحية والفكرية التي يعانونها، ولا يزالون يؤدّون ما عليهم لله حتى تنقشع الغمّة ويخرج الإسلام من محنته مكتمل الصفحة، بل لعله يستأنف زحفَه الطهور فيضم إلى أرضه أرضاً وإلى رجاله رجالاً.

وذلك ما وقع خلال أعصار مضت، وذلك ما سيقع خلال أعصار تجيء، وهذا ما ينطق به حديث الغربة الآنف، فقد جاء في بعض رواياته:

«طوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»[1] فليست الغربة موقفاً سلبياً عاجزاً، إنها جهاد قائم دائم حتى تتغير الظروف الرديئة ويلقى الدين حظوظاً أفضل.

وليس الغرباء هم التافهون من مسلمي زماننا، بل هم الرجال الذين رفضوا الهزائم النازلة وتوكّلوا على الله في مدافعتها حتى تلاشت!

---

(١) راجع في روايات الحديث كلها كتاب «كشف الكربة»، لابن رجب الحنبلي.

والفتن التي لا شك في وقوعها والتي طال تحذير الإسلام منها، فتنة التهارش على الحكم والتقاتل على الإمارة ومحاولة الاستيلاء على السلطة بأي ثمن، وما استتبعه ذلك من إهدار للحقوق والحدود، وعدوان على الأموال والأعراض.. وهذا المرض كان من لوازم الطبيعة الجاهلية التي عاشت على العصبية العمياء.

والعرب في جاهليتهم ألِفوا هذا الخصام والتعادي فهم كما قال دريد بن الصمة:

يغار علينا واترين فيشتفي ... بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضي إلَّا ونحن على شطر

وما رواه أحمد عن تميم الداري يؤيده ما رواه عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مَدَر ولا وبر إلَّا دخلته كلمة الإسلام يعز عزيزاً ويذل ذليلاً، أمَّا الذين يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وأمَّا الذين يذلهم الله فيدينون لها»[1].

وكذلك ما رواه عن قبيصة بن مسعود: صلَّى هذا الحي من محارب ـ اسم قبيلة ـ الصبح، فلما صلَّوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها ـ أمراءها ـ في النار إلَّا من اتقى وأدى الأمانة».

ويقول صاحب المنار في نهاية تفسيره لقوله تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾.

اعلم أنَّ الاستدلال بما ورد من أخبار وآثار في تفسير هذه الآية لا يدل هو ولا غيره من أحاديث الفتن على أنَّ الأمة الإسلامية قد قضي عليها بدوام ما هي عليه الآن من الضعف والجهل كما يزعم الجاهلون بسنن الله، اليائسون من رَوْح الله، بل توجد نصوص أخرى تدل عن أن لجوادها نهضة من هذه الكبوة، وأن لسهمها قرطة بعد هذه النبوة، كالآية الناطقة باستخلافهم في الأرض ـ سورة النور ـ فإنَّ عمومها لم يتم بعد، وكحديث: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً، وحتى

(١) رواه ابن حبان كما في الزوائد للهيثمي رقم (١٦٣١) وجماعة.

يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلاَّ ضلاَّل الطريق» رواه أحمد.

والشطر الأول منه لم يتحقق بعد، ويؤيده ويوضح معناه ما صحَّ عن مسلم من أنَّ ساحة المدينة المنورة سوف تبلغ الموضع الذي يقال له أهاب، أي أن مساحتها ستكون عدة أميال، فكونوا يا قوم من المبشِّرين لا من المنفرين.

﴿ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين﴾.

وخطأ كثير من الشرَّاح جاء من فهمهم أنَّ ترك الشر هو غاية التدين، وأنَّ اعتزال الفتن هو آية الإيمان.

وهذا عجز سببه ضعف الهمة وسقوط الإرادة.

وإني لأذكر فيه قول المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس إحسان وإجمال

أجل، فإن ترك الصغائر غير بلوغ الأمجاد، وتجنب التوافه والرذائل غير إدراك العظائم وتسنم الهام، والتلميذ الذي لا يسقط شيء والذي يحرز الجوائز شيء آخر!

والرسول الكريم عندما يأمرنا باعتزال الفتن لا ينهي واجبنا عند هذا الحد.

سوف يبقى بعد ذلك الاعتزال الواجب بناء الأمة على الحق ومد شعاعاته طولاً وعرضاً حتى تنسخ كل ظلمة..

ولا نماري في أنَّ تصدعاتٍ خطيرةً أصابت الكيان الإسلامي قديماً وحديثاً.. بيد أنَّ الضعاف وحدهم هم الذين انزووا بعيداً يبكون، ويتشاءمون، وينتظرون قيامَ الساعة!!

أما الراسخون في العلم فقد أقبلوا على رتق الفتوق، وجمع الشتات، وإعادة البناء الشامخ حتى يدركهم الموت أو القتل وهم مشتغلون بمرضاة الله، حتى يبلغ الإسلام مواقع النور والظل من أرض الله أو كما قال الرسول العظيم: «ما بلغ الليل والنهار».

* * *

قال الإنسان وقال الحيوان

نحن نعلم أنَّ عدداً من حملة الأقلام قد صنعت رؤوسهم خارج هذه البلاد، وأن تصورهم لكثير من الحقائق وحكمهم في كثير من القضايا لا صلة له بتراثنا ولا ارتباط له برسالتنا، وإنَّ آخر ما يكترثون له أو يهتمون به هو الإسلام وحاضره ومستقبله، وإن كانت أسماؤهم إسلامية.

وكنت أحسب أن معركة المصير بيننا وبين اليهود ستكرههم على مراجعة أنفسهم وتصحيح أخطائهم، ولكنني كنت واهماً.

لقد استيقظ اليهود وهاجت في دمائهم غطرسة الماضي، وانحرافات التدين ولوثات التعصب، وهجموا على بلادنا يبغون محو أمة وحضارة، وفي أيديهم كل ما استحدث العلم من أدوات الفتك!

وفي ملاقاة هذا العدوان تقرأ لكاتب روايات مصري أنه مسرور من الجيل الحاضر لأنه يحسن الرقص والغناء!

قَبَّحك الله من كاتب مكفوف البصيرة!

وفي هذا الاتجاه الضرير ينشر كاتب آخر مقالات مسهبة عن «الشخصية المصرية» يمهد فيها طريق الشهوة ويرسم لها الأهداف الوضيعة.

وتستغرب وأنت تقرأ في صحيفة الأهرام مقالاته، في أي عصر يعيش هذا الكاتب، ولأي جيل يكتب؟

نعم، لقد ذهب «توفيق الحكيم» إلى باريس لا ليسأل: كيف دخل الفرنسيون النادي الذري؟ ولا ليبحث كيف يحاول جواسيس الصهيونية سرقة أسرار طائرات «الميراج»؟ ولا ليحقق كيف أقامت فرنسا قوة ثالثة تريد أن تضارع جبابرة الأرض؟ لا.. إنَّ شيئاً من ذلك لا يعنيه.

إنه ذهب ليزيد القراء العرب فهماً في الأمور الجنسية، وليمد حريق الشهوات بوقود جديد يأتي على الأخضر واليابس..

ذكر لنا الكاتب الجاد الناضج: كيف أن زوجين لم يحسنا الوقاع! وكيف أن طبيباً عالجهما حتى أحسناه!، وكيف شاهد مع الجمهور الفرنسي على «شاشة

المسرح»: التطبيقَ العملي من الزوجين لما سمعاه وعرفاه من الطبيب، فظهرا عاريين يمارسان هذه العلاقة في أتم وأكمل وجوهها»!

ويمضي كاتب الأهرام الوقور في عرض ما راقه من صور فرنسية فيقول: «صادفت في الحي «سينما» أخرى تعرض قصة عنوانها: «الزواج الجماعي».. جماعة من الأزواج الشباب اتفقوا فيما بينهم على أن يعيشوا في حياة مشتركة، وأن يتقاسموا بينهم كل شيء، وأن يناموا في حجرة واحدة، ونساؤهم مشاع لمن شاء منهم، للزوج أن يعاشر من تروق له من زوجات زملائه، وللزوجة أن تختار ما تريد من أزواج زميلاتها، كل ذلك بالرضا التام من الجميع، وكأنَّ الأمر رغيف خبز تتناوله الأيدي والأفواه.. ثم شاهدنا هذه العلاقات الجنسية تتم أمامنا بكل تفصيلاتها التي تخدش الحياء... إلخ».

ونترك صورة هذا القطيع من الفتيات والفتيان المتصالح على الزنا الجماعي أو على الفسوق القذر.. لنترك هذا القطيع في جوّه المنتن لنقرأ كاتب الأهرام الفيلسوف! وهو يقرر رأيه في هذا الموضوع، قال: «جعلت أفكر في الأمر مستعرضاً ما سبق من حضارات كبرى فوجدت بعض التشابه. إنَّ سمةَ الحضارة في كل عصر هي البحث عن الحقيقة، ولا حياء في البحث عن الحقيقة، خصوصاً ما يتعلق بالإنسان وأسباب وجوده المادي والروحي، فكانت حضارة مصر القديمة والهند ترسم وتنحت في المعابد بعض الأعضاء التناسلية رمزاً للحياة، بل إن كتب الأدب العربي القديم لأمثال الجاحظ وابن عبد ربه كانت تتحدث عن الجنس كما تتحدث عن الطعام، وأكثر هذه الكتب لا يخلو من باب للطعام وباب للباه، وما كان أحد وقتئذ يرى في ذلك بأساً ولا حرجاً، ولكن يظهر أنه عندما تأخذ الحضارات في الانحطاط تكثر المحظورات وتسدل البراقع على كثير من الموضوعات، إلى أن تمتد إلى روح المعرفة وعادة البحث فتصيبها بالشلل، وبهذا يقتل العلم وتخسر الحضارة».

هذا هو فكر كاتب الأهرام الكبير، ودرسه لتاريخ الحضارات السابقة واللاحقة.

وظاهر من أسلوب الكاتب أنه لا يدري شيئاً عن قضايا الحلال والحرام، ولا عن شرائع السماء في السلوك الخاص والعام، ولا عن الطور العصيب الذي يمر به تاريخ العرب، بل سنرى أنه لا يدري عن تاريخ الحضارات البشرية إلاَّ هذه الأجزاء المبتورة

عن التماثيل المقامة لأعضاء التناسل، واقتران الطعام بالباه في كتب الأدب العربي القديم!!

ومع هذا التطور المزري فهو كاتب كبير يملك حق التوجيه للأجيال الجديدة من أعلى المنابر.

إنَّ علماء الدين ما نادوا في بلادنا يوماً ما بكبت الغريزة الجنسية، ونحن نقدس فطرة الله التي فطر الناس عليها، ونحترم رغبة الذكر والأنثى في لقاء مقنع مشبع، وسبيل ذلك الزواج فحسب.

أما تيسير الزنا وتكثير أسبابه وتمهيد سبله وقبول نتائجه فهو ارتكاس إنساني يصحب الأمم عندما تبدأ شمسها في الغروب.

وتاريخ الأمة العربية والإسلامية معروف بأنه لم يعترف بالرهبانية كما لم يعترف بتبرج الجاهلية واستباحة الأعراض على نطاق ضيق أو واسع، فوصف الزنا العام بأنه زواج جماعي كلام قذر، وأيُّ تمهيدٍ لقبوله ــ كما ألمح الكاتب ــ مردود في وجه صاحبه.

ثم إنَّ العرب خلال هذا القرن قد حاقت بهم رزايا متلاحقة، ثم استطاع عدوهم أن يضع أصابعه على مقاتلهم، وها هو يشدُّ قبضته على خناقهم ليوردهم الحتوف.

وصيحة العلم والإيمان التي ارتفعت بيننا الآن هي أمل الحياة، فَلِحساب من تغرى أفواج الشباب بالانحلال والتردي، ويحددها كاتب مسلوخ عن الإيمان والعقل لتنسىٰ ربها وشرفها ويومها وغدها!

نحن نعلم أنَّ أوروبا ارتقت في العصور الأخيرة ارتقاءً بعيد المدى، لكنه من أكذب الكذب أن يجيء بعض الكتّاب المصريين ليزعموا أن سبب ارتقائها هو انسلاخها عن مناهج الفطرة ومقتضيات الأدب.

إن أسباب النهوض شيء ومظاهر الانحلال شيء آخر، ولكي تعرف تفاهة كتّابنا وانحدارهم الذهني والنفسي ننقل إليك ما كتبه المؤرخ الإنجليزي الكبير «أرنولد توينبي» لتدرك منه حقيقة ما يتعرض له الكيان الأوروبي من أخطار.

إنَّ الأمراض التي يتعرض لها هذا الكيان المهتز هي هي «الخصائص البراقة»

التي يريد نقلها إلى بلادنا كتّاب تائهون مثل توفيق الحكيم وغيره من ذوي الأسماء والمناصب!

قال توينبي تحت عنوان: «درس من التاريخ للإنسان المعاصر»[١].

لقد فشلت جميع جهودنا لحل مشكلاتنا بوسائل مادية بحتة، وأصبحت مشروعاتنا الجريئة موضع سخرية! إننا ندعي أننا خطونا خطوات كبيرة في استخدام الآلات، وتوفير الأيدي العاملة ولكن إحدى النتائج الغريبة لهذا التقدّم تحميل المرأة فوق طاقتها من العمل، وهذا ما لم نشهده من قبل، فالزوجات في أمريكا لا يستطعن أن ينصرفن إلى أعمال البيت كما يجب.

«إن امرأة اليوم لها عملان: العمل الأول من حيث هي أمٌ وزوجة، والثاني من حيث هي عاملة في الإدارات والمصانع، وقد كانت المرأة الإنجليزية تقوم بهذا العمل الثنائي فلم نؤمل الخير من وراء عملها المرهق، إذ أثبت التاريخ أنَّ عصور الانحطاط هي تلك العصور التي تركت فيها المرأة بيتها.

«في القرن الخامس قبل الميلاد حين وصلت اليونان إلى أوج حضارتها كانت المرأة منصرفة إلى عملها في البيت، وبعد مجيء الإسكندر الكبير وسقوط دولة اليونان كانت هناك حركة نسوية شبيهة بالحركة التي نشهدها اليوم»!

«لقد نسوا الله ــ والكلام لتوينبي ــ حين وضعوا حلولاً لمعالجة الأمراض الاجتماعية انتهت بالأمم إلى علل مستعصية ومآس كبيرة.

إن عصر الآلة أوجد لنا نقصاً لم يسبق له مثيل، نقصاً في المساكن مثلاً، وخلق لنا فترات متناوبة من البطالة، ونقصاً في الأيدي العاملة».

ويقول توينبي: «لقد مشى الإنسان قديماً في الطريق الذي مشى فيه اليوم، ووضع القواعد نفسها لتنظيم السير والمرور، والفرق الوحيد أنَّ الأوائل استخدموا عربات الخيل بدل السيارات، وأنَّ مخالفة تعليمات المرور لم تكن مروعة ومميتة كما هي اليوم.

---

(١) نشر المقال بالإنجليزية في مجلة «الإسلام» الباكستانية، وترجمته إلى العربية مجلة «رسالة الإسلام» العراقية، التي تصدر عن كلية أصول الدين ببغداد. والمقال طويل نقلنا منه نُبذاً.

إنَّ التقدّم الفني والصناعي ليس بحد ذاته دليل الحكمة، أو ضمان البقاء، وإن الحضارات التي انبهرت وقنعت بمهارتها الآلية إنما كانت تخطو خطوة نحو الانتحار!

إن أحد مصادر الخطر على عصرنا الحاضر هو أننا تربينا على عبادة الوطن وعبادة الراية وعبادة التاريخ الماضي ــ العنصري ــ ويجب على الإنسان أن يعبد الله وحده، وأن يتمسك بالقانون الإلَهي في تكامل الفرد والمجتمع، وأنَّ فشلنا لمحتم عندما نحيد عنه ــ هكذا يقول توينبي ــ.

ومن عباراته في هذا المقال: لقد أقنعتني دراستي لإحدى وعشرين حضارة: أن الثقافة الخلّاقة هي فقط الثقافة الصحيحة، تلك التي تتمكن من حل المشكلات المستجدة في الظروف المختلفة.

إنَّ التقدم العلمي الحديث قد حل مشكلاتنا الصناعية بجدارة.

ولكن مشكلات العصر ليست من ذلك النوع الذي يحل في المختبرات، إنها مشكلات معنوية، ولا علاقة للعلم بالقضايا المعنوية».

ــ يعني أن الأمر في هذه الأحوال لمنطق الإيمان ــ ولذلك يقول:

«قد يبدو هذا غريباً ولكن المدنيات الكبيرة بلغت نضجها وضمنت تكاملها بالتغيير الروحي»!

نقول: إنَّ المؤرخ الأوروبي الغيور على حضارته يلمح أسباب اعتلالها ويصف الدواء بحذق، أما الصحافي المصري فهو يذهب إلى مسرح عابث فيصفه بإعجاب، ويتذكر أنَّ مصر والهند كانتا قديماً تقيم التماثيل لأعضاء التناسل!!

أيُّ فكر هذا؟ وكيف تتداعى المعاني المثيرة على هذا النحو في ذهن أديب لتنشرها صحيفة كبرى؟

ومتى؟ في أيام استعداد العرب لجولة أخرى مع اليهود يحررون بها أرضهم ويدركون ثأرهم!

ما ننتظر غير هذا من أقلام شبَّت على العبث وشاخت فيه.. بَيْد أننا نلفت الشباب المسلم إلى حقائق قد تغيب عن ذهنه في غمرة الأحداث.

إنَّ أعيننا ترمق قوماً يكرهون الإسلام من أعماق قلوبهم، ويتحينون الفرص للتنفيس عن ضغنهم بوسيلة أو أخرى.

وهؤلاء يغضبون عندما ننتسب ـ مجرد انتساب ـ إلى الإسلام، ولا يتحركون أية حركة إذا تعصّب المتعصبون لأية نحلة أخرى على ظهر الأرض.

على الشبابِ المسلم أن يرمق هؤلاء بحذر، وأن يدرك ما في خباياهم من سواد.

في يوم ما جاء إلى صحن الأزهر وفد يجمع بين جان بول سارتر، وسيمون دي بوفوار، ولويس عوض، وتوفيق لحكيم، وآخرين لا أذكرهم.

كان فيلسوفُ الوجودية وعشيقته مدعوين لزيارة القاهرة وإلقاء محاضرات بها.

من الذي استقدم إلى عاصمة العروبة والإسلام هذا الفرنسي الكفور ليلقي فيها بذور انحلاله؟!

لا يهم أن نعرف الأشخاص، وإنما المهم أنْ نحذر النيات المبيّتة، وأنْ نتقي التوجيهات المسمومة، وأن نتبيّن الدائرة الواسعة التي يعمل فيها عدونا، لهدم عقائدنا ودكِّ حصوننا فإن هؤلاء الأعداء كثيرون ﴿ولو نشاء لأريناكهم فَلَعَرَفْتَهم بسِيماهم﴾

* * *

حول خرافة تحديد النسل

قرأت مقالا عن «الانفجار السكاني وإمكانات التحكم» نشرته صحيفة الأهرام يوم الجمعة ٢/١/١٩٧٠م ولا أكون مغالياً إذا وصفت هذا المقال بأنه صائبُ الفكرة عميقُ النظرة مملوء بالحقائق الجديرة بالاحترام.

ولقد لفتُّ عدداً من الدعاة المسلمين وعلماء الدين إلى هذا المقال لأنه يصور في نظري عودة أفكار سبق أن كتبتها ووقفت عندها، ورأى جمهور المسلمين أنها التعبير الحق عن أحكام دينهم ونهج حياتهم وإن كان البعض قد مارىٰ فيها مراءً يعلم الله بواعثه!

والكاتب بعد مقدمات جيدة حول مشكلة النسل يقول:

إن تفسير الزيادة السكانية بغير التخلف الاقتصادي، أو رد هذه الزيادة إلى عوامل أخرى:

مثل غلبة الغريزة الجنسية، أو وجود الأديان المحبذة للتناسل، أو عدم المبالاة بالرقي. يدخل في باب التضليل العلمي!

وقد استخلص هذه النتيجة الصادقة من جملة ملاحظات علمية واجتماعية جديرة بالتأييد الحار.

ويعجبني أنه استهجن صيحات التشاؤم المفتعلة التي تخصص في إرسالها بين الحين والحين نفرٌ من مقلدي الأساليب الأمريكانية في الإحصاء الجزئي والحكم العام، وهي أساليب تخدم سياسةً معينة من البيانات والبلاغات التي يتبرع بها نفرٌ من نجوم الرأي الأمريكيين يزعمون فيها أنَّ العالم قد بلغ في مسيرته نحو كارثة «اللاعودة».

بسبب الزيادة المفرطة في سكانه، تلك الزيادة التي نشأت من أنَّ أقطار العالم الثالث ــ الذي يضم عشرات من الدول النامية أو بتعبير آخر عشرات من الدول المتخلفة ــ لم تكبح جماح شهواتها الجنسية، ولم تستجب لدعوة المندوب الأمريكي إلى «تخطيط» أو تحديد النسل الذي رأى سيادته أنه الطريق الوحيد لحسم المشكلة السكانية.

بل لم يستح نفرٌ من قادة الرأي في الولايات المتحدة أن ينادوا جهراً بضرورة استخدام القسر في الحد من هذا التفوق العددي للمراتب السفلى من البشر(!) بالقدر الذي يمنع دفع المراتب الأعلى إلى الخلف!

ولما كانت نسبة الأولاد تكاد تكون ثابتة من عشرات السنين فإن الزيادة المحذورة نشأت للأسف من قلة الوفيات بسبب ارتفاع المستوى الصحي في أرجاء العالم.

والحل؟ إنه عند أرباب الثقافة الغربية الرفيعة عدم مقاومة العلل بين شعوب لا تجد الأكل، وترك الأمراض تفتك بهذه الأجيال الوافدة فإنَّ إقحام طوفان من الأطفال الجياع على اقتصاد مضطرب يهدِّد بكارثة؟

لكن كيف يوصف هذا التصرف؟

إنه تصرف «إنساني» عادي(!) لأنه يساعد الطبيعة على انتخاب الأصلح وإبقاء الأقوى!

بل إن هذا التصرف يتفق مع أرقى ثمرات الفكر الإنساني، ألم يقل أفلاطون في جمهوريته الفاضلة إنه يجب قتل كل طفل يزيد عن العدد الضروري؟ ونحن قد وصلنا بالفعل إلى ما يزيد عن العدد الضروري.

ويستتبع الفكر الغربي أحكامه على الأمور، فيقول الدكتور «هوايت ستيفنز» أحد خبراء علم الاجتماع: إنَّ يوم القيامة سيوافق ٢٠٢٦/١١/١٣ لأنَّ المجاعة العالمية في هذا اليوم ستقضي على الجميع، هكذا يقول الدكتور الألمعي بعد حساب وفق قواعد علم الاجتماع لا قواعد علم التنجيم!

وبناءً على هذا الهوس الإحصائي يدعو الأمريكيون إلى التعقيم الإجباري، وإلى فرض نظام صارم لتحديد النسل، وإلى دعوة الأمم المتحدة إلى إجراءٍ ما كي ينخفض عدد الأولاد بين العرب والزنوج والهنود وأشباههم، وهم سواد العالم الثالث.

ويلاحظ الأستاذ كمال السيد ــ كاتب المقال ــ أموراً ذات بال منها أنَّ الولايات المتحدة تنفق ٧٠ ألف مليون دولار على معدات القتال وأن شركاتها المحتكرة تعامل شعوب العالم الثالث بنَهَمٍ مستغرب لا مكان معه للرحمة بهؤلاء الجياع المساكين.

ويقول: وهناك صيغةٌ شائعة في أمريكا الجنوبية فحواها:

أنَّ خمسةً من سكانها يموتون جوعاً كلَّ دقيقة، في حين أنَّ الشركات الأمريكية العاملة بها تكسب خمسة آلاف دولار كل دقيقة أي ألف دولار من كل ميت.. !

ومع شعورنا بأنَّ الكاتب يساري النزعة إلاَّ أننا نعرف أنَّ المساعدات الأمريكية مغشوشة النية، سيئة الهدف، فقد توزع على الأطفال مقادير من الألبان والجبن، ولكنها تفرض على بيئتهم قيود الفقر الأبدي إلى هذا النوع من المساعدات.

وبرامج النقطة الرابعة توزع المواد الاستهلاكية وحسب على الأمم المتخلفة وتمتنع امتناعاً غريباً عن تصنيع البيئة وإعانتها على أن تخدم نفسها بنفسها، وتستغل مواردها الوطنية بقدراتها الخاصة!

كأن شعوب هذا العالم الثالث ــ كما تسمى ــ ينبغي أن تظل مشلولةَ المواهب مكشوفةَ العجز، لا تستطيع الانتفاع بما لديها من خيرات.

وعليها ــ بعد ــ أن تسمع الحكم بأنَّ التعقيم الإجباري واجب، وأنَّ تحديد

النسل فريضة وإلاَّ قامت القيامة بعد كذا من السنين!

ويتلقى هذا الكلام بعض قصار العقل فيطيرون به هنا وهناك ينذروننا بالويل والثبور وعظائم الأمور، فإذا حاولنا التفاهم معهم قالوا: إنكم رجعيون تائهون عن مقررات علم الاجتماع، وأخطار يوم القيامة الذي سيجيء حتماً من زيادة السكان!

ولنتناول الآن صميم المشكلة. هل حقاً أن بلاد العالم الثالث لا تكفي حاجات أهلها وبالتالي لا تتسع لمزيد من الأفواه التي تطلب القوت، والأجساد التي تطلب الكسوة؟

تلك هي الأكذوبة الكبرى التي يضخِّم الاستعمار صداها ويزعج الدنيا بطنينها!

إنَّ أقطار العالم الثالث مشحونة بخيرات تكفي أضعاف سكانه، بيد أن هذه الخيرات تتطلب العقول البصيرة والأيدي القديرة.

ولو رُزِقت هذه الأقطار المنكودة إنسانيةً نزيهة تستهدف إيقاظ المَلكات الغافية والحواس المخدّرة، وتطارد الخمولَ والوهنَ وتجنِّد القدرات والخيرات، وتمنع التظالمَ والترفَ، وتضرب سياجاً منيعاً حول مصالح الشعوب يرد عنها غوائلَ الاستعمار بجميع أنواعه لكانت هذه الشعوب تحيا في رغد من العيش تحسدها أقطار الغرب عليه.

ليست المشكلة اقتصادية كما يزعم الخبثاء من المستعمرين، ومقلدوهم من الصيَّاحين الذين يهرفون بما لا يعرفون.

الفقر فقر أخلاق ومواهب لا فقر أرزاق وإمكانيات!

- لماذا يكون المولود القادم أكّالاً لا شغّالاً، مستهلكاً لا منتجاً، عبثاً على الحياة لا عوناً على الحياة؟

- لماذا تهوّن الإنسانية في شأن هذه الأجيال الوافدة فيكون وجودها مبعث قلق لا مثار استبشار.

إن الجهود المادية والمعنوية التي يبذلها المتشائمون لقتل هذه الأنفس، أو للحيلولة دون وجودها لو بذلت في تصحيح الأخطاء الاجتماعية وتقويم الانحرافات العقلية لكانت أقرب إلى الرشد وأدنى إلى الغاية!

ولكن الاستعمار الأناني الشَّره يريد التهام كل شيء لنفسه وحده، بل الأنكى من ذلك أنه يعترض طريقَ كل نهضة تصحّح الأوضاع كي تبقى الأمور كما هي ويبقى منطقه السقيم في علاج الأمور.

على أنَّ تخلّف العالم الثالث ليس علةً أزليَّة ولا أبدية فقد كان الأوروبيون والأمريكيون أسوأ حالاً منذ قرون تعد على الأصابع، وكانت الخرافة تفتك بعقولهم فتك الأدران والعلل بأجسامهم، فإذا صعدوا في سلّم الترقي، وهبط غيرهم بعد رفعة أو بدأ لأول مرة يخطو على درب المدنية فلا معنى للاحتيال عليه والتشفي منه.

﴿كذلكَ كُنْتُم مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَليكُم﴾.

والأمر لا يستدعي أكثر من تغيير الظروف المؤثِّرة في أحوال المجتمعات فهناك مكان ينبت العز ــ كما يقول المتنبي ــ ومكان ينبت الذل. وهناك آخر يوقظ العقل أو ينيمه.

والمعتوهون الذين يصرخون جزعين: قفوا نسل الأرانب حتى لا تقوم الساعة، أو حتى ترقى الأمة.

لا يعلمون أنَّ العالم الثالث لن يرقى ولو فقد تسعة أعشار عدده ما بقيت ظروفه النفسية والفكرية جامدةً على أوضاعها الحالية.

ونعود مع كاتب الأهرام لنبصر الواقع حيث يقول:

«إنَّ موارد العالم، خصوصاً موارد البلاد المتخلفة ما زالت تفوق كثيراً زيادة أعداد السكان، فالفائض الاقتصادي المحتمل يمكن تحويله إلى ضروب من النشاط المنتج بدلاً من أن يذهب إلى جيوب المرابين والوسطاء وملّاك الأرض، أو يتبدَّد في وجوه السرف المختلفة.

وهذا الفائض هو ما يعرّفه الاقتصاديون بأنه الفرق بين الإنتاج في ظروفه الطبيعية، وبين ما يعد استهلاكه ضرورياً للجماعة المنتجة، ويقدّر هذا الفرق بنحو ٢٠ ٪ من الإنتاج القومي، وهو يكفل عند استثماره زيادة سنوية في الدخل تبلغ ٨ ٪، وهذه الزيادة تكفي، بل تفيض عن متطلبات الزيادة السكانية».

الفقر الواقع أو المتوقّع لا يعود إذن إلى علل طبيعية، بل إلى سوء تصرف

واضطراب إدارة، أو كما يقول الاقتصادي الأمريكي المشهور «بول باران»: إننا يجب أن ندق ناقوس الخطر لا لأنَّ القوانين الأبدية في الطبيعة قد جعلت من المستحيل إطعامَ سكان الأرض، بل لأنَّ النظام الاقتصادي الاستعماري يحكم على جموع كثيفة من الناس ـ لم يسمع بضخامتها من قبل ـ أن تعيش في كنف الفاقة والتدهور والموت قبل الأوان. ! ثم أنهى الكاتب كلمته قائلاً: «إنه لا حل لمشكلات التخلّف ومن بينها ضغط السكان على الموارد إلَّا بتنمية بلدان العالم الثالث لثرواتها، ومضاعفة اعتمادها على نفسها. . ثم على القدر الميسور من المعونات الأجنبية المنزهة».

لقد قررت هذه الأحكام تقريباً في كتابي «من هنا نعلم» المطبوع من ربع قرن، ولذلك فقد آنشرح صدري عندما قرأت هذه الأيام ما يزيد الحق وضوحاً. .

وما يبدد ضباباً كثيراً نشره في أفق الحياة العامة أقوام قصار الباع طوال الألسنة، وإني ـ إذ أؤكّد المعاني الآنفة ـ أوجِّه كلمةً إلى نفر من المتحدثين باسم الإسلام أساؤوا إلى حقائقه مراراً وهزموه في مواطن كثيرة. .

إنَّ الإسلام ليس هو بالدين المحلي لأهل الوجهين البحري والقبلي، إنه دين القارات الخمس! وداره الرحبة الخصبة تمزج بين أجناس كل هذه القارات في أخوةٍ جامعة لا تعرف الحدودَ الضيِّقة المفتعلة التي صنعها الاستعمار، فكيف يعالجون مشكلة السكان وهم لا يدركون هذا الأساس المبين؟

ثم إنَّ هذا الدين يتعرّض لحرب إبادة في هذه الأيام من تحالف الصهيونية والاستعمار، فكيف تصدر الأوامر من رؤساء الأديان بتكثير الأتباع، ومباركة النسل، ويفتون هم بالتعقيم والتقليل؟

إنني لا أدري عِلَّة هذا الزيغ؟ أهي قلّة العلم أم ليونة الضمير؟

وتحذير آخر إلى هؤلاء: إنَّ أحدهم يقع على الكلمة منسوبة إلى عمرو بن العاص أو غيره من الرجال فيطير بها غير آبهٍ بقيمة سندها ولا مكترث بأنها ملتقطة من كتب تجمع الجدَّ والهزل والخطأ والصواب؟!

ولو فرضنا جدلاً نسبتها إلى عمرو، فما كلام عمرو بالنسبة إلى كلام الله ورسوله؟

أرجو بعد كلمة الأهرام التي لخصتها في مقالي أن تنتهي هذه المأساة.

* * *

محنة الضمير الديني هناك!

هذه سياحة سريعة داخل أقطار الفكر الديني الغربي. ستفجؤنا أحكام ينقصها السداد، ومؤامرات يحبكها الغدر، وضغائن لا تزال عميقة على طول العهد وامتداد الزمان!

ومن حقنا نحن المسلمين ــ وقد لفحتنا حرب بقاء أو فناء ــ أن ندرس الجبهة التي مَسَّنا عدوانها، وأن نزنَ ببصر حديد طبيعةَ العواطفِ الدينية التي تكمن أو تبرز خلف أحداثٍ لا تبدو لها نهايةٌ قريبة!

ولنبدأ بمقال نشرته مجلة كاثوليكية تطوعت بإسداء نصائحها الغالية لإسرائيل. وليست هذه النصائح الغالية أن يعترف اليهود بحق العرب وأن يعودوا من حيث جاءوا تاركين البلاد لأصحابها. . لا!

إنَّ الضمير الديني عند الصحيفة المتدينة جعلها تسدي نصحاً من لون آخر، لقد قالت لليهود:

إننا احتللنا فلسطين قبلكم، وبقينا فيها سنين عدداً، ثم استطاع المسلمون إخراجنا وتهديم المملكة التي أقمناها ببيت المقدس، وذلك لأغلاط ارتكبناها، وها نحن أولاء نشرح لكم تلك الأغلاط القديمة حتى لا تقعوا فيها مثلنا!

استيفدوا من التجربة الفاشلة كي تبقىٰ لكم فلسطين أبداً ويشرد سكانها الأصلاء فلا يخامرهم أمل العودة!

وشرعت الصحيفة التقيَّة تشرح: لماذا انهزم الصليبيون الأقدمون وتوصي حكام «إسرائيل» بأمور ذات بال، وتحرضهم في نذالة نادرة أن يوسِّعوا الرقعة التي احتلوها، وأن يستقدموا أفواجاً أكثر من يهود العالم، وأن يُحكِموا خطتهم في ضرب العرب ومحو قراهم وإبادة خضرائهم، وبذلك يستقر ملك إسرائيل ويندحر الإسلام والمسلمون.

وهاك أيها القارىء عبارات المقال الذي نشرته مجلة «تابلت» الإنجليزية الكاثوليكية للكاتب (ف. س أندرسون) في العدد الصادر في ١٩٥٧/١٠/٢٦م.

يقول الكاتب المذكور: «إن نظرةً واحدة إلى خارطة حدود إسرائيل الحالية تعيد إلى الذاكرة للفور أوجه الشبه القوية بين تلك الحدود وحدود مملكة الصليبيين التي قامت عقب احتلال القدس ١٠٩٩م.

ونظراً إلى الأعمال العدائية بين إسرائيل وجيرانها نرى من المفيد أن نقارن بين الحالة العسكرية الراهنة وبين مثيلاتها في أيام الصليبيين، ولعلّنا نرى ما إذا كان سيتاح لإسرائيل حظ أفضل مما كان للصليبيين القدامى، أم سيلقون مصيرهم؟

إنَّ مملكة الصليبيين لم يكتب لها البقاء إلَّا أمداً قصيراً وقد مكثت ثمانية وثمانين عاماً فقط ثم استردّ المسلمون القدس!

ومع أنَّ المسيحيين نجحوا في الاحتفاظ بقطاع صغير شرقي البحر المتوسط مدة مائة عام أخرى، إلَّا أنهم فشلوا في الدفاع عن عكا أخيراً وأخذوا يغادرون هذه البلاد تحت جنح الظلام عائدين إلى أوروبا.

إنَّ سقوط تلك المملكة كان يعود إلى بضع نقائص ظاهرة، فإذا أريد لإسرائيل أن تعيش مدة أطول فما عليها إلَّا أن تحتاط ضد هذه النقائص.

لقد دخل الصليبيون فلسطين في ظروف ملائمة جداً لهم، تميَّزت بوقوع الفرقة بين المسلمين، وعجزهم عن إقامة جبهة مقاومة موحدة!

وهكذا استطاع المهاجمون أن يهزموا المسلمين بسهولة، دويلةً بعد دويلة، وأن يمكّنوا لأنفسهم في الأقطار التي فتحوها، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر زعيم عسكري مسلم استطاع أن يوحّد المسلمين أمام خصومهم بسرعة، ثم حشد قواهم في معركة حطّين وأصاب الصليبيين بهزيمة ساحقة تقرر على أثرها مصير القدس، بل انحسر بعدها المدّ الصليبي جملة، ودخل صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس التي عجز أعداؤه عن استبقائها أواستعادتها فتركوها يائسين».

يقول الكاتب الكاثوليكي: «كان الصليبيون يستطيعون البقاءَ مدةً أطول في تلك البلاد لو لم يعانوا نقصاً شديداً متواصلاً في الرجال، ولو أنَّهم وسعوا حدود مملكتهم وفق ما تمليه الضرورات العسكرية الماسَّة، لماذا لم تحتلوا دمشق؟ لقد كان احتلال دمشق مفتاح مشكلتهم وضمان بقائهم! وسيظل عدم تقديرهم لهذه الحقيقة لغزاً لنا؟

نعم إنهم بذلوا جهوداً واهيةً لاحتلال تلك المدينة بيد أن محاولاتهم كانت من الضعف بحيث كتب عليها الفشل».

وبدلاً من أن يتابعوا جهودهم لاحتلال دمشق اتجهوا جنوباً واحتلوا العقبة وشرعوا يوجِّهون حملاتهم إلى مصر، مع أن الإشراف على النيل هدفٌ عسير التحقيق!!

وعندما أصبحت للمسلمين اليد العليا في ذلك العهد استطاعوا إجلاء الصليبيين عن العقبة وعن سائر حصونهم في الجنوب، إلَّا أنَّ الكارثة الكبرى جاءت من الشرق فإنَّ معركة حطّين وقعت بالقرب من طبرية عند الزاوية الشمالية الشرقية لمملكة الصليبيين..

ولما كانت دمشق والأرض الممتدة بين الأردن والصحراء السورية ملكاً للمسلمين، فقد استطاعوا أن يتحرّكوا بحرية على ثلاث جبهات حول المملكة الصليبية التي أضحت شبه محصورة... وذلك ما أعجزها عن المقاومة!

يقول الكاتب الحزين لما أصاب أسلافه: «ولو أنَّ الصليبيين اندفعوا قدماً وقطعوا الممر الذي يؤدي إلى الشرق من دمشق لاستطاعوا منع مرور الجيوش والقوات بين سورية ومصر، ولكانت حدودهم الشرقية المستندة إلى الصحراء أكثر أماناً، ولأمكنهم الانتفاع من أساطيلهم البحرية» ثم يستأنف الكاتب الحاقد كلامه فيقول: «لقد أقيمت إسرائيل في وقت كان العرب في الدول المجاورة عاجزين عن القيام بعمل موحّد، ثم بقدر كبير من الجهد والشجاعة استطاع اليهود أن يبلغوا حدودهم الحالية، لكن هذه الحدود تطابق حدود المملكة القديمة للصليبيين. وقد عرفنا مآلَها فما العمل؟

يقول الكاتب محرِّضاً اليهود على مزيد من العدوان: «مرَّة أخرى ما لم تتحرك إسرائيل في الاندفاع نحو دمشق فستبقى للعرب تلك الحرية الخطرة في تنقيل قواهم حول ثلاث جهات من إسرائيل، وفي ذلك ما فيه».

ويستطرد: «قد يكون من العسير سياسياً أن تتحرك إسرائيل لغزو سوريا واحتلال دمشق، لكن الاتجاهات السياسية السورية قد تساعد على تسويغ ذلك، وإن مثل هذه النزهة الحربية(!) ستنطوي على فائدة دائمة لإسرائيل أعظم من الفائدة التي تجنيها من التغلغل في صحراء سيناء».

ويختم الكاتب «نصيحته» لأصدقائه اليهود فيقول: «إنَّ إسرائيل لن تنقصها القوى البشرية فلديها جيشٌ كبير بالإضافة إلى هجرة منظمة من جميع أنحاء العالم تمدها بكل ما تفتقر إليه من طاقات ويجب أن تظل قادرة على وضع جيش قوي في الميدان يَكون دائماً على أهبة الاستعداد».

لو أنَّ كاتب هذا الكلام يهودي قح ما استغرب المرء حرفاً منه!

إنَّ وجه العجب في هذا التوجيه المشحون بالود لإسرائيل والبغض للعرب والمسلمين؛ أن الكاتب مسيحي ينشر أفكاره في مجلة كاثوليكية.

وهو يفكر ويقارن ويقترح كأنَّ القضاء على العروبة والإسلام جزء من عقله الباطن والظاهر، ثم هو لا يشعر بذرة من حياء في إعلان سخائه. إنّ مشاعر البغضاء المضطرمة في جوفه تغريه بالاسترسال والمجازفة دون أي تهيّب، ويحزننا أنَّ هذا الكلام ليس إبداءً لوجهة نظر خاصة، فإنَّ الكاثوليك في أرجاء الأرض انتهزوا فرصة الضعف التي يمر بها الإسلام كيما يحولوها إلى هزيمة طاحنة وفناء أخير.

والروح الذي أملى بكتابة هذا المقال هو نفسه الروح الذي كمن في مقررات المجمع المسكوني الذي عقده بابا روما وصالح فيه اليهود. وأمرَ الكنائس بعده ألا تلعنهم في صلواتها.

وهو الروح الذي جعل «البابا بولس» يزور القدس ويدخل الأرض المحتلة ويتعامل مع سلطات إسرائيل، وهو تصرّف لم يفعله أيّ بابا من مئات السنين!

وللقارىء المسلم أن يسأل: أذلك موقف الكاثوليك وحدهم! أم أنَّ أصابع الاستعمار الغربي قد أفسدت التفكير الديني لدى كثير من المفكرين الغربيين؟!

قرأت كتاباً وجيزاً للمؤلف المصري المنصف الدكتور وليم سليمان وردت به هذه الحقائق نذكرها مع تعليق سريع لا بدّ من إيراده. قال: «في ديسمبر سنة ١٩٦١م عقد مجلس الكنائس العالمي مؤتمره الثالث في نيودلهي، وأصدر قراراً حَدَّد فيه موقفه من اليهود جاء فيه: لا بد من تهيئة التعليم الديني المسيحي وتقريبه للأذهان على وجه يبرىء اليهود من تَبِعات الأحداث التاريخية التي أدَّت لصلب المسيح إذ أنَّ هذه التَّبِعَات تقعَ على عاتق الإنسانية كلها(!)

«وقد صَرَّح الراعي البروتستانتي الأمريكي ل. ج. نبيت الأستاذ بمعهد اللاهوت بنيويورك قائلاً: إنَّ الكنائس مسؤولة بوجه خاص عن العداء للسامية، فقد ظلت تعاليم المسيحية موجّهة عدة قرون ضد اليهود وهو عداء يعدّ من مخلفات الأحقاد الدينية القديمة».

نقول نحن: وما ذنب المسلمين في هذا؟ وهل عرب فلسطين يدفعون ثمن هذا الخطأ الكنسي من وطنهم وكرامتهم وحاضرهم ومستقبلهم؟

ذلك ما يريده مجلس الكنائس العالمي الموقّر! فإنَّ هذا المجلس عقد مؤتمراً في بيروت وزار أعضاؤه مخيمات اللاجئين، ثم قرر أنه ليس هناك حل دائم لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين إلى أن يبتّ في القضية الخاصة بالخلاف بين العرب وإسرائيل.

«وقال المؤتمر «الطيب القلب»: إنَّ ذلك سيشمل خطةً عامة لتعويض اللاجئين سواء عادوا إلى وطنهم أم لم يعودوا، وأنَّ هناك صدقات سوف يأخذها أصحاب الأرض والمطرودين!

«وفي سنة ١٩٦٤م عقد مجلس الكنائس العالمي فصله الدراسي الثالث عشر «بجنيف» وافتتح الجلسة عميد الكلية اللاهوتية بجامعتها فقال لا فضّ فوه: حين تثور مشكلة اليهود فإنَّ الكنيسة لا تستطيع أن تتجاهل ثقل مسؤوليتها العظيمة عن آلامهم، وضياعهم طول تاريخهم، ولذلك فإنَّ أول ما يصدر عنها نحوهم هو طلب المغفرة..».

يجب على الكنيسة أن تطلب المغفرة من اليهود!! بهذه العبارة الضارعة الذليلة يفتتح مجلس الكنائس العالمي الجلسة التي يحدّد فيها موقفه من دولة إسرائيل..»[1].

ونتساءل نحن مرة أخرى: أإذا أجرم غيرنا وجب علينا نحن القصاص؟

﴿... أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿١٩﴾ ...﴾. [هود: ١٨ ـ ١٩].

---

(١) تاريخ الإرساليات، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٦.

لقد فكّرت في هذا الأمر ملياً! إنَّ حقناً ليس غامضاً حتى يلتمس عذر لمستبيحه!

هل المال اليهودي من وراء هذه الذمم الخربة مهما كانت مناصبها الدينية؟ ربما.

أم أنَّ الضغائن العمياء على الإسلام وأمته سَيَّرت الخطب والمقالات في هذا المجال الفوضوي المكابر الوقح؟ ربما.

لكن الدكتور وليم سليمان في كتابه «الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية» يذكر لنا كلاماً آخر يستحق الدرس والتأمل.

إنه ينقل عن مؤرخ الإرساليات «ستيفن نيل» هذه العبارات من تقرير له: لقد تيقن الرجل الغربي إنَّ سجله الاستعماري حافل بالعار، وأصبح أقل ثقة مما كان في وحدانية الإنجيل المسيحي ونهائيته، وفي حقه ــ أي حق الرجل الغربي ــ أن يفرض على ورثة الأديان العظيمة الأخرى شيئاً قد يثبت في النهاية أنه ليس أكثر من خرافة غربية (a Western myht).

وبدأ في أوساط رجال اللاهوت هجوم صريح على الألوهية بكل مظاهرها في المسيحية! وانتشر تيار فكري يجعل نقطة بدايته «موت الإلّه»(!) وينادي بمسيحية لا دين فيها(!)، وينادي بهذه الأفكار «بنهوفر ويلتمان» والأسقف الإنجليزي «جون روبنسون»[1].

ويخيّل للمراقب من بعيد أنَّ القوم يثورون على الإلّه لأنه تخلّى عنهم وساعد أعداءهم».

ويستطرد الدكتور وليم سليمان فيقول عن الغربيين: «الدين في نظرهم لم تعد له قيمة في ذاته، إنه شيء يمكن الاستفادة منه لتحقيق الأهداف الدنيوية التي ينشدها

---

(١) انظر على سبيل المثال كتاب روبنسون (Houest To God)، الذي طُبع منه في مارس سنة ١٩٦٣م أربع طبعات، وفي أبريل سنة ١٩٦٣م، وفي كل من مايو ويوليو وسبتمبر من نفس العام طبعة، وكانت الطبعة العاشرة في سبتمبر سنة ١٩٦٤م، وقارب عدد النسخ المطبوعة مليون نسخة، وعلّقت عليه مجلة «تايم» في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٤م، و«نيوزويك» في أبريل سنة ١٩٦٦م، ومجلات أمريكية أخرى كثيرة!!

الغرب في شتى أنحاء العالم». وخلاصة هذا الكلام أنَّ المسيحية انتحرت في أوروبا، فأيُّ تديّنٍ هـذا الذي ينخلـع ابتـداءً من الإيمان بـالحـي القيوم، ويعتبـر التعامـل معه منتهياً لأنه تلاشى ومات. . !!

إنَّ ذلـك هو التفسيـر الحقيقي لانضواء رجـال الكهنوت تحت رايـة الاستعمـار، وركضهم الخسيس في خدمة قضاياه. .

وعنـدما تتسابق شتى الكنائس لإرضـاء إسرائيـل وتملّق اليهود، فهـل يدل ذلـك إلَّا على شيء واحد، وهو أنَّ رجال الدين باعوا ضمائرهم للشيطان. . ؟

إنَّ العرب يتعرضون لإبادة عامة، والمتفجرات تنسف منازلهم، وقـد محيت قرى بأكملها من الوجود، والدفاع عن النفس يوصف بأنه إجرام وتمرد.

ووسط هذا الحريق المستعر يبارك ساسة إسرائيل، ويقول رجال الـدين والدنيـا: خلقت إسرائيل لتبقى! فأين منطق الإيمـان بالله واليـوم الآخر في تلك المـداهنة وهـذا الاستخذاء. ظاهر أنَّ القوم قد تحولوا إلى سماسرة وعملاء للاستعمار العالمي.

واعتقادي أنَّ هذه المحنة الرهيبة ستوقظ الإسلام النائم، وإن كان غيري يرىٰ أن المادية المتربِّصة هي الكاسبة من خيانة الغرب لدينه ومثله.

ولا شكَّ أنَّ المستقبل محفوفٌ بأخطار شِدَاد، بَيْد أننا لن نفقـد توازننـا، ولا ثقتنا في أصالتنا الدينية، ولا آمالنا في جنب الله.

واعتقادي كذلك أنَّ الاستعمار سيفشل في محاولاته الدائبة لجرِّ الكنائس الشرقية إلى جـانبه، وإشـراكها في مـآسيه، وإذا كـان قد ضلَّل البعض، فـإنَّ الجمهرة الغـالبة ستبقى على وفائها لتعاليمها ومواطنيها وتاريخها الصبور.

هذه المقررات لا نريد أن تنسى

أرسلت بصـري وراء طلاب بعض المـدارس وهم منصرفـون إلى بيـوتهم، كـان الصخب شـديداً، والتـدافـع ظاهـراً، والتصايـح بـالكلمات النـابية مسمـوعـاً! لم تكن بالشارع أثارة من علم أو دلالة على جد ورشد!

ولست أستكثـر على الصبية فـرح الانطلاق والأوبـة إلى الأصـل، ولست أجهـل طبيعة المرح في مقتبل العمر وخفة التكاليف!

ولكني لم أسترح للطيش البادي والمزح السخيف والألفاظ الماجنة.

إذا كنا نريد إعداد جيل صاعد فالأمر يتطلب سيرة وسريرة غير ما أرى.

لقد عرفت كثيراً من البرامج العلمية التي تدرَّس، ولا أزعم أنها قليلة، بل أشعر أنَّ استيعابها أساس صالح لخلق شعب مثقَّف.

واطّلعت على أغلب المقررات الدينية، وقد تكون أقل مما يجب درسه. ومع ذلك فهي لو تمَّ فقهها وتحصيلها أساسٌ حسن لتكوين جيل مؤمن مهذب.

إذن من أين تجيء الشكوى؟ وما مصدر ما ذكرت من معايب؟

إنَّ المادة العلمية شيء، وأسلوب تقديمها وتلقيها شيء آخر.

إنَّ هذا الأسلوب يرتبط برسالة الأمة، وضرورة تربية النشء على اعتناقها واحترامها.

ومن هنا فالتعليم المنفصل عن التربية جهدٌ ضائع، أو جهد تافه النتائج.

وأذكر أن الدكتور «حلمي مراد» وزير التربية الأسبق كان قد ألَّف لجنة لعلاج هذا الوضع.

وأشهد أن الرجل كان حاد البصيرة عميقَ الإخلاص، راغباً في إنشاء جيل أفضل وأقدر على مواجهة غده الثقيل.

ولقد انقسمت اللجنة المؤلفة إلى لجان شتى بذل أعضاؤها جهودهم في أداء الواجبات المنوطة بهم[1].

واخترت لنفسي أن أكون في اللجنة المعنية «بالجو الذي يسود المدرسة»، لأنَّ التربية المدرسية في نظري هي الدعامة الأولى للإفادة من العلم المبذول كما أنها الدعامة الأولى لإمداد أمتنا برجال ذوي معادن صلبة ومواهب راجحة وفضائل بارزة.

---

(١) ألَّف الدكتور «حلمي مراد» وزير التربية والتعليم الأسبق لجنة لدعم النواحي الدينية في التعليم العام، وإصلاح مقرراته بما يعين على إنشاء جيل مسلم، وقد أخرج الدكتور من الوزارة(!!) بعد أن أدت اللجنة واجبها، فاستنقذنا هذه المقررات لإحدى الشعب التي اختصت بالجو المدرسي.

وقد انتهت اللجنة الموقرة إلى توصيات كثيرة، أستبيح لنفسي ذكرها آملاً أن ينفع الله بها، وأن تأخذ طريقها إلى الهواء والضياء!!

قالت اللجنة: «لا نستطيع أن نربي الطالب تربيةً دينيةً كاملة إلّا إذا هيَّأنا له جواً روحياً في مدرسته وفي بيته ليكون هذا المناخ الديني من وسائل التعلق بهذه القيم والانتفاع بها، وبهذا تتلاقى المعارف الدينية التي تلقاها من مدرسه ومن كتابه بالجو المصبوغ بالصبغة الدينية النقية، فتتحول المعرفة النظرية إلى سلوك ديني كما تتحول البذور في الجو الملائم إلى زهور وثمر». وبذلك يمكن تثبيت العقائد وإلف العبادات، وتزكية الأخلاق، وتكوين جيل نزّاع إلى الحق والخير متعاون على البر والتقوى.

ويتهيأ هذا الجو الديني المدرسي المنشود بما يأتي:

١ ــ يبدأ اليوم الدراسي بتلاوة من آيات الذكر الحكيم مجوّدة، أو مرتّلة لتشيع في الجو المدرسي أنسام الطهر الروحي.

٢ ــ تدور كلمة الصباح بالإذاعة بين ثلاث دقائق وخمس دقائق حول ما سمعه التلاميذ من الآيات المقروءة، وما تفرضه المناسبات الدينية، وما ترشد إليه من فضائل سامية في كلمات موجزة موحية.

٣ ــ أن تكون دروس التربية الدينية في الحصص الثلاث الأولى، ليشعر الطلاب بما للدين من قيمة عليا بين المواد الدراسية، وليكون التلميذ في ذروة النشاط الفكري فيعي ما يسمع ويقر في نفسه.

٤ ــ أن تذاع الأناشيد الدينية، أو قصة دينية قصيرة في الفسحة الأولى، من اليوم المدرسي.

٥ ــ أن ينظم الجدول المدرسي فيتلاقى ابتداء فسحة الظهيرة مع حلول وقت الظهر وينادى للصلاة، ثم يدعى إليها بكلمات تحمِّس الطلاب لأداء الفريضة.

٦ ــ أن يخرج مدرسو اللغة العربية والتربية الدينية، ومعهم إدارة المدرسة، ومن شاء من المدرسين الآخرين أمام التلاميذ، ثم يتجهوا إلى المصلى ليكون هذا العمل الجماعي إشعاراً ملموساً بالاهتمام بإقامة الشعيرة في وقتها.

٧ ــ أن يكون لكل مدرسة مجموعة من الروَّاد الدينيين يتناسب مع عدد الفصول والطلاب، وهم الراعون لتلاميذهم يوجهونهم إلى مرشدهم ويؤمّونهم في صلاتهم، وينظمون إقامة الشعيرة بجدول مخطط له حتى يؤدي الصلاة أكبر عدد من الطلّاب، وعليهم أيضاً أن يعدوا تقريراً شهرياً عن سلوك كل تلميذ من تلاميذهم، ويرسل التقرير إلى ولي أمره ليحسّ البيت برعاية المدرسة للدين فيعينها عليها.

٨ ــ أن يُخصَّص يومان في الأسبوع من فسحة الظهر تدور فيها مناقشات دينية مطبوعة متصلة بحياة التلاميذ ولا تستغرق من وقت الفسحة زمناً طويلاً حتى لا يضيق التلاميذ بها.

وفي الأيام الأخرى تذاع مسرحيات دينية قصيرة تتصل بمنهجهم الدراسي ما أمكن ذلك.

٩ ــ أن تتجدد جماعات النشاط الديني فتكون هناك جماعة للمسرح الإسلامي، وغيرها للصحافة الإسلامية وأخرى للتاريخ الإسلامي... بجانب الجماعات التقليدية كجماعة البر والإمامة وغيرهما.

١٠ ــ أن يكون العاملون في الميدان المدرسي قدوة حسنة تَتَّسم بالإيمان والسلوك الحميد الذي ينعكس على تلاميذهم إيماناً وإخلاصاً وسلوكاً قويماً.

١١ ــ أن نجعل من بعض أيام الجمعة فرصةً لالتقاء التلاميذ بأساتذتهم وأولياء أمورهم في مُصَلَّى المدرسة حيث تلقى عليهم دروس دينية حَيَّة تناقش أفكارهم على سعة لتتيح اشتراك أولياء الأمور في هذه المناقشة، مما يساعد على نقاء الجو المنزلي ويوثق الروابط بين البيت والمدرسة.

١٢ ــ أن تدور أسئلة التطبيق الديني الأسبوعي والاختبارات الشهرية والفترية حول الموضوعات التي تثار في الندوات واللقاءات الدينية لتشد انتباه التلاميذ إليها.

١٣ ــ محاسبة المدرِّسين الذين يستهينون بدروس التربية الدينية فيستبدلون بها حصص المواد الأخرى.

١٤ ــ تقسيم طلاب المدرسة إلى أسر إسلامية، وتسمَّى كل أسرة باسم شخصية إسلامية كبرى على أن يكون تلاميذ كل أسرة على علم وثيق بمن انتمت إليه أسرتهم على أن تتبادل هذه الأسر المناشط الدينية، وتثار بينهم المنافسات الكريمة في الجهاد

الديني، على أن يدعى أولياء الأمور لاجتماعات شهرية لهذه الأسر ليسهموا بجهودهم في هذا المجال.

١٥ ــ استخدام القيادات المؤمنة من الطلاب في جذب زملائهم إلى الإطار الذي ترسمه المدرسة ليتحرك بنوها في حدوده، فإنَّ تأثير الطالب على زملائه أعمقُ من تأثير الأساتذة عليه.

١٦ ــ وضع صندوق في فناء المدرسة تجمع فيه التساؤلات الحرة للطلاب للرد عليها من جماعة الفتوى بالمدرسة.

١٧ ــ أن يعنى بالاحتفال بالمناسبات الدينية احتفالاً مخططاً له لتكوّن صورةً متكاملة تطبع في نفوس الطلاب الإجلال لهذه المناسبة ويجعل الهدف من إحيائها ربط الطلاب بشعائر الإسلام ومبادئه، فينبني الاحتفال على أن تعرض مكتبة المدرسة في ركن خاص كل ما لديها من تواليف دينية أُعِدَّت لهذه المناسبة الإسلامية، كما تقوم بندوات وأناشيد دينية ومسرحيات وأشرطة إسلامية.

١٨ ــ أن تزيّن جدران المصلى والمدرسة بلافتات تجذب الأنظار بجمال إخراجها وحسن اختيار مايسطّر عليها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم البالغة والعظات الدينية الموجّهة.

١٩ ــ الاهتمام باختيار شعار للمدرسة من الآيات والأحاديث، ويدرس الطلاب والطوالب بشتى الوسائل على الالتزام بما في هذه الشعارات من قيم ومفاهيم، ويمكن أن يختار لمدارس البنات الشعار الذي يدعو إلى البعد عن التبرج والتمسك بأهداب الفضيلة والاحتشام في الملبس والمظهر.

٢٠ ــ أن يكون للتربية الدينية ركن في المكتبة العامة وفي مكتبات الفصول، ويزوّد هذا الركن بخير ما تخرجه المطابع من الكتب الدينية الحديثة التي تربط بين الدين والحياة، وبين الدين والعلم، وتناسب كل مرحلة من المراحل الدراسية.

٢١ ــ أن يكون للمصحف الشريف مكان الصدارة في المكتبة العامة ومكتبات الفصول ومكتبة المصلى.

٢٢ ــ العناية بالوسائل المعينة التي تساعد التلاميذ على فهم أبواب المنهج الديني، وتشوِّقهم إليه، وتؤكد مفاهيمه في نفوسهم. على أن يشترك الطلاب في إعدادها.

٢٣ ــ أن يكون بيد الطلاب فيما يقرر لهم من الكتب كتاب ذو موضوع واحد يصوّر بعض البطولات الإسلامية والمعارك الإسلامية وأمجاد الإسلام العسكرية والعلمية لتكون مثلاً علياً أمام الطلاب.

٢٤ ــ ينتفع بمجلس الآباء في دراسة وإنقاذ كل ما يَجُد من مشكلات في سلوك الطلاب وعلاقتهم بالمدرسة وتصرفاتهم الخارجية.

٢٥ ــ أن يَحرَص الزائرون الرسميون للمدرسة على الصلاة أمام التلاميذ ومعهم ليترجموا عن العناية والاهتمام بأمر الدين فتنصرف هذه العناية إلى التلاميذ.

٢٦ ــ أن نستعين ببعض أولياء الأمور وغيرهم من المثقفين ثقافة دينية واعية، في إلقاء بعض المحاضرات أو الدروس الدينية ليكونوا من أدوات التأثير، وعوامل الاستجابة من الطلاب، مع الاهتمام بما يدور بين الطلبة من تيارات ونزعات قد تنحرف بالعقيدة والوجدان الديني.

٢٧ ــ التزام الحشمة والوقار في الزي بمدارس البنات بين المدرسات والطالبات.

٢٨ ــ أن تعد المدرسة معرضاً دينياً ينظم كل ما أنتجه الطلاب من وسائل تعليمية دينية كصور المصلحين الإسلاميين، ومناسك الحج، والمعارك والغزوات، مع بعض البحوث الدينية التي أعدها الطلاب بإشراف رائدهم، وفي هذا تجسيد للقيم الروحية التي ننشدها لإعداد الجيل الجديد.

٢٩ ــ إذا أمكن وصل النشاط الطلابي بالجماعات الإسلامية القائمة في البلاد كان ذلك حسناً على أن يتم تحت إشراف المدرسة.

٣٠ ــ يوضع اليوم الدراسي في إطار يحدد أوله ونهايته تحديداً متصلاً بالدين فلا يدخل التلاميذ فصولهم فرادى، ولا ينصرفون منها فرادى، ولكن يجمعون في صفوف قبل الدراسة والانصراف ليرددوا أناشيد دينية وقومية ذات معنى روحي وخلقي.

٣١ ــ أن تقوم المدرسة ببعض الرحلات الدينية التي يزور فيها الطلاب المساجد الكبرى، والمتاحف الإسلامية والآثار والمعالم الدينية والتاريخية والمناطق السياحية الدينية، مما يوحي إليهم بأصالة ماضيهم الإسلامي وحضاراتهم المجيدة التي كانت مصدر إشعاع للعالم.

٣٢ ــ أن يكون في كل مركز صيفي للخدمة الاجتماعية بالمدارس، وكذلك

بالمصايف والمعسكرات مثقف ديني يشرف على سلوك الطلاب ويزوّدهم بما يقوّم سلوكهم ويهذّب أخلاقهم، كما نرجو أن يعنى المركز أو المصيف أو المعسكر بعرض المناشط الدينية المحببة كالأناشيد والقصص والمسرحيات والأنشطة الإسلامية.

٣٣ ـ تفتح أبواب بعض المدارس في كل حي من الأحياء في جميع المدن بجمهورية مصر العربية تحت إشراف مسؤولين وذلك لتحفيظ القرآن الكريم في مدة العطلة الصيفية، وأن تُخصَّص مكافآت مغرية لمن يحفظ جزءاً من القرآن، وكلما زاد عدد الأجزاء من القرآن زادت المكافآت.

الحوافز:

٣٤ ـ خلق الحوافز بين الطلاب المتميزين دينياً من مثل إعفائهم من بعض الرسوم المدرسية أو رسوم الرحلات أو غير ذلك.

٣٥ ـ أن ترصد نسبة مجزية من حصيلة مجلس الآباء لتأثيث المصلى، وإثابة المجيدين، والمسابقات الدينية، وإعانة المحتاجين من الطلاب.

٣٦ ـ أن ترصد المناطق التعليمية مكافآت مالية سخية للطالب المثالي في السلوك الديني القويم، ليحفز ذلك غيرهم إلى أن ينهجوا نهجهم ويسلكوا سلوكهم.

٣٧ ـ إعداد لوحات شرف للممتازين في تحصيلهم الديني وسلوكهم المستقيم، ولمن يقوم بأعمال في البر تستلزم التنويه بها والإشادة بمن قاموا عليها.

٣٨ ـ إعداد شهادات تقديرية للطالبة أو الطالب الذي ينماز بالتحصيل الديني ويسهم في أنشطته ويتمسك بحبل الفضائل على أن ترسل هذه الشهادات إلى ذويهم لتبعث فيهم الحماسة للتربية الدينية في المنزل، وليحرص البيت على النماء الروحي لهؤلاء الأبناء.

وبعد:

٣٩ ـ كل ما قدَّمناه إنما يدعم بالأجهزة الإعلامية الطاهرة النقية، أما إذا بقي الحال على ما هو عليه في الصحافة والإذاعة والتليفزيون وغيرها من وسائل الإعلام فالجهد ضائع، لأنَّ ما يُبنى هنا تهدمه هذه الوسائل هناك.

والله ولي التوفيق.

* * *

أسئلـة وأجوبـة[1]

● **السؤال الأول**: «المرحلة القائمة في العالم الإسـلامي هل تبشِّـر بالخيـر وتثير التفاؤل، أم أنها على النقيض نذير سوء ولا خير من ورائها؟»

الجواب: العالم الإسلامي اليوم في فترة كئيبة من تاريخه الطويل، فترة فقد فيها وحـدته، ونسي رسـالته، وألمَّت بـه إغفاءة كبـرى جعلته يتـدحـرج في مؤخـرة الـركب الإنساني ضعيف الوعي والحركة يطمـع فيه العدو ويأسى له الصديق.

وهذه حالة منكورة يستحيل قبولها أو ارتقاب خير من ورائها.

ولقـد قلت في كتاب لي ـ لمـا يظهـر بعد ـ مـا أظنه إجـابـة شـافيـة على هـذا السـؤال:

الفقـر الحقيقي في الأمة الإسـلامية الكبيـرة هـو هـذا الشلل الغـريب في الهمم والمواهب وهذا التخلف السحيق في مجال الإنتاج والإجادة.

ثم ذلكم العبث بمعنى الإيمـان والنكـوص عن منـطقـة إلى جـانب تعلُّق وضيـع بالشهوات ونهمة بادية إلى الدنيا.

وما نصف خصومهم بأنهم يكرهـون الحياة وملذاتهـا، بيد أنَّ الأمم القـوية تبلـغ ما تهوى بوسائلها الخاصـة، أما الأمم الضعيفـة فهي تلهث وراء غيرهـا تتعلق بركـابهم تعلّق المتسلقين بمركبات النقل أو المتسولين بأذيال السادة.

والنهـوض الحقيقي هـو زوال هـذه العلل وفنـاء جـراثـيمـه، وقـــدرة الأمـة على

---

(١) هذه الأسئلة ـ وغيرها ـ وإن كانت هي الشغل الشاغـل لكثير من الـطلاب، إلَّا أن الذي تقـدَّم بها هم طَلَبة جامعة الإسكندرية.

الاستغناء بعملها وإنتاجها، والاستهداء بإيمانها وفضائلها، والاستعلاء على متاع الدنيا بحيث تأخذ منه بقدر وتنصرف عنه متى تشاء!!

ويؤسفني التصريح بأنَّ الشعوب الإسلامية حتى يومنا هذا لم تبدأ نهضة صحيحة، وأن مظاهر التقدم التي نراها أو نسمع عنها هي امتداد نشاط القوى الكبرى في العالم أكثر مما هي تطلع المتأخرين للتقدم.

فالغرب الصليبي يصطنع شعوباً شتى لخدمة مآربه، ويمدها بكثير من عونه المادي، وقليل من تقدمه الحضاري.

والشرق الشيوعي ينافسه في هذا الميدان، ويحاول الاستفادة من أخطائه، أو يحاول ميراثه إذا انتهى في مكان ما وجمهرة المتعلمين أوزاع، بعضهم يؤثر النمط الغربي في الفكر والسلوك، وآخرون قد أعجبتهم الماركسية فاصطبغوا ظاهراً وباطناً بنزعتها.

أما الذين يتشبثون بالعقائد والفضائل الإسلامية، ويريدون بناء المجتمع الكبير على دعائم الوحي المحمدي فقلة غامضة في الناس، ولا أقول منكورة الوجه، منكودة الحظ.

من أجل ذلك قلت: إنَّ الشعوب الإسلامية لم تبدأ بعد نهضة صحيحة، تكون امتداداً لتاريخها وإبرازاً لشخصيتها، أو نماءً لأصلها، وتثبيتاً لملامحها.

ومن الغلط تصور أني أحرّم الاستفادة من تجارب الآخرين ومعارفهم!

كيف وهؤلاء الآخرون ما تقدموا إلاَّ بما نقلوه عن أسلافنا من فكر وخلق ووعي وتجربة. إنَّ دولة الخلافة الراشدة اقتبست في بناء النظام الإسلامي من مواريث الروم والفرس دون غضاضة.

وعندما آكل أطعمة أجنبية أنا بحاجة إليها، فالجسم الذي نمى هو جسمي، والقوى التي انسابت في أصالة هي قواي.

المهم أن أبقى أنا بمشخصاتي ومقوماتي... المهم أن أبقى وتبقى في كياني جميع المبادىء التي أمثلها، والتي ترتبط بي وأرتبط بها، لأنها رسالتي في الحياة ووظيفتي في الأرض.

هذا هو مقياس النهضة وآية صدقها أو زيفها، فهل في العالم الإسلامي نهضات جادة تجعل الإسلام الحنيف وجهتها، والرسول الكريم أسوتها؟

إننا هنا حريصون أشدَّ الحرص على جعل البناء الجديد ينهض على هاتيك الدعائم.. وإذا كنا نستورد من الخارج ثمرات التقدم الصناعي، وننتفع من خيرات غيرنا في آفاق الحياة العامة، فليكن ذلك في إطار صلب من شرائعنا وشعائرنا.

فإنه لا قيمة لأحدث الآلات إذا تولى إدارتها قلب خرب، ولا قيمة لأفتك الأسلحة إذا حاول الضرب بها فؤاد مستوحش مقطوع عن الله مولع بالشهوات.

إنَّ بناء النفوس والضمائر يسبق بناء المصانع والجيوش وهذا البناء لا يتم إلاَّ وفق تعاليم الإسلام[1].

* * *

● **السؤال الثاني**: هل تعتقد أنَّ قضية فلسطين يمكن أن تُحل سلمياً كما ينادي البعض؟ وإذا كنت تعتقد هذا فما صورته في ذهنك؟ وإذا كان رأيكم أن الحرب هي الأمثل فما صورتها، هل حرب شعوب أم حرب حكومات، وهل تكون عربية أم إسلامية؟

الجواب: لقد قرر اليهود إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وتحوّلت أمانيهم الدينية إلى مخططات مدروسة تنفذ بدقة وصرامة.

فهم باسم التوراة والتلمود جاءوا.

وتحت شعارات من الوحي الذي يقدسونه تحركت مواكبهم من أرجاء الشرق والغرب صوب فلسطين.

وفلسطين عندما قرر اليهود الاستيلاء عليها لم تكن أرضاً خلاءً، بل كانت مسكونة بألوف مؤلفة من العرب، ومعنى تهويد هذه الأرض طرد من عليها من سكان أو إبادتهم وفق تعاليم العهد القديم.

---

(١) من كتاب «حصاد الغرور»، الذي تضمَّن ما ألقاه الكاتب من محاضرات في جمعية الإصلاح الاجتماعي، مع بحوث أخرى. وانظر طبعة دار القلم بدمشق لهذا الكتاب القيِّم.

وقد أعان الاستعمار إعانةً فعّالة على تحقيق هذه الغايات وتقريب بعيدها وتذليل صعابها، وانتهى الأمر في سنة ١٣٦٨ من الهجرة إلى قيام دولة لليهود تحاول البقاء في وجه مقاومة متفرقة من العرب الذين صحوا على أشباح الضياع والذل والخيانة تحيط بهم من كل مكان، فهل يحتاج فهم هذا الموقف إلى ذكاء سطحي أو عميق؟

إنَّ الحرب قد أعلنت بالفعل على العرب، وهدفها المحدَّد إجلاؤهم أو إفناؤهم وإقامة وجود ديني يهودي على أنقاض جنسهم ورسالتهم وكتابهم فأين مكان الإسلام في هذا الوضع؟

إنَّ السلام هنا معناه الاستسلام للذبح، معناه قيام إسرائيل لا داخل حدودها الحالية وحسب!! بل في الإطار الذي رسمته التوراة: من الفرات إلى النيل!!

ومعنى هذا ــ دون كد الذهن أو إعمال الذكاء ــ سحق الوجود العربي الإسلامي في الشرق الأوسط، ثم الإجهاز على أطراف الأمة الإسلامية الكبرى في أفريقيا وآسيا بعد زوال الكيان العربي الأصيل إذ العرب دماغ الإسلام وقلبه! وتلك هي الغاية التي تسعى لها قوى كثيرة وتتجمع لتحقيقها عناصر شريرة.

وإني ألمس وراء التحركات الكثيرة ضد فلسطين وأهلها هذه النيات السود، وتلك الأهداف الرهيبة، وإن أعجب فعجبي للذين يقادون إلى مصارعهم وهم مخدَّرون، وتلطمهم الأحداث وهم غافلون:

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾. [التوبة: ١٢٩].

إنَّ الحرب فُرِضت فرضاً على العرب، فلا خيار لهم بإزائها، ولا مكان للتساؤل عن فرص تجنبها بعدما دارت رحاها على يومنا وغدنا.

ولا معنى لتجنّب الحرب إلاَّ الاستسلام للفناء، والرضا بالتلاشي والانقضاء، وما دام القتال قد كُتب علينا بدوافع دينية وأحقاد تاريخية وأطماع استعمارية، وما دامت غايته إبادتنا فلا بد أن نتلاقى عرباً ومسلمين، حكومات وشعوباً لرد هذه الغائلة واستبقاء وجودنا المهدّد.

إنّ الحرب المعلنة علينا دينية لا يماري في ذلك عاقل، وما دامت العقيدة سلاحاً يرتكز عليه العدوان، فلم لا تكون العقيدة سلاحاً يرتكز عليه الدفاع؟ وما معنى إبعاد الإسلام عن معركة هو فيها مستهْدَف؟ وأمته فيه ضحية اليوم والغد؟

إنني أعتقد في أعماق قلبي أن إبعاد الإسلام عن المعركة لا يخدم إلاَّ اليهود ومَنْ وراءهم من الحاقدين على رسالة محمد وجنسه والقدامى والمحدثين.

وإبعاد الإسلام عن القتال الدائر أنفع لليهود من إمدادهم بألف طائرة من أفتك طراز.

إنه لا يفل الحديد إلاَّ الحديد، ولا يصد عدواناً يعتمد على دين إلاَّ دفاع يستند إلى دين.

* * *

● **السؤال الثالث**: الشيوعية والرأسمالية تتصارعان على اقتسام الأرض فما هو موقفنا ــ كمسلمين ــ من هذا الصراع وما هو رأيك في مستقبل النظامين؟

الجواب: في العالم جبهتان متقدمتان مادياً وعقلياً تتنازعان زمامه وتبغي كلتاهما أن تنفرد بقيادته وتوجيهه.

والمفروض في نظر الكثيرين أن تنتصر إحداهما لبسط سلطانها على العالم أجمع.

ولست في جانب هذا الفرض، بل ما أرجحه أنه ستوجد جبهة ثالثة تقدِّم للعالم نموذجاً أفضل لمجتمع بشري عادل حر مؤمن بالله ورسله لا يطمع في السيطرة على الآخرين، ولكنه يستطيع أن يضيء لهم الطريق.

ولي ملاحظة على العنوان الذي يطلق على العالم الرأسمالي!

إنَّ رأس المال عندما يتكوَّن من حلال طيب، لا من مال منهوب ولا من حيف على الطبقات الكادحة، وعندما يقوم بسد الثغرات الاجتماعية لا بتوسيعها، واحترام الحقوق الأدبية لا إهدارها، إنه في هذه الحالة يصلح أساساً لجماعة إنسانية كريمة، ولكن العالم الرأسمالي الآن يقوم بعمليات خطف كبرى لثروات الشعوب، ويعمل على توسيع الفتوق في الكيان العالمي، ويجتهد في إهدار الكرامة البشرية للملونين،

كما يجتهد في إهدار حقوق الأمم الضعيفة وإبقائها في منزلة التابع المهين.

وعندي أنَّ العالم الشيوعي إنما يمتد مستغلاً أخطاء الرأسمالية في الميادين الاجتماعية والسياسية، وهي أخطاء جسيمة، وهناك كتل من الشعوب التي ضارّها الحرمان والذل، ترمق المعسكر الشيوعي بعين الخيال، تحسب أنَّ نجاتَها عنده، وعذرها أنها تريد الخلاص مما تعاني إلى ما تؤمل!! ثم إن الدين قد تخلى عن وظيفته السماوية في ظل هذه الرأسمالية!!

وقد رأينا ــ نحن العرب ــ كيف تجمّع اليهود على ديانتهم لاستئصالنا، وكيف أعانتهم الدول المسيحية الكبرى علينا إشباعاً لحقدها وجشعها.

فإذا احتقر الماديون دورَ الدينِ في صياغة مستقبل الإنسان فهم معذورون، لأنَّ طبول الحاخامات والبابوات كانت تدق بحماس في مواكب المعتدين!!

إنَّ العالم الرأسمالي ينتحر بما يتناوله من تفرقة عنصرية ومظالم مادية وأدبية، وبما يكنّه في ضميره الآثم من ضغائن على الإسلام والمسلمين..

فهل معنى هذا الكلام أنَّ البشرية ستؤثر الكفر بالله والبعد عن هداه؟ لا أعتقد.

إنها ستبقى في حيرة تطول أو تكثر، حتى يوجد جيل من الناس يقدِّم لها الهدى مقروناً بالعدل، والحريةَ مقرونةً بالفضيلة، والإيمانَ بالروح مقروناً بتقدير الجسد، والإيمانَ بالآخرة مقروناً بتقدير الدنيا.

ما اسم النظام الذي يقوم بهذا الدور الفريد المجيد؟

اسمه الإسلام!

وليس للإسلام الآن أمة تقدّمه بمفهومه الحقيقي القديم! توجد بقايا كيان متهدم تفوح منه رائحة البلى تنتشر بقاياه على أديم القارتين القديمتين، وتسكن في أكواخه ثمانمائية مليون مسلم.[1]

أنا شخصياً أحد الضائقين بأحوال هذه الأمة النائمة.. كما أنني أحد الذين

---

(١) لقد أصبح عدد المسلمين في نهاية العقد التاسع من هذا القرن العشرين ما يزيد عن ألف مليون نسمة.

يناشدون أمتهم تلك أن تعود إلى ربها ونبيها وكتابها، والله يعلم متى تجيب؟

إنني أطلب من المسلمين ــ قبل أن يحدِّدوا موقفهم من هذا وذاك ــ أن يحددو موقفهم من الإسلام المستوحش الغريب، ثم على ضوء هذا الموقف نعامل الصديق والعدو!!

وحقيقة أخرى أقررها هنا. . إنَّ الإسلام لما يأخذ بعد امتداده الذي كتب الله له!

لقد روى الإمام ابن حبان عن رسول الله ﷺ: «أنَّ هذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار». وهذا تعبير غريب وهو صريح في أنَّ الإسلام سيصبغ العالم أجمع.

كما جاء في الصحاح أنه باسم الإسلام ستمتلىء الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً، وأن صحراء الجزيرة ستتحول إلى أرضين تهتز زرعاً[٢]، وفي حديث آخر: «أمتي كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره».

ومن هنا فنحن نعتقد أنَّ المستقبل لدين الله الحق لا للنظم الأرضية الأخرى، وإذا كان مسلمو اليوم ضياعاً فلأنهم ينتمون إلى الإسلام انتماءً مزوراً، وهم عبء عليه لا عون له!

وإذا انتهى دور الإسلام في الأرض فذلك إيذان بانتهاء الإنسانية على سطح هذا الكوكب، وبدء حساب الأولين والآخرين على ما اقترفوا من خير وشر!

* * *

● **السؤال الرابع**: تثور نزعات نحو وحدة أو اتحاد في منطقتنا تحت شعار القومية العربية أو القوى التقدمية، أو تطالب بتجمع إقليمي كالمغرب الكبير مثلاً. فما رأيكم في هذا اللون من التفكير؟ وهل عندكم بديل أو صيغة أخرى تقدمونها للمجتمع المسلم؟

الجواب: التجمعات الإقليمية في إطار التكامل الاقتصادي والعمراني أمر لا حرج فيه، بل قد يكون من المصلحة العامة دراسة أقطار العالم الإسلامي الرحب لإنشاء تجمعات كثيرة تنتظمه شرقاً وغرباً وتكفل تقدمه المادي والاجتماعي، والمغرب الكبير أو وادي النيل أو الجزيرة العربية أو جزائر أندونيسيا، أو غير ذلك من الوحدات

---

(٢) إشارة إلى حديث مسلم ٣/٨٤؛ وأحمد ٢/٧٠٣؛ والحاكم ٤/٤٧٧.

الاقتصادية المتناسقة يمكن أن تولد وتنمو داخل الكيان الإنساني الموحَّد الذي يجب أن يعود إلى الحياة الدولية مرةً أخرى.

إنَّ الصعوبات التي تتوهم أمام أي تجمّع إسلامي أقل من الصعوبات التي انتصبت بالفعل أمام أي تجمع عربي.

ولكن أمام المناضلين المسلمين مراحل طويلة حتى يستطيعوا أن يقيموا جامعةً إسلامية ضخمة تلمُّ شمل المسلمين، وتداوي جراحاتهم، وتحرر مستعبديهم، وترد العدوان عنهم.

ولا أدري لماذا يكون الوجود الصيني واقعاً عادياً فيصبح ٨٠٠ مليون إنسان دولة موحدة، ويكون الوجود الإسلامي خيالاً مستبعداً؟ ولو كان اتحاد ولايات أو تحالف دول متآخية!!

إن شؤون المسلمين لا تعالج للأسف بالعقل العادي، فالتأثّر بالاستعمار والتبعية الذليلة للغزو الثقافي هما أساس التجهم الغريب لكل كلام عن الإسلام وأمته الكبرى، ووحدته المنشودة..

إنَّ الغارة الاستعمارية التي شنتها أوروبا على الإسلام وأتباعه منذ قرنين تقريباً استهدفت أمرين رهيبين:

الأول: رفض أي تلاق على الإسلام بين الشعوب المنتسبة له، وتمزيق الولاء الموروث نحو الجامعة الإسلامية وإحياء نزعات قومية حقيقية ومفتعلة، تجعل أبناء الأسرة الواحدة متناكرين لا يلوي أحدهم على الآخر، ولا يحترم آصرة الدين المشترك.. وبذلك أصبح المسلمون أوزاعاً بين ٦٠ أو ٧٠ جنسية في المجال الدولي.

الثاني: تمويت الإيمان في ضمائر الأفراد بحيث ينفصل السلوك عن العقيدة، فينحرف هذا وتنكمش تلك، ويصبح المجتمع مسرحاً للمباذل المستقرة والأهواء المطاعة والتيارات الطائشة، ثم يتحول ما بقي من دين إلى أشكال فارغة، وبدع حقيرة لا تغني عن أصحابها شيئاً.

وبكلا الأمرين نجح الاستعمار الحاقد في بلوغ أهدافه منا وكان وصوله إلى

إقامة إسرائيل سهلاً بعد التمهيد المزدوج الذي شرحناه آنفاً، وهو إبعاد الولاء للإسلام في المجال العام، وتوهين الرباط بالعقيدة في مجال العبادة والخلق وأنواع المعاملات الأخرى.

ونستطيع أن نقول دون مواربة أو مداهنة أنَّ كل نزعة ترمي إلى إضعاف الإسلام ـ من حيث هو جامعة عامة أو من حيث هو ضمير ـ ليس إلَّا امتداداً للزحف الاستعماري والتفاتاً خسيساً حول بقايا الإيمان في قلوبنا وصفوفنا.

ولن تجد إسرائيل خيراً من هذه النزعات يعينها على البقاء، ويضاعف انتصاراتها علينا.

ولا أدري كيف فشت هذه الخيانات الدينية في أرجاء الأمة العربية! إن هناك معادلة يجب أن يحفظها كل عربي عن ظهر قلب هي: «عرب - إسلام = صفر».

نعم، العرب بدون دينهم لا يساوون شيئاً.

وقد كنا نحن مسلمي إفريقيا لا نفرق بين العروبة والإسلام، كما أنَّ مؤرخي أوروبا لا يعرفون هذه التفرقة حين قال: «جوستاف لوبون»: «إن العالم لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب» حتى جاءتنا البدعة المهينة التي اختلقها ميشيل عفلق واقترح فيها البعد عن الإسلام طريقاً للبعث العربي!

والواقع أن الرجل بنصيحته تلك كان يحفر القبر العربي ليدفن فيه أمة ورسالة.

وليس غريباً من مثله أن يصنع ما صنع! إنما الغريب أن يفتتن بنعرته بعض الناس فيسارعوا إلى الارتداد عن الإسلام والكفر بالله والمرسلين.

فماذا أفادوا؟ إنه لم تظهر دعوة أشأم على قومها وأبين فشلاً وأسوأ عقبى، من هذه الدعوة المرتدة.

ولعل العرب يعقلون بعد أن مسَّ جلدهم لهب الأحداث ويعرفون إلى أين قادتهم هذه الخدع، وكيف عفَّرت وجوههم بالتراب؟

وفرية أخيرة نريد دحضها. إنَّ الإسلام لا يعرف التعصب ضد أديان أخرى، ولا يجعل الاختلاف الديني ذريعة قتال وخصام، ولو أن البضعة عشر مليوناً من يهود العالم عاشوا بين ظهراني المسلمين ما أحسوا غبناً ولا شكوا اضطهاداً مثل ما وقع

عليهم في أوروبا. إن أوروبا رمتنا بدائها وانسلت، إنها كانت ولا زالت تجعل الخلاف الديني والمذهبي مثار حروب وعداوات، وهي بهذه العقلية تحاول تمزيق الكيان العربي الذي عاش فيه المسيحيون دهراً طويلاً مواطنين مكافئين للمسلمين في الحقوق والواجبات، وهدفها إما قتل الإسلام، وإما خلق فتن طائفية في كل مكان.

والخطة معروفة، وعلى المسلمين أن يزدروها ويزدروا مروجيها، ويفضحوا من وراءهم.

إنَّ مطالبة العرب بالتخلي عن الإسلام سفالة لا قرار لها، وإني أقول لقومي: لا خيار لكم أمام مؤامرات عالمية واسعة.. مطلوب منكم أن ترتدوا عن دينكم وأن تتنازلوا عن أوطانكم، وهذه وتلك طريق العار والنار..

وتستطيعون أن تستندوا إلى ربكم وتجاهدوا دون وجودكم المادي والمعنوي.

واسمعوا قول رسول الله لكم: «إنَّ ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألَّا أسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها».

أي أنَّ قوى الشر لو تألّبت كلها ضدنا ما نالت منا شيئاً إذا توحدت كلمتنا وتجمّع شملنا وتماسك صفنا، أما إذا تفرّقنا شيعاً وانقسمنا أحزاباً فسيأكل بعضنا بعضاً، ويخلو الطريق للمتربصين.

* * *

● **السؤال الخامس**: الناس يقولون: إنَّ التشريع الإسلامي مثالي للغاية، ولكن لا يصلح للتطبيق في زماننا هذا لتداخل الظروف وتعقد الحياة الاجتماعية، فما رأيكم؟

الجواب: التشريع الإسلامي تراث رباني وإنساني ضخم، والحكم عليه بكلمات عابرة ضربٌ من الطيش يتنزه عنه العقلاء.. ولما كان هذا التشريع يتناول شؤون الأسرة، وأشتات المعاملات المالية والتجارية، ويبتّ في عقوبات لطائفة من الجنح والجنايات ويوجه في أخرى، بل إنَّ هذا التشريع يتناول دستور الحكم في الدولة ويتعرض للعلاقات بينها وبين الدول الأخرى في حالتي السلم والحرب. لما

كانت دائرة هذا التشريع رحبة إلى حد بعيد فإنَّ المرء يحار في تفسير كلمة «مثالية» هذه التي يرمى بها الإسلام في جانب رائع من تعاليمه.

وسأمشي مع الحدس في تلقي هذا الاتهام وتحديده!

لعل الإسلام مثالي في رجمه الزاني أو جلده.

إن بعض الناس إذا ذكر الشرع الإسلامي وَثَبَتْ إلى ذهنه هذه القضية الخطيرة جداً(!)

وعجيب أن يذهل الفكر البشري عن آيات الإبداع القانوني في أزكى ميراث حضاري وعته الإنسانية في تاريخها الطويل فلا ينزعج إلَّا لرجم الزاني أو جلده، أو بعض صور الحدود والقصاص الأخرى.

إنَّ قصة الرجم يوم تكون سوأةً تشريعية ـ كما يتصور البعض ـ فستكون سوأة الأديان كلها لأنَّ الرجم هو حكم التوراة كما لا يزال مقرراً في العهد القديم، وكذلك أحكام القصاص الأخرى!

وغريب أن يكون هذا الحكم شديداً، وأنَّ هذه الغرابة تنقطع يوم يبيح القانون العصري الزنا، ما دام بالتراضي واللواطة أيضاً(!) ما دام الطرفان متفاهمين!!

ويمضي الاتجاه الواقعي في مجراه المقبول(!) فيندِّد قاضٍ أمريكي برجل ضرب زوجته لأنها زنت مع صديق له، وينصحه أن يطرح رجعيته أو مثاليته ويعيش في هذا العصر المتقدم!!

إذا كانت المثالية تعني الشرف والتسامي، وإرضاء الله، وضبط النفس، وتهذيب الغرائز فيجب أن يكون التشريع مثالياً، ومن السماجة أن يعاب الإسلام في هذا المضمار..

أما الواقعية التي تعني إقرار الفسوق والعصيان، فلا أدري لماذا تسمى قانوناً؟

إنَّ المسألة ليست قتل مجرم أو قطع يده أو جلد بدنه.. إنَّ المسألة أكبر من ذلك، والشريعة الإسلامية أكبر قدراً من أن تتناول بهذا الصغار الفكري.. الأمر يتصل أولاً بحقيقة العلاقة بين الناس وربهم، وطبيعة الدين الذي نزل يحكم فيما شجر بينهم..

هذا موضـع الخلاف بيننا نحن المؤمنين، وبين غيرنا ممن وهت صلتهم بالله.

نحن نعتقـد أنَّ الوحي كـلٌ لا يتجـزّأ، وأنَّ حق الله في الحكم على عبـاده فـوق الجدل، وأنَّ شريعته تحقق العدالة والمصلحة، وأنَّ تكذيب آية في الميـراث كتكذيب آية في التوحيد أو في الصلاة، لا معنى لها إلَّا رفض الخضوع لله، والرد لأمره ونهيه.

أما بالنسبة إلى قصة المثالية والواقعية التي قد ترد على بعض الأذهان فنسوق في دحضها كلمات مبينة للأستاذ العقاد من كتابه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»[1]:

«وعلى هذه السنة من المساواة بين حق الدين في نشر العقائد، وحقه في فـرض الشرائـع والمعاملات ننظر إلى معاملات الـدين الإسلامي كمـا ننظر إلى عقـائده، فـلا نرى فيه ما يعوقه عن أداء رسالته العالمية الإنسانية التي توافرت له بدعوة إلى إلّـه واحد هـو: رب العالمين أجمعين، وخـالق الأمم بلا تمييـز بينها في الحـظوة عنده غيـر ميـزة التقوى والصلاح.. رب المشرقين ورب المغربين، يصلي له المرء حيث كان: ﴿فأينما تـولوا فثم وجه الله﴾.

فمـا منـع الإسلام قط معـاملة بين الناس تنفعهم وتخلو من الضـرر بهم، والغبن على فريق منهم.

وأساس التحريم كله في الإسلام أن يكون في العمل المحرم ضـرر أو إجحاف، أو حطة في العقل والخلق.

ومـا فرض الإسـلام من جزاء قط إلا وهـو «حدود» مقـدرة بقـدرهـا، وشـروطهـا وقيودها صالحة على موجب تلك القيود والشروط للزمان الذي شرعت فيه، ولكل زمان يـأتي من بعـده، لأنهـا لا تجمـد، ولا تتحجـر، ولا تتحـرى شيئاً غيـر مصلحـة الفـرد والجماعة، وكفى باسم «الحدود» تنبيهاً إلى حقائق الجزاء والعقاب في الإسـلام فإنهـا «حـدود» بيّنـة واضحـة تقـوم حيث قـامت أركـانهـا، ومقـاصـدهـا، وتحققت حكمتهـا وموجباتها. وإلَّا فهي حدود لا يقربها حاكم ولا محكوم إلَّا حاقت به لعنة الله.

والشبهة المتوافرة في العصر الحاضر إنمـا ترد على المعاملات الإسلامية من قبل الناقدين، والمبشرين لأنها تمس ضرورات الحياة المتجدِّدة كل يـوم، وترصـد للمسلم

(١) صفحة ١١٥.

في طـريقه حيث سـار فيتحرى النـاقد المـوطن الحساس مـن نفس المسلم حتى يلقي في روعه أنَّ شيئاً في دينه يغلّ يـديه عن العمـل في عصر المصـارف والشركـات، وأن شيئاً في دينه يتقهقر به إلى الـوراء ولا يصلـح للتطبيق في عصـر النظم الحكـومية التي تجري للقضاء والجزاء على أصول العلم والتهذيب.

وليس في المصـارف والشركـات شيءٌ نـافـع بـريء من الضـرر والغبن يحـرمـه الإسلام».

. . . إنَّ سلاطين القانون اعترفوا في مجامعهم العلميـة ومؤتمراتهم الـدولية بمـا للشريعة الإسلامية من قدر رفيـع.

والواقـع أن أئمة الفقه عندنا ـ على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم ـ ورثـونا تـركة فنية لا نظير لها في أزهى المدنيات القديمة والحديثة، ولا تزال بحوثهم الغنيـة المترفـة مفخرة للفكر الإنساني المجرد، ثم جـاءت هذه الأجيـال الهابـطة من ذراري المسلمين المتخلفين تنـظر إلى ما لـديها من كنـوز نظرة بلهـاء، ثم تـردد مـع عمـلاء الصهيـونيـة والاستعمار أن الإسلام مثالي وأن تشريعه لا يصلـح للمجتمـع!

إذا مـحـاسـنـي الـلاتـي أدلُّ بـهـا   كـانت عيـوبـاً فقـل لي: كيف أعتـذر

* * *

● **السؤال السادس**: قضية الجنس استبـدّت بتفكير النـاس وفرضت نفسهـا على المجتمعات متحضرة ومتخلفة، فما العلاج عندكم؟

الجـواب: استشـراء الفسـاد الجنسي أمسى حقيقـة لا ريب فيهـا، ولكنني أعـد التقاليد البالية شريكة في المسؤولية الجنائية مع الانحـلال الذي وفـدت به المـدنية العصرية. .

إنَّ هذه التقاليد لا تعرف الأحكام الإسلامية الصحيحة في كثير من القضايا، وإذا عرفتها لم تقف مـع بواعث التقوى وخشية الله في تنفيذها. ومن مقررات هـذه التقاليـد المريضة جعل الزواج مشكلة اقتصادية رهيبة، ثم فساد الصورة الإنسانية لوظيفـة المرأة قبل الزواج وبعده. . والجهل التام بدور الأسرة في التربية على امتداد مـراحل العمـر، وهـذه التقاليـد التي تنهض على الريـاء والتظاهـر والتكلف كانت ولا زالت من أسبـاب

انهيار الحضارة الإسلامية وتوالد أجيال حقيرة الفكر والسيرة والأماني والهمم.

ولكي نعود إلى ديننا ونتصل بسيره الأُوَل، ونتحصّن ضد العلل النفسية والاجتماعية التي زحفت علينا مع الغزو الأجنبي لا بد من رعاية أمور شتى:

أولاً: توثيق الصلة بين المرأة وينابيع الثقافة الدينية والمدنية.

ثانياً: إعادة الحياة للعلاقة بين النساء وبيوت الله في الصلوات.

ثالثاً: تدريس الوظائف التربوية للبيت المسلم حتى نستطيع تخريج أجيال تعرف ربها ودينها ومعاشها ومعادها على قواعد مغروسة في اللحم والدم، وفضائل يرضعها النشء مع اللبن.

رابعاً: الحكم بإعدام ما تواصى المسلمون به في تقاليد الزواج من مغالاة في المهور وإسراف في الحفلات، وتكديس للأثاث، وتنافس في الكماليات، وإعادة الزواج إلى معناه السهل القديم ليكون عصمةً وسياجاً للدين والدنيا.

خامساً: وَصْلُ ما بين البيت المسلم وقضايا المجتمع الكبرى حتى لا يحيا بيت في جو منافعه الخاصة جاهلاً أو جاحداً ما وراءها، ولو أنَّ كل دولة مسلمة أنشأت وزارةً للأسرة والشباب كي تضمن ما ذكرنا ما كان ذلك كثيراً، بل لعله يكون أقرب إلى حياتنا الإسلامية الصحيحة.

لقد راقبت وضع المرأة في شتى البيئات فوجدت إنسانةً محكوماً عليها بالجهل أو القصور، مفروضاً عليها التفريط في حقوق الله وتعاليم دينه فلم ذلك؟ وكيف يقع ذلك باسم الإسلام؟

ورأيت جماهير المسلمين وكأنّها متفقة على جعل الزواج مشكلةً تقصم الظهور دون مبالاة بما ينشأ عن ذلك من شيوع الفسق والفجور، فأيُّ تديّن هذا؟ وبأيٍّ حق يستولي بعض الآباء على المهور؟

وبأيٍّ حق يكلف بعض آخر بالاستدانة ليعين على زواج ابنته؟ ولماذا تطلب البنت عندنا أثاثاً لا تطلبه لنفسها المرأة الغربية ولا المرأة الشرقية؟

إنَّ المرأة العربية العادية ربما فرضت لنفسها بيتاً لا تحلم به امرأة من روّاد الفضاء، فلمَ بالله هذا الترف؟

لماذا نرتضي إغلاق البيوت على ألوف العوانس إذا لم يتزوجن وفق هذه التقاليد السفيهة؟

وإلى أين تقودنا تقاليد الرياء التي تواضعنا على الاحتكام إليها ناسين ديننا ودنيانا على السواء؟

إذا كان الإسلام دين الفطرة فإن العالم الإسلامي يكذب على فطرته، ويفتح أقطاره لفساد جنسي زاحف من كل ناحية يجعل الزنا عملة متداولة دون حرج، ويعطي كل أنثى وذكر حق الاتصال الحرام كلًا أو بعضاً حسب ما يشتهي.

والذين يفتعلون الأزمات والعوائق في الطعام الحلال لا ينتظرون إلَّا إقبال الناس على الحرام الرخيص يعبُّون منه عباً.

وقد رأيت بنفسي ـ للأسف ـ ناساً يؤخرون زواجهم إلى سنٍّ معينة حتى يتموه وفق تقاليده المقررة.. وإلى بلوغ هذه السن لا مانع من الزنا، وغير الزنا!!

ورأيت ناساً يستدينون بالربا ليقيموا الأحفال المطلوبة!

ومن هؤلاء من يقتل المرأة إذا زنت ويترك الشاب دون غضب! فعلمت أنَّ المسلمين في هذا المجال وغيره لا يكترثون بحدود الله ولا يبالون سخطه، وأنهم كما يهوون، وقد يتبجَّح بعضهم فيصف هواه بأنه دين، وما هو إلَّا الكذب على رب العالمين.

يجب تسهيل الزواج وإحكام التطبيق الديني في شؤون الرجال والنساء على سواء.

* * *

● **السؤال السابع**: مناهج التربية في مدارسنا وجامعاتنا صارت وسيلة للتوظف وكسب العيش، وخلت من كل توجيه ونحن نحب أن نستنير برأيكم في الوسيلة المثلى لمناهج التربية حتى يتخرج جيل مسلم..

الجواب: توجد في مدارسنا وجامعاتنا برامج دراسية حسنة تقدم أنصبة من العلم تشبه ما تقدمه نظائرها في أعظم الأقطار ويمكن أن تكون بعض المراحل الدراسية عندنا مساوية في تقدمها العلمي لما يقابلها في الشرق والغرب. أما أن مناهج التربية تواكب مناهج للتعليم فالأمر يحتاج إلى نظر وتأمل..!

إنَّ العلم شحن الأذهان بألوان لا حصر لها من المعرفة.

أما التربية فهي الإفادة من هذا التقدم لتزكية الشخصية وتهذيب سلوكها.

والتربية الدينية نوعٌ خاص من البناء المعنوي يجعل المرء متجهاً بقواه كلها إلى غاية معلومة وضابطاً لحياته وفق نظام مرسوم.

وهذا النوع من التوعية الدينية معدوم في بعض الجامعات محارب في بعضه، معتَرَف به ومعترف بغيره في بعض ثالث، وربما قدم نصيب محدود منه في جامعة الأزهر! والأصل في التربية تعهد الأخلاق، ولما كان الخلق ـ بالتعريف العلمي ـ هو عادة الإرادة فإن المفروض في برامج التربية:

أولاً: أن ترسم الوجهة للسلوك المنشود.

ثانياً: أن تدرب الأفراد على هذا السلوك، وتأخذهم به أخذاً مستمراً حتى يصبح طبعاً لهم وصبغة ثابتة فيهم، فالمربي أشبه بالزارع الذي يتولى البذر والحرث والسقيا والحماية والإخصاب والانتقاء حتى تنضج الثمرة وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

والطالب الذي يمر بهذه الأدوار، يصاغ في قوالب معروفة الشكل والصورة، فإذا رُبّي على الصدق صعب عليه الاختلاق والتخريف، وإذا رُبيَ على الأمانة انزعج من العوج والغدر.

وفي أثر التعود واستقامة الوجهة يقول الشاعر:

تعوَّد بسطَ الكفِّ حتى لو أنه ثناها لبخل لم تطعه أنامله

ويقول آخر:

وينشأ ناشئُ الفتى فينا على ما كان عَوَّده أبوه!

وقد ربّى الله محمداً ﷺ ليربِّي به العرب، وربَّى العرب ليهذِّبَ بهم العالم أجمع:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

وكلمة التزكية تعني التربية، والتسامي بالنفس وامتلاك الهوى.

وذلك معنى الآية: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾. [الشمس: ٧ ـ ١٠].

والتربية الإسلامية مذ دخل الاستعمار بلادنا تمر بمحنة شديدة، فلما خرج ووقعت البلاد في الأيدي التي تتلمذت عليه مرت التربية الإسلامية بمحنة أشد.

وذلك هو السرُّ في أننا نجد أصحاب محاصيل علمية كبيرة وكلها قليلة الجدوى، إن لم تكن قريبة الضرر.

فإنَّ العلم عند هؤلاء وقف عند حدود التصور الذهني وحشو الأدمغة بجمل من القوانين والأحكام.

أما التربية التي تتوسل بهذا العلم إلى رفع المستوى النفسي والاجتماعي والتي تحول الشخص إلى صاحب مبادىء ومُثُل يعيش لها وقد يضحي من أجلها..

هذه التربية لم توجد لها بعد مناهج واضحة ومؤسسات مسؤولة.

والسبب في ذلك هو الكره الخفي أو الجلي للإسلام وتاريخه ومطالبه ووصاياه.

التعليم في روسيا يكرّس لخدمة الشيوعية، والتعليم في بلاد كثيرة يربط بأهداف شتى.

وكان مفروضاً أن يصحب برامج التعليم عندنا برامج للتربية الإسلامية اليقظى تشرف على السلوك الفردي والجماعي، وتجعل الحياة الخاصة والعامة محكومة بآداب الإسلام وتوجيهاته[1].

ولكنَّ الإسلام دينٌ مهزوم في المجالات الدولية وقد انسحبت آثار هزيمته على مطالبه في بلاده نفسها فأضحت كما نرى:

متعلمين يريدون بشهاداتهم العلمية مستوى معيناً من المعيشة، وسعراً خاصاً لما نالوه من دراسات وكفى!

فإذا ذهبت تفحص سلوكهم وجدت العلم قد أفاد في تغيير الوسائل فقط، أما المآرب الدنيا فهي هي عندهم وعند الجهال!

ويستحيل أن تنهض أمتنا إلَّا يوم يكون العلم والتربية قرينين، ويوم تتقرر آداب الإسلام ومُثُله دون حرج أو دجل.

● ● ●

---

(١) راجع في هذا الباب: هذه المقررات لا نريد أن تنسى.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

• • •